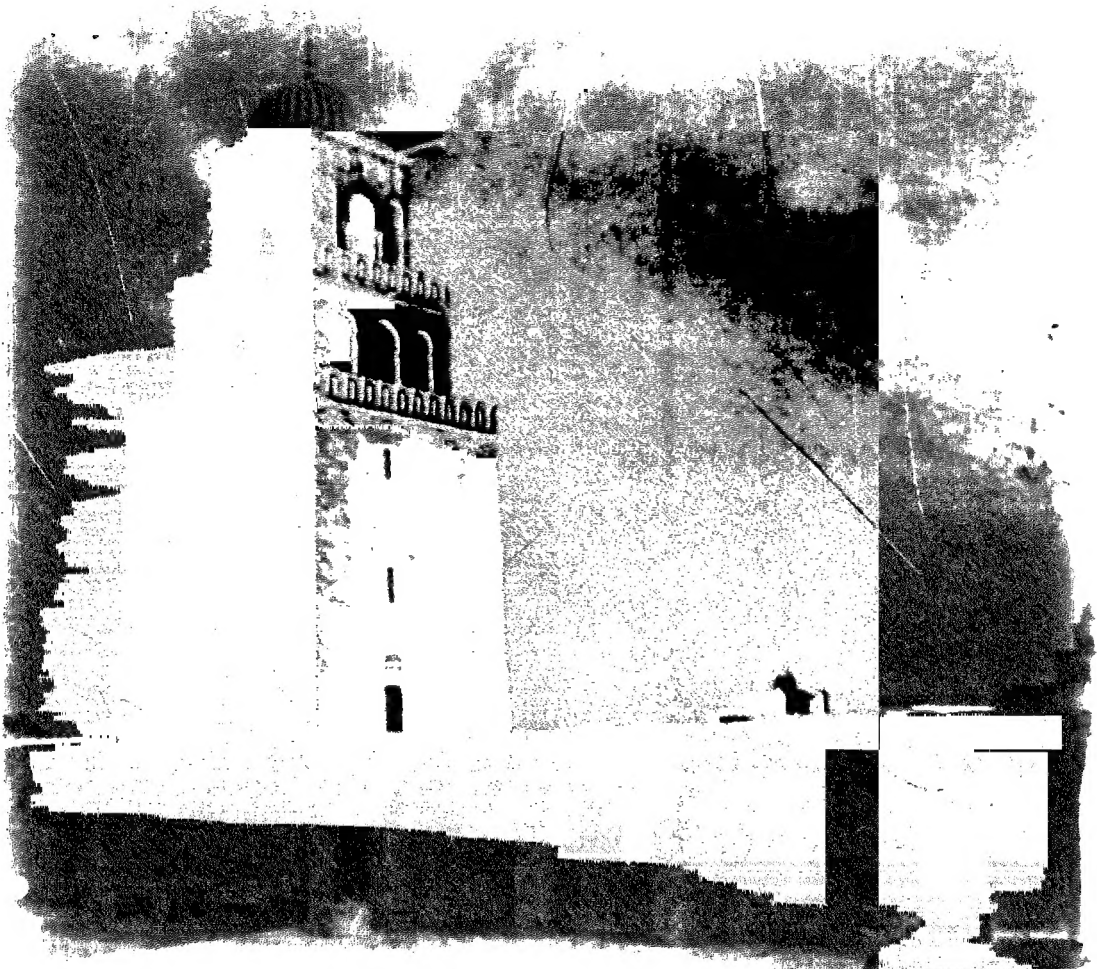




دكتور محمود إسماعيل



سلسلة

١٨٤ هـ - ٢٩٦ هـ

سياستهم الخارجية

010700



Bibliotheca Alexandrina

الدرء الغالب

(١٨٤ - ٢٩٦ هـ)
سياستهم الخارجية

دكتور محمود اسماعيل

الطبعة الثالثة

٢٠٠٠ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EÎN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . علي السيد علي

د . قاسم عيده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيق

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ه شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم - رمز بريدي ١٢٥٦٧

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

يسعدنى أن أقدم للمهتمين بتاريخ الإسلام فى المغرب هذا الموضوع الجديد بحق عن «سياسة الأغالبة الخارجية» . كيف ارتبطوا بعالم البحر الأبيض المتوسط ؟ وكيف أصبحت القيروان فى عهدهم من المراكز السياسية الكبيرة فى هذا العالم ؟ ، وكيف مكنتهم السيادة البحرية التى أحرزوها من السيطرة على طرق التجارة البحرية ؟ ، وكيف قاموا بدور الوسيط بين الشرق والغرب ؟ ، وكيف أصبحت مراكزهم فى بلرم وبارى وموانئ الساحل الإفريقى شرايين للحياة الاقتصادية ؟ وكيف اتصلوا بالتيارات الحضارية فنهلوا منها ما طاب لهم دون تعصب أو جمود ، وكيف أصبحت القيروان فى ظلهم مشعلا للفكر الإسلامى فى الغرب ؟

كل ذلك فى دراسة عميقة أصيلة معتمدة على أوثق المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة بالإضافة إلى الحشد الكبير من المصادر الإفرنجية والدوريات، مشفوعة بالملاحق والفرائط .

كما يسرنى أن أقدم للقراء نجما جديداً يطلع فى سماء الدراسات الإسلامية ثابت القدمين عميق النظرة يستكنه النصوص ويغوص وراء الحقائق ، يجنح إلى التحليل ونقد الأصول وإعمال الرأى فيما رواه السلف وهو تلميذى الدكتور محمود إسماعيل عبد الرازق مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب- جامعة عين شمس - عرفته طالباً من أئبه الطلاب الذين جلسوا منى مجلس الدرس فى قسم التاريخ بجامعة القاهرة، ثم أشرفت على البحث الذى أعده لدرجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى حتى نال الدرجة بامتياز ، ثم واصلت الإشراف على بحثه لدرجة الدكتوراة فنالها بمرتبة الشرف الأولى.

ويبحث هذا عن سياسة الأغالبة الخارجية هو خطوته الأولى وأرجو أن تتلوها خطوات كما أمل أن يتقبل الدارسون والمتخصصون والقراء هذا العمل قبولاً حسناً والله ولى التوفيق .

دكتور حسن أحمد محمود
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب جامعة القاهرة

مقدمة الطبعة الثانية

ما كنت أتوقع أن يحرز هذا العمل المتواضع ما أحرز من صدى طيب لدى المهتمين بتاريخ وحضارة الإسلام بعامة والمتخصصين فى تاريخ المغرب والأندلس بخاصة . ذلك أن هذا الكتاب يعد باكورة ما أنجزت من دراسات، فكان موضوعه هو رسالتى للماجستير التى حرصت أن أنشرها دون أدنى تعديل أو تغيير لا شئ إلا لتقف شاهداً على مبلغ تفكيرى ومدى قمرى فى البحث فى مرحلة معينة .. والحق- أعترف أن كثيراً من نواحي القصور وعدم النضج كانت تشوب هذا العمل ، وكنت أشعر أحياناً بعدم الرضى وأنا أقوم بتدريس الموضوع على طلبتى بالجامعة ، ولا أنسى بعض الملاحظات الذكية التى أبدتها بعض طلبتى النجباء فى انتقاد بعض الآراء التى تضمنها الكتاب، وكان ذلك لى حافزاً على معاودة البحث لتوضيح ما كان مبهماً واستيفاء ما كان ناقصاً .

وقبل ذلك كان قد توفر لى الوقوف على مادة جديدة وأنا بصدد الإعداد لدرجة الدكتوراة عن تاريخ الخوارج فى المغرب ، أفدت منها فى تعديل بعض الآراء وخاصة المتعلقة بعلاقة الأغالبية مع الدول المغربية المعاصرة لها . إن مرور ما ينيف على عشرة أعوام على إعداد هذه الدراسة قمين بالقاء أضواء جديدة على الموضوع حين فكرت فى مراجعته تمهيداً لنشره للمرة الثانية بعد مزيد من التمرس والخبرة المنهجية فى حقل الدراسات الإسلامية . وأتوه بأن الطبعة الثانية خلو من كثير من الأخطاء اللغوية والمطبعية التى زخرت بها الطبعة الأولى للكتاب ، واعتقد أن الكتاب فى صورته الجديدة حرى باثارة اهتمام القراء العرب فى هذه الأيام، إذ يقدم تجربة ثرية لدولة إسلامية فتية سجلت صفحة مشرقة فى التاريخ بجوانبه السياسية والعسكرية والحضارية ؛ ما أحرانا بتمثلها ونحن ننقب فى التراث عن نواحي أصالتنا لتكون ركيزة للانطلاق نحو اللحاق بعجلة العصر.

د. محمود اسماعيل

فاس- يوليو ١٩٧٨

مقدمة الطبعة الأولى

تعتبر دولة الأغلبية فى إفريقيا أولى دول المغرب الإسلامى إسهاما فى العلاقات الدولية، ومشاركة فى أحداث العالمين الإسلامى والمسيحى، وبخاصة فى عالم البحر المتوسط . وقد عبرت هذه الدولة عن شخصية المغرب الإسلامى عقب التغيير السياسى والاجتماعى الشامل الذى أحدثه الفتح العربى، فمع أن قيام دول المدرايين والرسامين والأدارسة سابق على قيام دولة الأغلبية ، إلا أنه لم يكن لهم نفس التأثير الذى تركه الأغلبية، فدولتى الخوارج اتسمتا بالطابع المحلى، وعاشت فى عزلة سياسية بعد أن أولتا ظهريهما لعالم البحر المتوسط، وانشغلتا بالمسائل الداخلية المتعلقة بالحكم والنواحي الإقتصادية . ومن هنا كانت علاقاتها الخارجية قاصرة على الجنوب ، ولم يتعد دورها التاريخى المشاركة فى تجارة الصحراء . كذلك فقد أملت الظروف المحيطة بدولة الأدارسة ، ووجودها بين أعداء سياسيين ومذهبيين ، أن تعتكف داخل حدودها وتتخذ من الوسائل الدفاعية ما يكفل لها البقاء، ومن هنا كان دورها قاصراً على مجرد إقرار الإسلام فى المغرب الأقصى.

أما الأغلبية ، ففضلاً عن تحقيقهم الاستقلال السياسى للبربر فى إفريقيا ، تطلعوا إلى عالم البحر الأبيض المتوسط بما خاضه من حروب مع القوى المظلة على شاطئه ، ودانت لهم بعض جزره ، وهبطت جيوشهم جنوب إيطاليا لتنتشر الإسلام والحضارة العربية . كما دخلوا ميدان الصراع الدولى، وأصبحت القيروان من المراكز السياسية الكبرى فى عالم البحر المتوسط.

وقد خرج الأغلبية من هذا الاحتكاك السياسى بمكاسب عسكرية، كما أتيح لهم نوع من السيادة البحرية مكنتهم من السيطرة على طرق التجارة، فورثوا دور بيزنطة فى الوساطة بين تجارة الشرق والغرب ، وأصبحت مراكز الأغلبية فى بلرم وموانئ الساحل الإفريقى بمثابة شرايين الحياة الاقتصادية فى عالم البحر المتوسط.

وفضلاً عن ذلك فقد أتاح لهم الاحتكاك السياسى والعسكرى الاتصال بالتيارات الحضارية فنهلوا منها، وأضافوا إليها، لم يثمنهم عن ذلك تعصيب أو جمود ، وصارت القيروان مشعلاً للحضارة الإسلامية فى الغرب. فوفد العلماء إليها والدارسون من سائر البلاد الإسلامية ،

وأصبحت قبلة للمشاركة والأندلسيين يقصدونها للعلم والدراسة. كما قدر للأغمال على مختلف الأنماط والتقاليد الفنية ، فتأثروا بها فى فنونهم سواء أكانت إسلامية مسيحية ، ثم تكونت لهم مدرسة فى الفن تركت أثرها فى فنون الإسلام بالمغرب والأندلس وعلى الرغم من أهمية دور الأغالبة فى تاريخ العلاقات الدولية، سياسية كانت فإن أحداً من المؤرخين- فيما نعلم- لم يول هذا الموضوع ما يستحق من عناية ودراسة حقيقة أن بعض المستشرقين تناولوا بعض جوانبه السياسية من خلال دراسة الإسلام البيزنطية على العموم، كما أن بعضهم عرض لأطراف منها معتمدا على تاريخ الأغالبة فقط، فجاءت دراساتهم - فى هذا الصدد- غير متكاملة . وحسبنا مثل فندرهيدن لم يعرض إلا للجانب السياسى من هذه العلاقات - وهو يؤرخ لدولة فى إيجاز شديد.

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الجوانب الحضارية من العلاقات الأغلبية لم يعرض لها ولم يكتب فيها إلا ما ورد عفواً فى تاريخ التجارة والثقافة والفن بعامته . وبقيت الطبقات- التى تعطى صورة واضحة عن حضارة الأغالبة- كما مهملاً لا يلتفت إليه . وعلى العموم ، فإن هذا الموضوع رغم تشعبه وغموضه ، أمكننى جمع شتاتة الدراسة التفصيلية لتواريخ الدول ذات العلاقات بالأغالبة ، وفى ضوء العلاقات كما أمكن التغلب على التضارب فى الروايات ، وتوضيح بعض الحقائق الهامة لأول عرضت العلاقات الإقتصادية فى ضوء ما قدمته كتب الجغرافيا والرحلات من معلوم عن أحوال إفريقية الإقتصادية فى عهد الأغالبة . وعנית أيضا بالعلاقات الثقافية من المادة العلمية الوفيرة التى حفلت بها كتب الطبقات .

وقد حتم ذلك المنهج أن نفرّد الباب الأول لدراسة قيام دولة الأغالبة والظروف التى فيها، ومدى انعكاس هذه الظروف على اتجاهاتها السياسية، ووضعها الإقتصادى الدينى . وأن نخصص الباب الثانى لدراسة العلاقات مع المشرق الإسلامى، ووقت الأغالبة بالخلافة العباسية، ثم العلاقات بينها وبين مصر . أما الباب الثالث فقد أقره بينها وبين دول المغرب والأندلس . وشمل الباب الرابع علاقات الأغالبة بالعالم المسيحي حين خصص الباب الخامس لدراسة سقوط دولة الأغالبة.

هذا- ولم ندخر وسعا فى الاطلاع على المصادر التى تمس الموضوع من قريب أو بعيد، فاستعنت بعدد من المخطوطات التى تتناول كثيرا من جوانبه. وعلى الرغم من أن ما كتبه النويرى^(١) والمنصورى^(٢) يرجع إلى عصر متأخر من تاريخ الدولة التى نحن بصددها، وعلى الرغم من اعتمادهما على مؤرخين سابقين كابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون، فقد حفلا - وخاصة النويرى- بمعلومات وفيرة عن الجانب السياسى من العلاقات الأغلبية . وما كتبه أبو زكريا^(٣) والدرجيني^(٤) - الذى نقل عنه كثيرا- كان جل اعتمادنا عليه فى دراسة العلاقات مع الرستميين، مع تحيزهما الواضح للدولة الرستمية . ونفس الشئ يقال عن صاحب تاريخ^(٥) مدينة فاس وبناء جامع القرويين والأندلسيين بصدد دراسة العلاقات مع الأدارسة . أما القاضى عياض^(٦)، فقد أمدنا بمادة غزيرة عن فقهاء المالكية، وبالتالى عن الحياة الثقافية والاجتماعية بإفريقية الأغلبية ، فضلا عن العلاقات مع البيزنطيين التى استشفنا الكثير من مادتها من خلال ما ذكره حول الرباطات والمرابطين .

وفى دراسة علاقات الأغلبية بالمشرق الإسلامى، أمدنا ابن الأثير والبلاذرى والسيوطى وابن الصائى والكندى والبلورى وابن الداية وابن طيفور والقلقشندى وابن تغرى بردى بمادة وفيرة أمكن الاستفادة بها فى تفسير أحوال المشرق الإسلامى التى شكلت طبيعة علاقته بالأغلبية .

أما أشهر المؤرخين الذين كتبوا عن المغرب والأندلس فلا شك فى أن فى طليعتهم ابن عذارى وابن خلدون - رغم تحيزه ، وعدم دقة كثير من تواريخه - وابن الخطيب وابن الأبار والسلوى .

١- نهاية الأوب : ج ٢٢ ، ج ٢٦ مخطوط بدار الكتب المصرية .

٢- زبدة الفكرة ج ٤ ، ج ٥ مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة .

٣- كتاب السيرة ، وأخبار الأئمة مخطوط بدار الكتب المصرية.

٤- طبقات الإباضية ج ١ مخطوط بدار الكتب المصرية.

٥- مؤلف مجهول : مخطوط بدار الكتب المصرية .

٦- ترتيب المدارك وتقريب المسالك . قسم ١ من ج ٢ مخطوط بدار الكتب المصرية.

وقد أمدتنا كتب الجغرافيا والرحلات بفيض من المعلومات عن النواحي الاقتصادية ، وحسبنا أن البكرى يعتبر من أهم مصادر تاريخ الأغلبية ، ويأتى الإدريسى واليعقوبى وابن حوقل وابن خرداذبة والاصطخرى فى مرتبة تالية.

كما اعتمدنا على كتب الطبقات للتأريخ للعلاقات الثقافية، فقد أمدتنا طبقات المالكية بالشئ الكثير عن المجتمع الأغلبى وثقافته وأنماط الحياة فيه، وحياة الأمراء والفقهاء ونظم القضاء والإدارة والمعاملات... الخ. ومن أهم هذه الكتب ما ألفه ابن الفرضى وابن فرحون وأبو العرب تميم والحشنى والمالكى واللباغ .

ولم تغفل الاطلاع على كتابات من أرخوا للمذاهب والفرق الإسلامية كالشهرستانى وعبد القاهر البغدادى وأبى غانم الصفرى. وكذلك على المصادر الأدبية وكتب النقود. هذا، فضلا عن كتابات المستشرقين الذين أرخوا للمغرب والأندلس كبروفنسال ودوزى ومارسيه وجوليان وفورنل وأمارى وغيرهم.

وقد حفلت دوائر المعارف والدوريات العربية والإفرنجية بأبحاث ومقالات طيبة أنارت الكثير من غوامض هذا الموضوع . ومن أهم هذه الموسوعات والدوريات دائرة المعارف الإسلامية، ومجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، ومجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، والمجلة التاريخية المصرية. ومن الدوريات الإفرنجية

Revue Tunisienne, Revue des etudes islamiques, American Journal of Archeology.

ولايفوتنى فى هذا المقام أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان لأستاذى الدكتور حسن محمود أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة لإشرافه على هذا البحث الذى حصلت به على درجة الماجستير فى عام ١٩٦٧م.

والله يوفقنا فى متابعة دراسة التاريخ الإسلامى، إنه ولى التوفيق .

الباب الأول

قيام دولة الأغالبة

أولا - إفريقية قبيل قيام دولة الأغالبة

يرتبط قيام دولة الأغالبة فى إفريقية عام ١٨٤هـ ارتباطا وثيقا بما ساد البلاد من فوضى واضطراب أثناء حكم الخلفاء العباسيين الأوائل .

والواقع أن الخلافة العباسية انشغلت بمشاكل المشرق، فكان عليها أن تواجه مطامع القواد من الفرس والخراسانيين، وتحارب الزندقة، وتصفى حركات العلويين، وتواجه أخطار البيزنطيين والترك، لذلك لم يعن الخلفاء كثيرا بما حدث فى المغرب، ولم يواجهوا المشاكل فى سرعة وحزم، فالخليفة أهر العباس السفاح مثلاً اكتفى بمبايعة عبد الرحمن بن حبيب إياه ، فأقره على ولايته^(١)، ولم يكن سلطان ابن حبيب يتجاوز القيروان، لهذا لم يخضع المغرب كله للخلافة فى ذلك الحين.

ولما ولى المنصور الخلافة، كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعو إلى الطاعة فاستجاب له بشرط الاكتفاء بالدعاء له فى الخطبة دون التزامات مالية، ولما كتب إليه المنصور يتوعده ، انشق عليه وخلع طاعته ، ونزع السواد شعار العباسيين^(٢)، دون أن ينفذ المنصور وعيده .

وفى ظل هذا الوضع الجديد وجد الخوارج الفرصة مواتية لاستئناف ثوراتهم- التى أخمدها الأمويين من قبل- ففى عام ١٤٠هـ نجحت قبيلة ورفجومة من الخوارج الصفرية فى الاستيلاء على القيروان، وسوم أهلها سوء العذاب^(٣)، واستطاع الخوارج السيطرة على إفريقية كلها^(٤).

١- ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٦٣ .

٢- نفسه ص ٦٧ .

٣- ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٢ .

٤- البيان المغرب ج ١ ص ٨٣ .

غير أن انشقاقهم إلى صفرية وإباضية حال دون القضاء على نفوذ الخلافة من المغرب نهائياً. ذلك أن الإباضية بقيادة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى نازعوا ورفجومة الصفرية وأقصوهم عن القيروان فى صفر سنة ١٤١هـ^(٥).

ولما تفاقم خطر الإباضية ، أرسل المنصور عامله على مصر محمد بن الأشعث على رأس جيش عظيم لتأديب الثوار واستعادة سلطان الخلافة ، ونجح بن الأشعث بعد معارك عدة فى استرداد القيروان سنة ١٤٢هـ^(٦).

ولم يستطع المنصور القضاء على الخوارج نهائياً، إنما درج على إرسال حملات انتقامية كلما تفاقم الأخطار ، لكن الثورات كانت لاتلبث أن تندلع من جديد . حقيقة أنه حرص على اختيار ولاية القيروان من خاصته^(٧) رغبة منه فى استرداد نفوذ الخلافة هناك، غير أنه لم يقم بجهد حاسم لاقتلاع المشاكل من جذورها . فاستمرت ثورات الخوارج فى وجه الخلافة العباسية إلى أن قضى عليها الأمراء المهلبيون بعد جهود متواصلة وحروب كثيرة^(٨).

وإزاء تنكيل يزيد بن حاتم وابنه داود وأخيه روح^(٩)، ترك الخوارج أسلوب الثورة وعمدوا إلى إقامة دول مستقلة عن الخلافة فى المغربين الأوسط والأقصى .

وما لاشك فيه أن نجاح عبد الرحمن الأموى فى الاستقلال بالأندلس دون أن يعبأ بانتقام الخلافة العباسية ، شجع البربر على اتباع هذا الأسلوب فى بلاد المغرب .

على كل حال انسلخ المغربين الأوسط والأقصى عن نفوذ الخلافة بعد قيام الخوارج الصفرية بتأسيس دولة بنى مدرار فى سجلماسة سنة ١٤٠هـ^(١٠)، كما نجح الخوارج الإباضية فى

٥- العبرج ٦ ص ١١٣ .

٦- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٥ ، أبو زكريا : كتاب السيرة وأخبار الأئمة ورقة ١٠ .

٧- البيان المغرب ج ١ ص ٢٧ .

٨- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٥١٠ .

٩- العبرج ٦ ص ١١٤ .

١٠- السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١١١ .

إقامة الدولة الرستمية بتاهرت سنة ١٦٢هـ^(١١) فى حين تجمعت قبائل المغرب الأقصى حول إدريس بن عبد الله لتنشأ دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ^(١٢).

ويبدو أن الخلافة لم تحاول استرداد هذا الجزء من ممتلكاتها بالمغرب، فلم تتخذ من الوسائل ما يكفل لها القضاء على المدرارين الرستميين، فالدولة المدرارية ظلت منفصلة عن الخلافة حتى سقوطها فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ولم نسمع عن جيش عباسى عمل وراء الزاب ليقوم بالخيولة دون قيام الدولة الإباضية^(١٣). بل وادع روح بن حاتم - عامل الرشيد على القيروان- إمام تاهرت واكتفى منه بحسن الجوار^(١٤). ولم يكن بوسع الرشيد أن يبعث جيوشه لمواجهة خطر الأدارسة بعد استيلاء إدريس الأول على تلمسان «باب إفريقية» ، إنما استخدم أسلوب الدهاء والغدر حتى تم له اغتياله^(١٥).

وثمة ظاهرة جديدة فى تاريخ إفريقية زمن الأمراء المهلبيين ظهرت بوادها إبان ولاية ابن الأشعث ألا وهى فتن الجند . والواقع أن هذه الظاهرة ترتبط إلى حد كبير بإخماد ثورات الخوارج ، إذ يبدو أن الأمراء المهلبيين لم يستأصلوا الفتنة تماماً^(١٦)، فتشير المصادر^(١٧) إلى أن «هروثة بن أعين سير إلى الشوار البربر يحيى بن موسى فى جيش كبير تمكن من قمع ثورتهم». لكن الأمر الذى لاشك فيه أن الخوارج لم يعد لهم أثر كبير فى توجيه الأحداث بإفريقية منذ عهد آل المهلب، إنما الخطر الذى استجد كان خطر الجند الخلافي .

وقيام دولة الأغالبة ارتبط بفتن الجند وثوراتهم على عامل القيروان ؛ حتى أن مؤرخا مثل تيراس^(١٨) يذهب إلى أنها وليدة تطاحن العصبية. لكن الثابت أن المشاحنات بين الجند ترجع

١١- الدرجنى : طبقات الإباضية ج ١ ورقة ١٨ مخطوط .

١٢- الاستقصا ج ١ ص ١٤١ .

١٣- طبقات الإباضية : ج ١ ورقة ١٧ .

١٤- العبر ج ٦ ص ١١٣ .

١٥- مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ١٦ مخطوط .

١٦- ابن أبى زرع ج ٦ ص ٣٢ ، البيان المغرب ج ١ ص ١٤ ، العبر ج ٦ ص ١١٣ .

١٧- انظر : الكامل ج ٦ ص ٣٢ ، البيان المغرب ج ١ ص ١٤ ، العبر ج ٦ ص ١١٣ . La Vonderheden, Berberie Orientale p. 9 .

L' Art Hispano Mauresque. p. 232 .

إلى العصر الأموي، فالخلافة بين القيسية واليمينية وجد طريقه إلى البلاد منذ الفتح . ولما كانت غالبية الجند من اليمينية ، فقد نظروا إلى القيسية - الذين حظوا بمؤازرة الخلافة- نظرتهم إلى عدو دخيل .

وبقيام الخلافة العباسية لم يجد العنصر العربي في إفريقية - قيسية وعينية - سنداً من الدولة^(١٩) . كما وفدت عناصر أخرى من الفرس والحراسانيين في الحملات التي كان العباسيون يرسلونها إلى إفريقية بين الحين والآخر^(٢٠)، ولهذا سادت الاضطرابات بين العرب وبين الفرس والحراسانيين . ففي سنة ١٤٨ هـ قامت أولى ثورات الجند على ابن الأشعث وأرغمه الشوار على الرحيل عن القيروان ، ونصبوا عيسى بن موسى والياً دون إذن المنصور^(٢١) . كما قتلوا الأغلب بن سالم سنة ١٥٠ هـ وهو يحاول تدعيم نفوذ الخلافة في المغرب الأقصى^(٢٢) ، وبلغ خطرهم ذروته في ثورة ابن الجارود على الفضل بن روح الذي ولى إفريقية سنة ١٧٧ هـ بعد عزل نصر بن حبيب . وسبب ذلك سوء معاملة الفضل لهم^(٢٣) ، وعمله على إغضابهم بتعيينه المغيرة بن بشر بن روح عاملاً على تونس مع ما عرف عنه من سوء سياسية . فالتف الجند حول ابن الجارود - ويعرف أحياناً بعبدويه الأتباري^(٢٤) - وطلبوا إلى الفضل عزل المغيرة، فلما لم يجيبهم إلى ما طلبوا طردوه من المدينة وبعثوا إلى الفضل في طلب من يخلفه ، فأرسل إليهم عبدالله بن يزيد المهلبى وحذرهم من سوء العاقبة إن هو مس بسوء . وقد اشتبك مع جند القيروان في معركة قرب تونس هزم فيها جند الفضل وقتل نائبه الجديد . وكشف ابن الجارود النقاب عن أهدافه ، فكتب إلى رؤساء الجند بإفريقية يمتنى كلا منهم بالولاية، ويحرضهم على الثورة . ونجحت سياسته إلى أبعد الحدود فاستمال كافة جند الفضل وأسرع بالزحف إلى القيروان ، فدخلها دون عناء . وأمن الفضل وأصحابه وأمرهم

١٩- حسين مؤنس : ثورات البربر في إفريقية والأندلس ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ١٠ ج ١ ص ١٨٢ .

٢٠- البيان المغرب ج ١ ص ٨٣ .

٢١- نفسه ص ٨٤ ، الاستقصا ج ١ ص ١١٥ .

٢٢- الكامل ج ٥ ص ٢٦ .

٢٣- نفسه ص ٩٥ .

٢٤- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٤٦١ ، الكامل ج ٥ ص ٩٥ .

بالرحيل إلى قابس ، لكنه غدر بهم وقتلهم سنة ١٧٨ هـ (٢٥). وبموت الفضل بن روح انقضت أسرة آل المهلب (٢٦).

وترك مصرع الفضل وقعاً سيئاً فى نفوس بعض قواد الجند، فخرجوا على ابن الجارود ولحقوا بالأريس ، وقدموا عليهم العلاء بن سعيد وإلى الزاب. فخرج على رأس جيش كبير من البربر لاسترداد القيروان (٢٧).

ولما رأى الرشيد ما ساد إفريقية من فوضى بسبب فتنة ابن الجارود، أرسل هرثمة بن أعين وإلياً على البلاد، ويصحبته عيسى بن موسى . وما أن نزل هرثمة برقة حتى أعلن ابن الجارود اعترافه بولايته، وخضوعه لطاعة الخليفة، وبرر وجوده بالقيروان بحجة حمايته لها من العلاء بن سعيد : بل طالب أن يتسلم عيسى بن موسى المدينة (٢٨) كدليل على حسن نواياه .

وتسابق القائدان عيسى بن موسى والعلاء بن سعيد فى الزحف إلى المدينة، كل يبغى الوصول إليها قبل الآخر، غير أن العلاء سبق إلى دخولها ونكل بمن كان بها من أتباع ابن الجارود الذى لم يجد بداً من الرحيل إلى طرابلس للقاء هرثمة ، لكن هرثمة بعث به إلى بغداد مكبلاً بالأغلال (٢٩)، وكافأ العلاء بن سعيد على حسن بلائه.

أما هرثمة فقد سار إلى القيروان فى ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ، فأمن الناس وأخمد الفتن ، وبنى القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ، وأقام سوراً حول مدينة طرابلس (٣٠)، ولما رأى ما

٢٥- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٥ ، الطبرى ج ٦ ص ٤٦١ ، الكامل ج ٥ ص ١٠٨ ،

٢٦- الاستقصا ج ١ ص ١٢١ .

٢٧- يعتبر نجاح العلاء فى تكوين جيش من البربر يعمل فى صالح الخلافة تطوراً جديداً فى موقف البربر فى إفريقية من العباسيين ، فتوار الأمس أصبحوا سنداً للولاة فى ردع فتن الجند.

٢٨- الكامل ج ٥ ص ٩٦ .

٢٩- الكامل ج ٥ ص ٩٦ ، البيان المغرب ج ١ ص ١٠٩ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩٠ . وقد أورد الطبرى روايةً نشك فى صحتها ، فيقول بأن «يحيى البرمكى- وزير الرشيد- بعث الرسل إلى ابن الجارود يرغبه فى الطاعة والتخويف للمعصية حتى قبل الأمان وعاد إلى الطاعة وقدم إلى بغداد، فوفى له يحيى بما ضمن وأحسن إليه، وأخذ له أماناً من الرشيد ، ووصله ورأسه» : أنظر : تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٢٤٧ .

٣٠- لين أبى ديثار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٤٧ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٩ .

يتهدد البلاد من أخطار ، كتب إلى الرشيد طالباً إعفاء من الولاية ، فاستجاب له، وغادر هرثمة إفريقية سنة ١٨١ هـ (٣١).

مما سبق يتبين أن الخلافة العباسية- بمشاكلها في المشرق- ساعدت على أن تبلغ الأحداث في إفريقية الصورة السيئة التي وصلت إليها ، ولولا الجهود التي بذلها الأمراء المهلبيون في قمع البربر لآل مصير إفريقية إلى ما آل إليه المغرب الأوسط والأقصى ، ولو قدر لحركات الجند أن تتحد حول هدف واحد لأمكنها الاستقلال بإفريقية . ويبرر لويس (٣٢) عجز الخلافة عن مواجهة الأحوال في المغرب «بافتقارها إلى قوة بحرية فعالة تستطيع أن تبعث بالإمدادات إلى الفرق الموالية لها ، البعيدة عنها في شمال أفريقيا» ، ولعل ذلك يفسر إخفاق العباسيين في حسم الموقف، بالرغم من الحملات الكثيرة التي والوا إرسالها بين الحين والحين، ومشاهير القواد ورجال الخلافة الذين اختاروهم لقيادة تلك الجيوش (٣٣).

وقد اضطرت الأحوال الاقتصادية في إفريقية بسبب ثورات البربر المتوالية، والفتن التي استشرت بسبب غارات سكان الجبال والبدو على المدن والسهول، ومن ثم فقد تقلصت الرقعة الزراعية، وكسدت التجارة لعدم استتباب الأمن . والحقيقة أن إفريقية ورثت تلك الأحوال السيئة منذ بداية الفتح العربي ، وزادت ثورة كسيلة وثورة الكاهنة في تفاقمها، وازداد الأمر سوءاً بتعسف الأمويين في سياستهم المالية (٣٤). وما يدل على سوء الحالة الاقتصادية أن ولاية المغرب اعتمدوا على الإعانة السنوية التي كانت ترد من مصر، وقدرها مائة ألف دينار (٣٥). وقد قام بعض الولاة العباسيين بإصلاحات اقتصادية تهدف إلى الارتفاع بالمستوى الاقتصادي لأهل إفريقية ، فلاشك أن الأحوال قد استقرت نوعاً ما إبان ولاية محمد بن الأشعث ، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً (٣٦). وما قام به يزيد بن حاتم من جهود في هذا الصدد لم تتعد

٣١- الكامل ج ٥ ص ٩٦ .

٣٢- القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط، الترجمة العربية ، ص ١٦٢ .

٣٣- البيان المغرب ج ١ ص ٨٣ .

٣٤- نفسه ص ٥٢ .

٣٥- الكامل ج ٥ ص ٦٣ .

٣٦- البيان المغرب ج ١ ص ٨٤ .

أثارها مدينة القيروان في مجال التجارة^(٣٧)، ومزارعه وضياعه الخاصة في مجال الزراعة^(٣٨).. وازدادت أحوال إفريقية الاقتصادية سوءاً بعد ولاية يزيد بسبب تفاقم ثورات الخوارج وقتن العسكر، حتى عجز بعض الولاة عن دفع رواتب الجند^(٣٩). وجدير بالذكر أن هذا الكساد الذي ساد إفريقية كان يقابله رخاء عظيم حققته دول البربر المستقلة، وخاصة الدولتين المدراية والرسومية.

وشهدت الأحوال الاجتماعية في إفريقية في ذلك الحين تطوراً ملموساً؛ فالبربر وهم السكان الأصليون الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان إفريقية استكانوا وهدأت ثوراتهم، ولم يعد لهم وزن كبير في الحياة السياسية. فما كادوا يفيقون من مذابح ابن الأشعث سنة ١٤٦هـ^(٤٠)، إلا ليبطش بهم يزيد بن حاتم سنة ١٥٦هـ^(٤١). وبلغ الأمر مداه في عهد آل المهلب «فانحصدت شوكة البربر، واستكانوا للغلب»^(٤٢)، وظلوا كذلك حتى قيام دولة الأغالبة^(٤٣). أما العرب- وأغلبهم من اليمنية- فقد دخلوا المغرب مع الفتح، واستقروا في المدن الرئيسية^(٤٤)، وجلبوا معهم خلافاتهم القبلية^(٤٥). لكنهم استكانوا طوال العصر العباسي. واحتل الفرس والخراسانيون مكان الصدارة في إفريقية، وقد قدموا مع ولاة بنى العباس^(٤٦)، فجيش ابن الأشعث كان به ثلاثون ألفاً من جند خراسان^(٤٧)، كما قدم مثل هذا العدد أيضاً مع يزيد بن

٣٧- فتح البلدان ص ٢٧٥، البيان المغرب ج ١ ص ٩٥.

٣٨- البيان المغرب ج ١ ص ٩٧.

٣٩- نفسه ص ١١١.

٤٠- نفسه ص ٨٥.

٤١- الكامل ج ٦ ص ٢٢.

٤٢- العبر ج ٦ ص ٢٢.

٤٣- Vonderyden : Op. cit, p. 90.

٤٤- Hopkins : La Tunisie dans le haut moyen âge p. 71.

٤٥- Marcais : L'Afrique du nord Francaise dans l'histoire. p. 141.

٤٦- يعقوبي : البلدان ص ٣٥٠.

٤٧- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ٣١٢.

حاتم^(٤٨). واستمر الصراع بين الخراسانيين والعرب حتى قيام دولة الأغالبة، ولم يخفف من حدة هذا الصراع إلا رحيل معظمهم إلى صقلية في حملة زيادة الله بن الأغلب عام ٢١٢هـ. أما البقية من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين فقد عاشوا في عزلة معتمدين بالقلع القديمة كطبنة وباغاية وانصرفوا عما يدور في البلاد من أحداث^(٤٩).

قصارى القول أن الأحوال في إفريقية عشية قيام دولة الأغالبة كانت ممهدة تماما لتقبل وضع جديد، فسلطان الخلافة أصبح لا يتعدى نهر الزاب بعد انفصال المغربين الأوسط والأقصى، بل بات نفوذ الخلافة داخل إفريقية تتهدده ثورات الجند على ولاية القيروان وأطماع الإدارة. وكان على الخلافة العباسية أن تلتصص حلا، فلم تجد خيرا من تولية إبراهيم بن الأغلب حاكم الزاب- على إفريقية في ظل نظام جديد.

* * *

٤٨- البيان المغرب ج ١ ص ٧٨ ، ٧٩ .

٤٩- Vonderheyden : Op. cit. p. 8 .

ثانيًا : تولية إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية

ينسب الأغلبية إلى الأغلب بن سالم التميمي، وهو عربي من قبيلة قيم التي أسهمت في القضاء على الخلافة الأموية وقيام الدولة العباسية. وكان الأغلب بن سالم من أصحاب أبي مسلم الخراساني ومن أشجع رجاله^(٥٠)، ثم شغل مركزاً مرموقاً في جيش محمد بن الأشعث بمصر، ويبدو أنه أقام بمصر ونقل إليها أسرته^(٥١). ولما ساءت أحوال إفريقية من جراء ثورات الخوارج أمر الخليفة المنصور محمد بن الأشعث بإقرار الأمور فيها، فخرج وبصحبه الأغلب بن سالم من مصر على رأس جيش كبير تمكن من قمع الفتن، ثم ولاه ابن الأشعث بلاد الزاب فاتخذ من طينة مقرا له^(٥٢).

ولما ثار جند الخلافة على ابن الأشعث في عام ١٤٨هـ، وأجبروه على مغادرة البلاد^(٥٣)، عهد المنصور إلى الأغلب بولاية إفريقية، وأوصاه بتحسين مدينة القيروان وتنظيم الدفاع عنها، فغادر طينة إلى القيروان وتمكن من القضاء على فتن الجند المضربة^(٥٤).

وواصل الأغلب سياسة سلفه في قمع ثورات الخوارج، ففي عام ١٥٠هـ لاحق الخوارج الصفرية الذين استفحل خطرهم بعد أن بايعوا أبا قررة المغيلي بالخلافة وأيده الزناتيون بتلمسان. وقد فر أبو قررة برجاله إلى المغرب الأقصى واعتصم بطنجة ليستدرج الأغلب إلى ديار الصفرية ثم يقضى عليه. ولم يتوان الأغلب عن اقتفاء أثره، لكن جنده ثاروا عليه واضطروه إلى العودة إلى القيروان^(٥٥). وعندما علم الأغلب بما حدث كتب إلى الحسن بن حرب يدعو إلى طاعته فلم يستجب، وكتب إلى الخليفة في شأنه ولكن ابن حرب لم يرضخ

٥٠ - فتح البلدان ص ٢٧٥ ، الكامل ج ٥ ص ٢٦ ، Amari , Storia dei Musulmani di Sicili, vol. I. p. 268 .

٥١ - Venderheyden : Op. cit. p. 7 .

٥٢ - الاستقصا ج ١ ص ١١٦ .

٥٣ - البيان المغرب ج ١ ص ٨٦ .

٥٤ - الكامل ج ٥ ص ٢٦ .

٥٥ - الاستقصا ج ١ ص ١١٦ .

لأوامر الخليفة. ثم استطاع الأغلب أن يطرد الشوار من القيروان^(٥٦). فعاد الحسن أدرجه للانتقام من الأغلب ، ودارت معركة فى سنة ١٥٠ هـ بين الطرفين أصيب فيها الأغلب بسهم طائش مات على أثره متأثرا بجراحه ، فحزن عليه جنده ولقبوه «بالشهيد»^(٥٧).

وخلف الأغلب طفلا فى العاشرة من عمره هو ابراهيم ، وهذا يعنى أن إبراهيم هذا ولد حول عام ١٤٠ هـ. وإذا كان الغموض يكتنف نشأة إبراهيم بن الأغلب الأولى فمما لا شك فيه أنه رحل إلى مصر بعد وفاة أبيه، ويذكر ابن عذارى^(٥٨) أنه تتلمذ على فقهاها ، ولما بلغ مبلغ الرجال انتظم فى سلك الجنديّة ، لكنه لم يمكث بها طويلا فغادرها إلى إفريقية^(٥٩)، وتول بإقليم الزاب^(٦٠).

ويرتبط ظهور إبراهيم بن الأغلب على مسرح الأحداث فى إفريقية بخدمته فى جيوش بنى المهلب، فقد اشترك ابراهيم فى حملة العلاء بن سعيد لقمع فتنة ابن الجارود الذى خرج على الأمير الفضل المهلبى. ويذكر فنندرهيدن^(٦١) أن «ابراهيم بن الأغلب- حاكم الزاب- الذى آل إليه جيش الفضل المهلبى اتخذ من العلاء أداة لتحقيق مطامعه، ومن ثم فمن المحتمل أن يكون هو المحرض فى الخفاء لحملة العلاء». لكن ليس ثمة أدلة تقطع بأن إبراهيم قد تولى إمرة الزاب قبل ولاية هرثمة بن أعين^(٦٢)، أو أنه كان يتطلع إلى إمارة إفريقية، فحملة العلاء

٥٦- البيان المغرب ج ١ ص ٨٧ .

٥٧- فتوح البلدان ص ٢٧٦ ، الكامل ج ٥ ص ٢٦ .

٥٨- البيان المغرب ج ١ ص ١١٦ .

٥٩- ومن شعر ابراهيم فى هذا الصدد:

ما سرت ميلا ولا جاوزت مرحلة إلا وذكرك يثنى دائما عنقى

ولا ذكرتك إلا بت مرتقبا أرعى النجوم كأن الموت معتنقى

أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١١٦ .

٦٠- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

٦١- La Berberie Orientale pp. 10-11 .

٦٢- ذكر ابن الأثير أن إبراهيم بن الأغلب كان بولاية الزاب سنة ١٨٠ هـ، وأنه لطف هرثمة وقدم له

الهدايا فولاه ناحية الزاب. أنظر : الكامل ج ٥ ص ٩٦ .

بن سعيد تحركت من الزاب في الوقت الذي وصل فيه هرثمة إلى طرابلس ، ولم يكن من المعقول أن يحاول إبراهيم تحقيق تطلعاته أثناء وجود هرثمة بالبلاد .

ومن المحتمل أن تكون مطامع إبراهيم في ولاية إفريقية قد وضحت بعد رحيل العلاء إلى المشرق والتفاف الجند البربر من حوله^(٦٣) . غير أن وجود هرثمة كان كفيلاً بأن يحول دون تحقيق هذه المطامع . ورحيل هرثمة سنة ١٨١هـ ظهرت مطامع إبراهيم سافرة ، وكانت أهدافه في تولى إفريقية مقترنة بمساعدة قضية الخلافة العباسية، لذلك أزر العكي حين ثار عليه الجند حتى استعاد الولاية رغم سخط القيروانيين .

ذلك أن الرشيد لما أعفى هرثمة ، بعث أخاه في الرضاة محمد بن مقاتل العكي واليا على القيروان في رمضان سنة ١٨١هـ^(٦٤) . ولم يكن هذا الاختيار موفقاً ، فقد أخفق العكي تماماً لما عرف عنه من سوء الخلق وفساد السيرة، فأغضب الجند بسبب قطع أرزاقهم ، وإساءة معاملتهم^(٦٥)، وينسب إليه أنه ضرب البهلول بن راشد بالسياط حتى الموت، فناصبه فقهاء المالكية العداء^(٦٦)، ولجحوا في تحريض أهل القيروان على الثورة^(٦٨).

وكانت ثورات الجند هي الخطر الحقيقي الذي هدد حكم العكي ، وقد تمكن من قمع ثورة مغلد بن مرة الأزدي^(٦٩)، فالتف جند الشام وخراسان حول عامل تونس قام بن تميم التميمي، وأعلنوا الخروج عن طاعته . وفي منتصف رمضان سنة ١٨٣هـ سار تمام بجنده وألحق الهزيمة بجيش العكي، ثم دخل القيروان ونصب نفسه والياً عليها بعد أن أمن العكي على نفسه وأهله، وغادر العكي القيروان إلى طرابلس^(٧٠) .

٦٣- نفس المصدر والصفحة.

٦٤- البيان المغرب ج ١ ص ١١١ .

٦٥- نفس المصدر والصفحة .

٦٦- المالكي : رياض النفوس ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

٦٧- المالكي : نفس المصدر والصفحة ، الدباغ : نفس المصدر والصفحة.

٦٨- Idris : La vie intellectuelle et administrative a'Kairouan sous les Aghlabites et les Fatimids, Revue des etudes islamiques, 1935 , 36 , p. 71 .

٦٩- الكامل ج ٥ ص ١٠٤ .

٧٠- البيان المغرب ج ١ ص ١١٣ .

وكاد الأمر أن ينتهى عند هذا الحد ، فالوالى المطرود أسقط فى يده ، ولم يعد بوسعه استرداد نفوذه بسبب قوة تمام وتأييد البربر له باعتباره مخلصا لهم من ظلم ابن مقاتل . لكن ابراهيم بن الأغلب حاكم الزاب أيد العكى ، إذ لم يكن من المنتظر أن يقبع آمنأ فى طينة بمنأى عن الأحداث ، بل كان يتابع تلك التطورات الخطيرة ويرقبها باهتمام ، وقد وجد فيها الفرصة السانحة فيغتصب الولاية بالقوة ، لكنه عمل على تحقيق أطماعه بطريقة مشروعة ، وفى إطار الولاء للخلافة العباسية.

فلما سمع إبراهيم نبأ تغلب تمام وطرده العكى ، خرج قاصداً القيروان للقاء تمام ، لكن تماما غادرها على عجل واتجه إلى تونس ، فدخل إبراهيم القيروان وأعلن مناصرته للوالى الشرعى المطرود ، وبعث إلى العكى ليعود إلى مقر ولايته^(٧٢) ، غير مبال بتبرم أهل القيروان .

ولما عاد العكى إلى القيروان ، هرب نفر من سكانها ولحقوا بمعسكر تمام فى تونس^(٧٣) . ويذكر النويرى^(٧٤) أن تمام استطاع « إفساد » سكان القيروان على العكى ، فى الوقت الذى تضاعف فيه أتباعه ومناصروه . ولم يدخر تمام وسعاً فى محاولة الإيقاع بين العكى وإبراهيم ، فبعث برسالة^(٧٥) إلى العكى يوغر فيها صدره على إبراهيم ، ويكشف عن مطامعه فى ولاية

٧١- . Fournel : Les Berbers . vol . 2 . p. 411 .

٧٢- النويرى : نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٦ مخطوط .

٧٣- البيان المغرب ج١ ص ١١١ .

٧٤- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٢٦ .

٧٥- كتب تمام إلى العكى يقول :

« .. أما بعد ، فإن إبراهيم بن الأغلب لم يبعث إليك فيردك من كرامتك عليه ، ولا للطاعة التى يظهرها للخليفة ، ولكن كره أن يبلغ إليك أخذه البلاد فيرجع إليه ، فإن منعك كان مغالفاً لأمر المؤمنين ، وإن دفعها إليك كان ما فعله لغيره ، فبعث إليك لترجع ثم يسلمك إلى القتل ، وغداً ما جريت من وقعتنا لك بالأمس... » وفى آخر كتابه:

يُرد عليك الملك إلا لتثقل

لما كنت منه يا ابن عك لتثقلا

« وما كان إبراهيم عن فضل طاعة

فلو كنت ذا عقل وعلم بكيد

أنظر: ابن الأبار : الحلة السراء ص ٢٢٤ .

إفريقية ، وأنه ليس إلا أداة لتحقيق هذه المطامع ، كما بعث تمام إلى ابن الأغلب^(٧٦) يستعطفه ، ويحضه على تولى أمور البلاد .

والحق - أن مطامع إبراهيم لم تخف على فطنة العكي ، فالرسالة التي بعثها إليه تمام لم تخل من الحقيقة . لكنه تجاهل الأمر ، إذ لم يكن في مقدوره أن يشهر السيف في وجه ولي نعمته ، لذلك رد^(٧٧) على رسالة تمام مشيداً بإبراهيم ، مثنيًا على فروسيته وشجاعته.. ورسالة إبراهيم في الرد على تمام^(٧٨) تضمنت تسفيه رأيه وتهديده باللقاء المرتقب .

٧٦- ضمن تمام كتابه إلى ابن الأغلب هذه الأبيات :

أقدم إبراهيم علما بفضلـه	وحق له في الأمر أن يتقدما
وقلت له فاحكم فحكمك جائز	فقد أصبحت فينا مقدما
ورد في بلاد السواب ما شئت قادرا	وإن شئت ملك الغرب خذ مسلما

أنظر : الحلة السراء ص ٢٢٥ .

٧٧- رسالة العكي في الرد على تمام :

« من محمد بن مقاتل إلى التاكث تمام ، أما بعد فقد بلغني كتابك ، ودلني ما فيه على قلة رأيك ، وفهمت قولك في إبراهيم ، فإن كتبت نصيحة ، فليس من خان الله ورسوله وكان من المفسدين يقبول ما ينتصح به ، وإن كانت خديعة ، فأبج الخداع ما فطن له ، وأما ما ذكرت من إسلام إبراهيم إذا التقينا ، فلمر أيبك ما يلقاك أحد غيره ، وأما قولك أنا جرينا من وقعتك أمر ما سنعرفه غدا ، فإن الحرب سجال ، قلنا يا تمام عليك العقبى إن شاء الله... » . واختتم العكي رسالته بهذه الأبيات :

إنى لأرجو إن لقيت ابن أغلب	غداة المنايا أن تغفل وتغفلا
تلاقي فتى يستصحب الموت في اللقاء	ويحمي بصدر الرمح مجدا مؤملا

أنظر : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٥ ، ٢٦ .

٧٨- تضمنت رسالة ابن الأغلب إلى تمام هذه الأبيات :

دعوت إلى ما لو رضيت بمثلـه	لما كنت يا تمام فيه مقدما
ساجعل حكى فيك ضربة صارم	إذا ما علا منك الفارق صمما
ستعلم لو قد صافحتك رماحنا	يكف المنايا اينما كان أظلمـا

أنظر : الحلة السراء ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

ولما لم تثمر حيل تمام فى الإيقاع بين العكى وإبراهيم، عقد العزم على مواجهتهما بما لديه من قوة . فغادر تونس قاصداً القيروان، والتقى بقوات العكى وإبراهيم، فهزم تمام وعاد من حيث أتى . ثم خرج إبراهيم إلى تونس فى المحرم من عام ١٨٤ هـ وأسر تمام (٧٩)، ووضع حداً لثورة جند الشام وخراسان . وكان القضاء على هذه الثورة ، وإرسال زعمائها مكبلين بالأغلال إلى بغداد (٨٠) خدمة جليلة أسداها إبراهيم للخلافة، وعملاً على تدعيم نفوذها فى المغرب .

وبعد أن استقرت الأمور للعى، عول إبراهيم على الكيد لدولة الأدارسة العلويين تمشيًا مع سياسة الرشيد فى إثارة المتاعب فى وجههم . ومن المعروف أن الرشيد تم له اغتيال إدريس الأول على يد أحد صناعه، ولا يخال لنا شك فى إسهام إبراهيم بن الأغلب فى هذا العمل، وفضلاً عن ذلك فإنه صاحب اليد الطولى فى تدبير اغتيال راشد مولى إدريس عن طريق بذل الأموال والهبات (٨١).

والثابت أن هذا الحادث وضع حداً لعلاقات المودة بين العكى وإبراهيم ابن الأغلب ، ذلك أن العكى غمط فضل إبراهيم فى اغتيال راشد وادعاه لنفسه، فقد بعث إبراهيم من مقره فى الزاب رأس راشد إلى العكى بالقيروان، وقد بعثها العكى بدوره إلى الرشيد مفاخرًا بهذا الصنيع ، فلم يجد إبراهيم بداً من أن يوضح الحقيقة للخليفة (٨٢)، وأيده صاحب البريد فى القيروان (٨٣)، فقرر الخليفة عزل العكى وتولية إبراهيم الإمارة.

٧٩- البيان المغرب ج ١ ص ١١٥ ، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٦ .

٨٠- النويرى : المرجع السابق ورقة ٢٦ ، . Amari : Op. cit. p. 270 .

٨١- الحلة السيرة ص ٢٣٥ .

٨٢- تضمن كتاب إبراهيم إلى الخلافة فى هذا الصدد هذه الأبيات :

ألم ترنى أرديت بالكيد راشداً وأنى بأخري لابن إدريس راصداً
فتاه أخو عك بمهلك راشداً وقد كنت فيه ساهرا وهو راقداً
أنظر : الحلة السيرة ص ٢٣٣ ، الاستقصاء ج ١ ص ١٤٧ .

٨٣- السلاوى : نفس المصدر والصفحة.

ويختلف المؤرخون حول الأسباب المباشرة التي أدت إلى تولي إبراهيم الإمارة، فابن الآبار^(٨٤) يرى أن فوز إبراهيم بها جاء نتيجة نجاحه في الكيد للإدارة، بينما يرى النويري^(٨٥) أن الرشيد قلده إياها على أثر علمه «بما فعله من نصرة العكي، وإخراج تمام». على أن الذي لا شك فيه أن إبراهيم بن الأغلب لم يتباطأ في طلب الإمارة من الرشيد بعد أن قدم للخلافة ما يعزز طلبه، وبعد أن عضده أهل إفريقية لمقتلهم العكي، وشفع إبراهيم طلبه للإمارة بعرض سخى، وهو أن يتنازل عن الإعانة السنوية التي ترد من مصر وقدرها مائة ألف دينار، بل تعهد بأن يدفع أربعين ألف دينار سنوياً للخلافة^(٨٦) على أن تكون إمرة إفريقية له وللنويه من بعده.

واستشار الرشيد قواده وخاصته في هذا العرض قبل أن يقطع فيه برأى، وقد أثنى هرثمة بن أعين على إبراهيم^(٨٧)، وأشاد بكفايته وإخلاصه للخلافة^(٨٨) وحب الرعية له، فكتب له الرشيد عهداً بولاية إفريقية في المحرم من عام ١٨٤هـ^(٨٩).

وكان من الطبيعي أن يرسل العكي عن القيروان، فيمم وجهه شطره المشرق، غير أنه ما كاد يدرك طرابلس، حتى زيف له كاتبه داود القيرواني كتاباً على لسان الرشيد يتضمن «إقراره في الولاية، والاتصاف إلى عمله»^(٩٠). ولعل هذا يفسر تباطؤ العكي في الرحيل من المغرب، الأمر الذي دفع الرشيد إلى الكتابة^(٩١) إليه مستقبلاً فعاله، مشيداً بإبراهيم، وطلب منه العودة إلى بغداد، وعلى إثر ذلك قفل العكي عائداً إلى المشرق.

٨٤- الحلة السيرة ص ٢٣٥.

٨٥- نهاية الأرب ج ٢٢، ورقة ٢٧، p. 116. Brockelman : History of the Islamic people.

٨٦- الكامل ج ٥ ص ١٠٤، Fournel : Op. cit. vol. I. p. 272 ولا مجال لتصديق ما ذهب إليه بكلر من أن العقد بين إبراهيم والخليفة خلا من أي ارتباطات مالية، انظر : Buckler : Haroun l'Rashid and Charles the great p. 46.

٨٧- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧.

٨٨- فتوح البلدان ص ٢٧٦.

٨٩- ذكر ابن خلدون أن تولية إبراهيم كان في عام ١٨٥هـ انظر : العبر ج ٦ ص ١١٣.

٩٠- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧.

٩١- جاء في رسالة الرشيد إلى العكي في هذا الصدد : « فلم يكن آخر أمرك يشبه إلا أوله، فلأى =

نجد تفسيراً مقنعاً لما كان من كتابة الرشيد عهداً جديداً بالولاية لإبراهيم ، وأغلب الظن أنه فعل ذلك لإزالة الشكوك التي أثارها عهد العكي الزائف، بل يبدو أن العكي كان قد بعث إلى الرشيد كتاباً يطلب فيه إبقاء « في الولاية (٩٢) ». ومهما كان من أمر فقد عهد الرشيد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية إفریقیة من جديد في ١٢ جمادى الآخر عام ١٨٤هـ (٩٣).

فما هي الدوافع التي جعلت الخلافة تولى إبراهيم بن الأغلب على هذا النحو ؟ على كل حال لم تكن مشاكل الخلافة في المشرق هي السبب، فحدود الدولة العباسية كانت قد استقرت بعد أن أمن الرشيد جانب البيزنطيين الذين دفعوا له الجزية . وإذا كان الخزر قد أثاروا المتاعب في أرمينية سنة ١٨٣هـ، فإنهم ما لبثوا أن أذعنوا للطاعة (٩٤) دون عناء ، والبرامكة كانوا لا يزالون حتى ذلك الحين يحظون بثقة الرشيد ويتحملون عبء إدارة الدولة المترامية الأطراف بحنكة واقتدار . لهذا لا يمكننا أن نأخذ برأى بيورى (٩٥) وأمارى (٩٦) الذي يعزو قيام دولة الأغلبية إلى مشاكل الخلافة في المشرق. ولم يكن الأمر - كما يذهب الدكتور مؤنس (٩٧) - متعلقاً بسياسة الرشيد التي كانت ترمى إلى تصفية الجناح الغربي من الدولة الإسلامية بعد أن نفضت الخلافة يدها من شؤون البحر المتوسط وخرجت من ميدها . فالرشيد لم يعترف بالوضع الجديد إلا ليحافظ على ما تبقى للخلافة من نفوذ في المغرب . كذلك لم يكن عرض إبراهيم بن الأغلب المالي سبباً فيما حدث، ذلك أن الرشيد ربما أغدق على أحد الشعراء بما يزيد على

= مناقبك أو ترك على إبراهيم بولاية الثغر؟ أفرارك وإقلامه ، أم لجزعه وصبره، أم لخلاقك وطاعته ؟ فإذا نظرت في كتابي، فأقدم غير محمود الفعال» انظر : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧ .

٩٢- يتضح ذلك من كتاب الرشيد السابق إلى العكي الذي ترحى صياغته بأنه رد على كتاب من العكي.

٩٣- الحلة السيرة ص ٢٢٧ ، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧ .

٩٤- السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٨ .

٩٥- A history of the Eastern Roman empire vol . I pp. 232 , 244 , ff.

٩٦- Storia dei Musulmani di Sicili . vol . I, p. 116 .

٩٧- المسلمون في حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية : المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١

ص ٨٦ .

أضعاف هذه الأموال^(٩٨) التى تعهد إبراهيم بدفعها للخلافة سنويا ، بل ليس من شك فى أن الحالة المالية للخلافة فى عهد الرشيد كانت أحسن بكثير مما كانت عليه أيام المنصور^(٩٩).

ولكن يمكن فهم ما حدث فى ضوء التطورات التى وقعت فى المغرب منذ قيام الخلافة العباسية كاتسلاخ المغريين الأوسط والأقصى ، وتربص دولة الأدارسة وتهديدها بالقضاء على نفوذ الخلافة فى إفريقية^(١٠٠) ، فالأدارسة كانوا يطعمون فى توحيد المغرب والمشرق فى ظل دولة علوية واحدة^(١٠١) ، هذا فضلا عن تفاقم فتن الجند فى إفريقية ، وتشكيلهم خطراً مستمراً على ولاية القيروان. كل ذلك حدا بالخلافة إلى تسليم زمام الأمور فى إفريقية إلى جندى يشهد ماضيه بالإخلاص لها ، والعمل على نصرتها وتثبيت نفوذها فى بلاد المغرب.

وليس من المستبعد - كما يعتقد فندرهيدن^(١٠٢) - أن تكون الخلافة إزاء فشلها فى مواجهة تلك الأوضاع الجديدة فى المغرب ، قد راودتها هذه الفكرة ، فكرة خلق أسرة موالية لها بالمغرب.

كانت الخلافة حريصة على الحفاظ على ما تبقى من نفوذ فى إفريقية ، وكان إبراهيم بن الأغلب يراوده أمل الظفر بتأسيس ملك وراثى ، وقد تحققت هذه الآمال بفضل ما وصل إليه من مكانة مرموقة ، وبفضل جيش الزاب الذى مكّنه من الظهور على المسرح كأقوى شخصية تلعب الدور الواضح فى إفريقية منذ رحيل هرثمة ، هذا فضلا عن تعلق البربر به كقائد يحقق لهم أمانهم فى الاستقلال الذاتى^(١٠٣).

٩٨- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

٩٩- ابن الصائى : رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .

١٠٠- الأصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٧ .

١٠١- ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص ١٧ حاشية . وقد أورد الدكتور أحمد مختار العبادى نص رسالة وجهها إدريس الأول إلى المصريين يمكن أن تستتبع منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر.

١٠٢- La Berberie Orientale p. 8 .

١٠٣- يبالغ الأنصارى فى تصوير تعلق البربر بإبراهيم فيقول بأن ابن الأغلب لم يطلب إمرة إفريقية من الرشيد إلا استجابة لإلحاح سكانها ، أنظر : المنهل العذب ج ١ ص ١٣ .

وإذا كان إبراهيم قد حقق غرضه، فإنه لم يتنكر للخلافة، بل وفى التزاماته قبلها فقد خطب للخليفة على المنابر، ورفع شعار بنى العباس، ولم ينقطع عن دفع الإتاوة السنوية، ونقش اسم الخليفة على السكة، وأطلق على حاضرتة الجديدة اسم العباسية، ولم يتوان فى الكيد للأدارة جريا على سياسته فى إرضاء الخلافة، ونجح إلى درجة كبيرة فى إثارة العراقيين والقتال لجيرانه فى المغرب عن طريق المكائد والذرائع. فلا غرابة إذا رضيت الخلافة عن حكمه، وساعدته فى الأزمات العصيبة التى صحت قيام الدولة، وأمدته بالأموال ليوطد نفوذه.

وقيام دولة الأغالبة لم ينته بولاية إبراهيم، إنما استغرق عهود الأمراء الثلاثة الذين صادفوا الكثير من العراقيين والمتاعب التى كانت كفيلة بالقضاء على ما حققه إبراهيم من نجاح. وأهم هذه المتاعب شغب الجند وثوراتهم على الأمراء الأغالبة، وقد فطن إبراهيم منذ البداية لخطرهم وما يمكن أن يحدثوه من متاعب، فعول على أن يتخذ من الحذر والحيلة ما يحقق له الأمان، فغادر القيروان وأنشأ مدينة القصر القديم^(١٠٤) على بعد ثلاثة أميال منها اتقاء لشركهم، وغدت المدينة الجديدة أشبه بقلعة منيعة بعد أن نقل إليها حرسه الخاص ومن وثق بهم من الجند، كما زودها بالمؤن والسلاح، واتخذها عاصمة لإفريقية ومقرًا للإمارة^(١٠٥).

ومن الأساليب الدفاعية التى اتخذها إبراهيم لمواجهة الجند، اعتماده على جيش من السودان الذين استكثر من شرائهم^(١٠٦) لعدم ثقته فى الجند العربى، وتخوفه منهم،

١٠٤- وتعرف هذه المدينة أيضا بالعباسية، وتقع غرب القيروان، وقد ذكر البكرى أنها مزدانة «بالمسجد الجامع والحمامات والفنادق والأسواق.. ولها خمسة أبواب حصينة، وداخلها رجة واسعة تعرف بالميدان».

أنظر: المغرب ص ٢٨.

١٠٥- البيان المغرب ج ١ ص ١١٩.

١٠٦- البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٧٧، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧،

Biquet: Histoire de l'Afrique septentrionale p. 25, Vonderheyden: Op. cit. p. 235.

وقد تشبه إبراهيم بن الأغلب بالخلافة العباسية فى شراء جند خاص، ومن المعروف أن الخلفاء اعتمدوا على العناصر غير العربية كالترك وغيرهم، كما عمد الأمراء الأمويين بالأندلس إلى إحاطة أنفسهم بالأعاجم أو =

ورغبته في إضعافهم (١٠٧).

وقد صح ما توقعه منهم، فما لبثت أولى ثوراتهم أن اندلعت في تونس سنة ١٨٦ هـ وقد تزعمها أحد القادة العرب (١٠٨) ويدعى حمديس الكندي (١٠٩). وكانت حركته خروجاً على التبعية العباسية إنهاء لنفوذها في إفريقية (١١٠)، وقد أرسل إبراهيم قائده عمران بن مخلد لمواجهة، فتمكن من قتله والتنكيل بأتباعه ثم دخل تونس، وكان القضاء على هذه الفتنة انتصاراً للخلافة، وتثبيتاً لنفوذها في المغرب (١١١).

وفي سنة ١٩٤ هـ خرج عمران بن مخلد على إبراهيم بن الأغلب حقدًا على ما وصل إليه من مكانة (١١٢). فقد كان عمران من خيرة رجال الأمير وكبار قواده، وحظي بمكانة بين الجند، فلما أعلن الخروج، انصاع له غالييتهم، فاستولى على القيروان، وبلغ من استفحال خطره أنه حاصر إبراهيم عامًا كاملاً في قلعة بالعباسية، ثم حاول إغراء الفقهاء لتأييده (١١٣). وقد أرسل الرشيد لإبراهيم الأموال، فاستعان بها على مقاومة عمران (١١٤). وبعد أن

= «الحرس»، ويجدير بالذكر أن السودان عرفوا من قبل في إفريقية الرومانية والبيزنطية، أنظر :

Vondertheden : Op. cit , p. 197 .

١٠٧- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧ ، . Amari : Op. cit, vol. I , p. 270 .

١٠٨- الحلة السيرة ص ٢٣٧ .

١٠٩- أورد النويري «حمديس»، أنظر : نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧ ، وابن الأبار «خريش الكندي» أنظر : الحلة السيرة ص ٢٣٧ .

١١٠- الكامل ج ٥ ص ١٠٤ .

١١١- الحلة السيرة ص ٢٣٧ .

١١٢- ذكر ابن الأثير أن عمراناً «ركب يوما مع إبراهيم ، وجعل يحدثه فلم يفهم شيئا من حديثه لاشتغال قلبه بهم كان له، فاستعاد الحديث من عمران فغضب وفارق إبراهيم وثار عليه» أنظر : الكامل ج ٥ ص ١٠٥ .

١١٣- الكامل ج ٥ ص ١٠٤ ، الحلة السيرة ص ٢٤٠ .

١١٤- فتوح البلدان ص ٢٧٦ ، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٨ ، Fournel : Op, cit , vol. 2 p. 468 .

انصرف عنه جنده لم يجد بدا من الهرب إلى الزاب، ودخل إبراهيم القيروان فخلع أبوابها وهدم أسوارها إمعاناً في الانتقام^(١١٥).

لم تكن حركة عمران بن مخلد آخر ما واجهته الإمارة من مشاكل في عهد أميرها الأول، فطرابلس ما لبثت أن عمتها الاضطرابات ، إذ أن الخلافات القبلية التقليدية بين القيسية واليمينية وجدت في هذه المدينة البعيدة عن مقر الإمارة ما ساعد على إذكاء جذوتها . وتحفل المراجع بالكثير من التفاصيل عن حوادث الشعب التي انتشرت في المدينة، وما قام به نواب الأمير الأغلب من جهود للقضاء عليها. ويبدو أن القشل كان نصيب هذه الجهود بدليل التجاء الأمير إلى الخليفة يطلب العون، ومسير الجند من مصر لمساعدته في قمع الفتن^(١١٦). وبلغ خطر الجند في طرابلس عام ١٩٦هـ حد التهديد بانفصالها عن الإمارة ، فلم يجد عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب - نائب طرابلس - مناصاً من الاستعانة بالبربر لمواجهة الموقف^(١١٧). وكان تغيير الولاية المستمر يقترب بالزبد من الثورات ، حتى عمت القوضى البلاد ، وقام البربر بالثورة على جند المدينة وعلى العرب، ووجد عبد الوهاب بن رستم الفرصة مواتية للتدخل إلى جانب هواره، واحتدم الصراع بين الطرفين ، وبات القسم الشرقي من إفريقية على شفا الخروج عن سلطان الأغلبية بعد تدخل الخوارج الإباضية . وفي تلك الأثناء توفي إبراهيم بن الأغلب^(١١٨) واضطر ابنه أبو العباس عبدالله إلى طلب الصلح على أن تكون لابن رستم السيادة على بعض نواحي طرابلس.

هكذا توفي إبراهيم بن الأغلب والخطر لا يزال يهدد دولته، ولم يجد إبراهيم خلال الاثنى عشر سنة التي قضاها في الإمارة متسعاً لتدعيم الدولة الجديدة ، والقضاء على الأخطار التي طالما هددت بأن تعصف بها ، فخطر الجند لم يكن في الإمكان القضاء عليه دفعة واحدة بسبب

١١٥- الكامل ج ٥ ص ١٠٥ ، الباجي المسعودي : الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ص ٢٥ .

١١٦- النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

١١٧- الكامل ج ٥ ص ١٩٦ .

١١٨- الأنصاري : المنهل العذب ص ٧٤ .

١١٩- كانت وفاته في شوال من عام ١٩٦هـ، وقد بلغ من العمر ست وخمسين عاماً .

تفرقهم فى المدن الكبرى، واختلاف أصولهم وميولهم . ولعل هذا يفسر ثوراتهم المتفرقة زماناً ومكاناً، وتفاقم هذه الثورات فى النواحي النائية، ، وفسر أيضاً عدم نجاح هذه الثورات- رغم شدتها وكثرتها- فى تحقيق أهدافها وإسقاط حكم بنى الأغلب .

والحق- أن إبراهيم الأول لم يدخر وسعاً فى مواجهة هذه الأخطار، فقد جند السودان وبنى القلاع والحصون ، واتبع من الوسائل ما كفل له الاستمرار فى الحكم رغم الأزمات، كما عول على طلب العون من الخلافة، فضلاً عن كسبه البرير إلى جانبه وأستخدامهم فى حروبه وتحولهم إلى جنود مخلصين للإمارة.

قصارى القول ؛ أن إبراهيم بن الأغلب بفضل ما تمتع به من كفاءة وشجاعة وتقوى (١٢٠) وذكاء، استطاع أن يقيم دولة جديدة، وإذا لم يقدر له أن يوطد دعائمها ، ويقضى على كافة مشاكلها ، فحسبه استطاعته الحفاظ عليها، وتسليمها لخلفائه ليسهموا بدور فى تثبيت كيانه، وتوطيد دعائمها .

* * *

ثالثا : إستقرار الدولة

تابع خلفاء إبراهيم الجهود الشاقة التى بذلها ، فما أن علم أبو العباس عبدالله بن إبراهيم نبأ وفاة أبيه، حتى عاد مسرعا إلى القيروان وتسلم مهام الإمارة فى صفر سنة ١٩٧هـ (١٢١). وقد ظل أبو العباس فى الإمارة خمس سنوات قضاها مبغضا مكروها من أسرته ورعيته، فقد عمل على إذلال أخيه الأصغر زيادة الله ونكل بأصحابه ، كما أنه فقد ولاء رعيته بسبب جوره وعسفه واشتطاطه فى طلب المال، فقد غالى فى جباية الخراج، ولم يسمع لنصائح الفقهاء ، فظل مكروها طوال ولايته القصيرة إلى أن توفى فى ذى الحجة من عام ٢٠١هـ (١٢٢). وإذا كان عهده قد اتسم بالهدوء والاستقرار ، فقد كان ذلك نتيجة للجهد الذى بذلها إبراهيم بن الأغلب من قبل (١٢٣).

بوع زيادة الله بالإمارة فى ذى الحجة من عام ٢٠١هـ (١٢٤) ؛ ليرث تركة مثقلة بالأعباء والمتاعب، فكره الفقهاء للدولة ما لبث أن اشتد، ولم تفلح سياسة بذل الهبات (١٢٥) والإغراء بمناصب الدولة فى كسب ودهم، فقد رفضوا الاتصياح لهذه المغريات (١٢٥)، وشكلوا بموقفهم ذلك خطرا على الدولة وذلك لسمو منزلتهم، وارتفاع مكانتهم بين الناس .

أما الجند الذين ركنوا إلى السكون من قبل فى عهد أبى العباس عبد الله، فقد أبوا إلا شهر السلاح فى وجه الأمير الجديد، ويذهب آمارى (١٢٧) إلى أن زيادة الله نفسه مسؤول عن تلك الفتن بسبب ما التزمه من سياسة العنف والقسوة وسفك الدماء. والحق أن الأمير الأغلبى

١٢١- عهد إبراهيم بن الأغلب بالإمارة قبل موته إلى ابنه عبدالله الذى كان يحارب البربر بطرابلس ، وأمر ابنه زيادة الله أن يبايعه ، فلما مات إبراهيم أرسل زيادة الله إلى أخيه يخبره بالأمر ، فعاد لتقلد الإمارة وبايعه زيادة الله. أنظر : الكامل ج ٥ ص ١٠٥ .

١٢٢- نفس المصدر والصفحة.

١٢٣- الانتصارى : المنهل العذب ج ١ ص ٧٧ .

١٢٤- المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥٤٠ .

١٢٥- أبو العرب : طبقات علماء افريقية ص ٨٦ ، المالكى : رياض النفوس ج ١ ص ١٦١ .

١٢٦- الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٢٦ .

١٢٧- Storia dei Musulmani di Sicili , vol . I . p. 279 .

لم يتبع تلك السياسة عفوا ، بل أرغم عليها إرغاما «لخلاقهم على أبيه» (١٢٨) من قبل، وعملهم على إزالة دولته، ولم يكن زيادة الله ليأمن جانبهم وهو يعرف سجلهم الخافل بالفتن وإشاعة الفوضى والقلق في البلاد، حتى أصبح من الأمور المألوفة في إفريقية آنذاك أن القائد ما يكاد يستشعر القوة والتفاف الأنصار من حوله حتى يعمد إلى الخروج وشق عصا الطاعة (١٢٩)، فلم يكن هناك مفر من العنف والقسوة لردعهم . حقيقة أن زيادة الله أفرط في قسوته وشدته (١٣٠)، لكنه استطاع بفضل ذلك إقرار أمور الدولة، والقضاء على ما واجهها من متاعب.

ولا يخفى أن زيادة الله كان يريد منذ البداية المشاركة في الجهاد، وابن عذاري (١٣١) يحدثنا أنه بعث بجيش وأسطول لغزو سردينية في سنة ٢٠٦هـ ؛ غير أنه لم يستطع مواصلة هذه الجهود لما ساد البلاد من الفتن والمؤامرات .

ففي عام ٢٠٧هـ ثار زياد بن سهل وحاصر باجة، وكادت أن تسقط في يده لولا بقطة الأمير وإعداده العدة للقضاء عليه، فانتكست هذه الثورة، وباعت بالفشل (١٣٢).

وفى عام ٢٠٨هـ خرج عمرو بن معاوية القيسى حاكم القصرين على زيادة الله، واستحوذ على القصرين وما حولها ، واستمر في تمردة إلى أن ظفر به الأمير فقتله هو وولديه ومثل بهم. ويذكر المؤرخون (١٣٣) أن قسوة زيادة الله في التنكيل بعمرو وولديه أدت إلى ثورة منصور الطنبذي في تونس سنة ٢٠٩هـ، ففي اعتقادهم أن الطنبذي ما قام بثورته إلا انتقاما لما حل بعمرو وولديه، لكن الحقيقة أن هذا الثائر طمع في اغتصاب الإمارة لنفسه عن طريق استغلال

١٢٨- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٩ .

١٢٩- الحلة السيرا، ص ٢٤٧ ، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٩ .

١٣٠- البيان المغرب ج ١ ص ١٢٣ .

١٣١- نفس المصدر ص ١٢٤ .

١٣٢- ابن عذاري : ج ١ ص ١٢٤ .

١٣٣- ابن الأبار : ص ٣٤٧ ، النويري: ج ٢٣ ورقة ٢٩ .

كراهية الجند للأمير ، وحقدهم عليه^(١٣٤) ، والثابت أن منصور الطنبلي استطاع أن يشحذ همم الجند ويقوم بثورة كبيرة هزت قواعد الإمارة ، وفشلت محاولات الأمير في ردع الثوار دون إراقة الدماء. وخرج قواد زيادة الله عليه بعد فشلهم في كبح جماح الطنبلي ، ومضى كل منهم إلى ناحية فتغلب عليها ، «واضطربت إفريقية فصارت نارا تتقد»^(١٣٥). ولسنا بحاجة لسرد تفاصيل ثورة الطنبلي، ويكفي أنه الحق الكثير من الهزائم بمعظم الجيوش التي سيرها زيادة الله إليه، ولقى خيرة رجال البيت الأغلبى حتفهم على يد الثوار، ولم يجد الأمير منفذا سوى الاعتصام بقصره مستسلما للأقدار موقنا بضياح ملكه بعد أن انصرف عنه الأتباع وانحازوا إلى معسكر غريمه^(١٣٦)، وبعد أن علا شأن الطنبلي وسيطر على إفريقية كلها باستثناء الساحل وقابس^(١٣٧)، وقيل إنه ضرب السكة باسمه^(١٣٨). لكن لم يقدر لهذه الثورة أن تحقق أهدافها، فقد انقسم معسكر الطنبلي ، وخرج قواده عليه ، في نفس الوقت الذي استمد فيه زيادة الله عوناً صادقا من بربر نفزاوة^(١٣٩)، تمكن بفضل من استعادة البلاد بلدا بلدا. وما لبث الطنبلي أن اغتيل على يد قائده عامر بن نافع^(١٤٠) الذي خرج

١٣٤- الكامل ج ٥ ص ١٨٥ .

١٣٥- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٠ .

١٣٦- قال الأمير مخاطباً أمه في هذا المعنى:

فالسوم أركب في الرعاع ولا أرى إلا العبيد ومعثرا أنذالا

أنظر : الحلة السراء ص ٢٥٥ .

١٣٧- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٠ .

١٣٨- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٠ . ويرى دي كاتديا أن ما ذكره ابن عذارى ينطوي على مبالغة ، حيث لم يعثر على شيء من هذه العملة.

أنظر : Monnaies Aghlabites du Bardo-Revue Tunisienne, 1935

غير أننا لانتبعد أن يضرب الطنبلي عملة تحمل اسمه، فقد ظل مسيطرا على إفريقية زمنا طويلا، ومن المحتمل أن يكون الأمراء الأغالبية قد طمسوا معالم هذه العملة بعد فشل ثورته.

١٣٩- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٠ .

١٤٠- الكامل ج ٥ ص ٢١٥ .

عليه، وحظي بتأييد الجند، وتزعمهم بعد موت منصور. ولم يصف الجو لزيادة الله بموت الطنبلي، فسرعان ما سار عامر سيرته، ورفع لواء العصيان، ورفض الرضوخ لطاعته، ولم يثنه عن عزمه سوى قرد رجاله بزعامة عبد السلام بن مفرج، وقد هزمه زيادة الله، وما لبث أن مات في عام ٢١٤هـ، وموته «وضعت الحرب (في إفريقية) أوزارها» (١٤١).

ولم يجد زيادة الله صعوبة في قمع الثورات التي نشبت بعد ذلك، فشوة الفضل بن أبي العنبر بتونس سنة ٢١٨هـ انتهت بمذبحة راح ضحيتها عدد غفير من أهل المدينة وققهاثها (١٤٢). وفي عام ٢١٩هـ كان الهدوء يسود البلاد بعد فتن استمرت طيلة ثلاثة عشر عاما (١٤٣). ثم عفا الأمير عن خرج عليه أو ناره (١٤٤)، وقدر له أن يسترد سلطانه، ويحفظ الدولة مما هدها من أخطار.

واتخذ زيادة الله من الجهود ما دعم أركان دولته، فألى جانب مقدرته وكفايته الحربية، كان رجل بناء وتشيد شغف بالفنون والعمارة والأدب. أما عن جهوده الاقتصادية، فقد أبطل ما بدأه أخوه عبد الله الذي «قطع العشر حبا، وجعله ثمانية دنانير أصاب أم لم يصب» (١٤٥)، وعاد إلى سياسة ربط الخراج بما تغله الأرض وجبايته عينا، وقد تحسنت أحوال المزارعين نتيجة هذا الإجراء العادل. ومما ساعد على تدعيم هذه الجهود المغانم الوفيرة التي أسفرت عنها حملة صقلية، فيذكر ابن عذارى (١٤٦) أنها «أصابت سبيًا كثيرًا وسائمة كثيرة وكراعا، وكثرت الغنائم عند المسلمين»، وليس أدل على مدى الرخاء الذي وصلت إليه إفريقية في عهد زيادة الله من إنفاقه على مسجد القيروان مائة وثمانين ألف مثقال (١٤٧).

١٤١- ابن الأثير: ج ٥ ص ٢١٥.

١٤٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٥.

١٤٣- معالم الايمان ج ٢ ص ١٣.

١٤٤- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٥.

١٤٥- نفسه ص ١٢١.

١٤٦- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٢.

١٤٧- البكري: المغرب ص ٢٣، ٢٤.

واتخذ زيادة الله من الأساليب ما كفل له رآب الصدع الذى أصاب المجتمع التونسى من قبل ، فقد نجح فى كسب ولاء البربر فانضوا تحت لوائه فى جيش الإمارة (١٤٨) ، كما استمال الفقهاء وكسب ثقتهم بعد أن كانوا يناصبون الإمارة العداء فاهتم بمنصب القضاء ، وقصره على فقهاء المالكية ، ويؤثر عنه تولية قاضيين فى آن واحد هما أبى محرز وأسد بن الفرات (١٤٩) . وما قام به من تشييد المساجد والأربطة يشهد على تفانيه فى إرضاء الفقهاء ، فقد أعاد بناء المسجد الجامع فى القيروان عام ٢٢١هـ دون أن يغير كثيرا من نظامه أو يبذل من حدوده (١٥٠) . ويذكر البكرى (١٥١) « أن زيادة الله أراد هدم المحراب فقيل له أن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه ، فألح فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض البناء ، أنا أدخله بين الحائطين ، ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك ، فاستصوب ذلك وفعله ولم يمس بسوء » . والحق - أنه بالغ فى تجميله حتى صار آية فنية رائعة أثارت إعجاب المعاصرين وامتدت شهرة هندسته وزخرفته إلى مسامع البيزنطيين (١٥٢) . كما كان تشييده لرباط سوسة وقنطرة أبى الربيع (١٥٣) من مظاهر تلك السياسة التى جعلته يكسب حب الناس عن طريق إرضاء الفقهاء ، وليس من شك فى أن الرباطات لعبت دورا هاما فى الحياة الدينية فى إفريقية إلى جانب إسهامها فى النشاط الحربى ، وقد أسس زيادة الله رباط سوسة سنة ٢٠٦هـ على خليج قابس داخل أسوار مدينة سوسة ، أما قنطرة أبى الربيع فقد أقامها خارج مدينة القيروان حيث يبدأ الطريق الرئيسى فى المدينة (١٥٤) . فضلا عن ذلك فقد اهتم زيادة الله بمدينة العباسية التى بناها أبوه ، فأسس فيها القصور والمنيات ، وحصنها فى عام ٢٠١هـ (١٥٥) ، كما أعاد بناء سور القيروان الذى كان قد هدمه انتقاما من سكانها لمناصرتهم الطنبزى (١٥٦) .

١٤٨- البيان المغرب ج ١ ص ١٢٩ .

١٤٩- معالم الإيمان ج ٢ ص ٢٦ .

١٥٠- أحمد فكرى : مسجد القيروان ص ٦٧ .

١٥١- المغرب ص ٢٣ ، ٢٤ .

١٥٢- الخلة السيرة ص ٢٥٢ أحمد فكرى مسجد القيروان ص ٧٧ .

١٥٣- المغرب ص ٣٥ .

١٥٤- نفس المصدر والصفحة .

١٥٥- البيان المغرب ج ١ ص ١٢٣ .

١٥٦- نفسه ص ٢٩ .

وعول زيادة الله على استئصال شأفة الجند والتخلص نهائيا من خطرهم فى نفس الوقت الذى يساهم فيه فى حركة الجهاد، فشرع فى فتح صقلية سنة ٢١٢هـ، وغدت الجزيرة منذ ذلك التاريخ هدفا لحملات الجهاد، وإن دل ذلك على شىء فعلى أن دولة الأغالبة قد تخلصت تماما من مشاكلها الداخلية، وتوطدت دعائمها، وأصبحت قادرة على الاستمرار، فقد ورثها زيادة الله مليئة بالفتن والثورات، وتركها بعد وفاته (١٥٧)، دولة متجانسة متكاملة تهيم على حدودها، وتوجه طاقاتها نحو الفتح والتوسع.

ومهما قيل عن أخلاق زيادة الله، وما اتبعه من سياسة العنف والقسوة، فقد كان له مآثر لا يمكن جحودها، فقد ذكر ابن الآبار (١٥٨) أنه كان شاعرا قديرا، وسياسيا داهية تمكن من كسب الفقهاء إلى جانبه، وكبح جماح الجند بعناده ومثابرته، واستمال البربر إلى جانب الإمارة بدهائه وبصيرته، وحول القوى المناوئة له إلى طاقات استعان بها فى الظهور على مسرح الأحداث فى البحر الأبيض المتوسط.

وحرى بنا أن نعرض بإيجاز لأهم النتائج التى تمخضت عن ظهور هذه الدولة فى النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب الإسلامى وعالم البحر المتوسط.

لعل من أهم النتائج أن ظهور الدولة وضع حداً للفوضى السياسية التى انتشرت فى إفريقية فى عصر الولاة، وقد سبق أن عرضنا لأحوال إفريقية قبيل قيام دولة الأغالبة، وأوضحنا كيف أن البربر الذين اعتنقوا مبادئ الخوارج أضحوا خطراً دائماً على الولاة، وأن جهود الخلفاء الأمويين التى اتسمت بطابع العنف لم تفلح فى تهدئة الأحوال إلا إلى حين، ثم ما لبثت ثورات البربر أن وجدت فرصتها فى اتجاه الخلافة العباسية نحو الشرق لتسفر عن قيام دول مستقلة لا تدبر للخلافة بطاعة، بل ناصبتها العداء، هذا فى الوقت الذى تولى فيه الجند عن دورهم فى توطيد نفوذ الخلافة وسلطانها. وكان قيام دولة الأغالبة نهاية لتلك المرحلة السابقة بما انطوت عليه من هدم وتخريب، وبداية مرحلة جديدة من الأمن والاستقرار والبناء، صحيح

١٥٧- توفى زيادة الله فى ١٤ من رجب سنة ٢٢٣هـ وعمره إحدى وخمسين عاماً. أنظر: ابن عذارى:

ص ١٣٧.

١٥٨- الحلة السيرة ص ٢٥٤.

١٥٩- المعرج ص ١١٣.

أن الأمراء الأغالبة الأوائل تكبدوا الكثير من المشاق فى استئصال شأفة الفوضى والقضاء على الفتن، لكن زيادة الله الأول تمت على يديه النقلة إلى المرحلة الجديدة، مرحلة الاستقرار الداخلى والمساهمة فى أحداث العالم الخارجى .

ويعتبر قيام دولة الأغالبة تعبيرا عن شخصية المغرب، وتحقيقا لنزعة الاستقلال عند البربر، وليس من شك فى أن البربر فى إفريقية وجدوا فى قيام الدولة تحقيقا لأمانهم وإرضاء لنزعاتهم الإقليميه ، وتتويجا لنضالهم من أجل الاستقلال عن سلطان الخلفاء .

ولا يفوتنا أن نذكر أن قيام الدولة أعاد للخلافة بعض الهيبة التى كانت على شفا الزوال من المغرب، بل ضمنى بقاء سيادتها الإسمية نحو قرن من الزمان^(١٦٠) . فالثابت أن قيام دول المدرارين والرسامين والأدارسة أدى إلى انسلاخ المغربين الأوسط والأقصى نهائيا عن سلطان الخلافة، بل شكلت دولة الأدارسة خطرا هدد إفريقية نفسها، لكن الأغالبة وقفوا فى وجهها، وحالو دون تحقيق أطماعها، وصاتوا سلطان الخلافة من الزوال . وإذا كانت الخلافة لم تقارس سيادة حقيقية فيما وراء حدود مصر الغربية^(١٦١)، فإن الوضع الجديد كفل للخلفاء سيادة إسمية قنعوا بها، فذكرت أسماؤهم فى الخطبة، ونقشت على السكة والطرز، وحسبهم أيضا ما كان يرد اليهم من أموال تدفع بانتظام كل سنة، فضلا عن الهدايا والألطفات التى لم يتوان الأمراء الأغالبة عن إرسالها إلى بغداد .

ومن أهم النتائج التى تمس عالم البحر المتوسط ما جرى من فتح صقلية بعد إجلاء البيزنطيين عنها، والاستيلاء على كثير من الجزر الأخرى، والتوسع فى شبه الجزيرة الإيطالية وتهديد كنيسة القديس بطرس ذاتها، كما أسهم الأغالبة فى السياسة الدولية آنئذ ، وتبادلوا السفارات مع شارلمان ، وناصبوا الأمويين بالأندلس العداء .

وإذا كانت تلك هى أهم النتائج السياسية ، فليس من شك فى أن الناحية الاقتصادية قد تطورت بقيام دولة الأغالبة ، فقد أفاد الأغالبة من وضع البلاد الجغرافى فجمعوا الثروات الطائلة^(١٦٢)، وبفضل الموانئ المنتشرة على شاطئ البحر المتوسط مثل سوسة وتونس وبونة

١٦٠- الحلة السيرة ص ٢٤١ .

١٦١- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٦ ، ٢٧ . . Hitti : History of the Arabs, p. 45 .

٢- المغرب ص ٨٩ . . Brockelman : History of the Islamic People, 150 .

وبجاية أمكن للأمرء أن يقيموا الأساطيل ويحرزوا الانتصارات ، ولا جدال في أن فتوحات الأغلبية تمخضت عن مزيد من الثراء الذي انعكس على أحوال السكان في إفريقية فأحدث انتعاشا اقتصاديا . ومن ناحية أخرى أحكم الأغلبية السيطرة على زمام وسط البحر المتوسط ، وصارت لهم السيادة البحرية دون منازع ، فاحتكروا دور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ، وجنوا من وراء ذلك أطيب الثمار ، كذلك لم يمهلوا التجارة مع الجنوب ، فمهّدوا طرق القوافل^(١٦٣) لتسهيل التجارة مع إفريقيا السوداء مستفيدين من استقرار البلاد ووفرة خاماتها ، وانتعشت الأحوال الاقتصادية عن ذي قبل ، وعم الرخاء البلاد بعد أن كانت تعيش عالة على مصر بما ترسله من معونة مالية كل سنة ، وأصبح في وسع الأمرء الإتفاق على المشروعات الإنشائية العظيمة التي شهدتها إفريقية من مساجد وحصون وقناطر وموانئ وربط .

ولا يمكن في هذا الصدد إغفال ما حدث من تطور في الحياة الاجتماعية ، فالعرب رغم أطماعهم الشخصية وخلافاتهم القبلية ، كانت تجمعهم وحدة بشرية ودينية ولغوية^(١٦٤) ، لكن الأغلبية حرصوا على تفكيك عرى هذه الوحدة ، فعملوا على إذابة الجند العرب في المجتمع التونسي بأن اسقطوهم من العطاء فانسابوا وسط العناصر الأخرى واختلطوا بهم . وقد ظهر عنصر جديد لعب دورا هاما في تاريخ إفريقية في ذلك الحين ، وهم الزنوج الذين حرص الأمرء على استجلابهم واتخذوهم حرسا خاصا لهم ، في حين عمل بعضهم عبيدا بالقصور وغلماانا لرجال البيت الأغلبى . أما البربر فقد ناصروا الدولة الجديدة ، وأصبحوا سنداً لها بعد أن كانوا خطراً عظيما على سلطة الخلفاء^(١٦٥) . أما حياة الأمرء الخاصة ، فقد اتخذت طابعاً جديداً ، فقد تشبهوا بالخلفاء في أنماط حياتهم حتى غدا البلاط الأغلبى صورة صادقة لبلاط سامرا^(١٦٦) ، كما ازدهرت الحياة داخل الربط المتناثرة على طول ساحل البحر المتوسط ، وغصت بالمجاهدين من النساك والصالحين ، وأضحت بمثابة خط دفاع أول عن البلاد أمام غارات البيزنطيين والبنادقة الذين طالما أغاروا على سواحل البلاد تغطية لهزائمهم أمام الأساطيل الأغلبية^(١٦٧) .

١٦٣- الادريسي : صفة المغرب ص ١٢١ ، . Vonderheyden : Op. cit, p. 26 .

١٦٤- ديمو ميين : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة بنى الأغلب مجلد ٢ ص ٣٢٧ .

١٦٥- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٠ .

١٦٦- الحلة السيرة ص ٢٩٤ ، . Vonderheyden : Op. cit. p320 .

١٦٧- رياض النفوس ج ١ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

وشهدت النواحي الثقافية والدينية تطورات هامة فى العصر الأغلبى، فقد تم تعريب إفريقية، وتأكد إسلام أهلها، وأتاحت الدولة الحرية للمذاهب الدينية، وساد المذهب المالكى ربوع إفريقية (١٦٨)، وعلا شأن أعلامه الذين تصدوا لمحاربة الزندقة وحالوا دون انتشارها بين البربر، ولعب فقيه مثل سحنون دوراً مبرزاً فى هذا الصدد، وأصبح اسمه علماً فى سماء الحياة العقلية والدينية فى القيروان (١٦٩). والحق - أن القيروان فى العصر الأغلبى حظيت بمكانة مرموقة فى الحياة الثقافية، حتى غدت مركزاً للحضارة الإسلامية فى المغرب (١٧٠) وأضحت منارة يقصدها طلاب العلم والعلماء من الشرق والغرب على السواء، وصارت همزة الوصل بين حضارة المشرق الإسلامى والأندلس.

* * *

١٦٨- نفسه ص ١٦٥، ابن خلدون: المقدمة ص ٤٤٩.

١٦٩- معالم الإيمان، ج ٢ ص ٦٥.

١٧٠- Gautier: Les siècles obscurs du Maghreb, p. 259.

الباب الثاني الأغالبة والمشرق الإسلامي

أولا : علاقات الأغالبة بالخلافة العباسية

ارتبطت علاقات الأغالبة الخارجية بعدة عوامل كانت ذات أثر كبير في توجيهها، ففى الناحية السياسية تأثرت هذه العلاقات بالظروف المحيطة بقيام الدولة، فالمعروف أن دولة الأغالبة قامت استجابة لنزعة الاستقلال عند البربر فى إفريقيا، والتقت مصالحها مع مصالح الخلافة العباسية فى المغرب الإسلامى، لذلك قامت العلاقات السياسية بين الخلافة والإمارة الأغلبية على مبدأ الاستقلال الذاتى مع الولاء للخلافة. ولما كفلت الخلافة للأمراء هذا الاستقلال، عملوا على إرضائها بأن سلكوا فى علاقاتهم الخارجية نهجها، فكان أصدقاء الخلافة هم أصدقاء الإمارة، وأعداء الخلافة أعداءها، فمصر فى عهد الولاة العباسيين كانت على علاقات طيبة بالأغالبة، فلما استقل الطولونيون بها، ناصبها الأغالبة العداء.

وكانت علاقات الأغالبة بدول المغرب عدائية إلى أبعد الحدود بسبب العداء بين تلك الدول وبين الخلافة العباسية، إذ لا يخفى أن قيامها كان على حساب نفوذ بنى العباس فى المغرب والأندلس، ومن ثم حفلت علاقات الأغالبة مع هذه الدول بالحروب والإغارات والفسائس والمكائد .

وجاءت علاقات الأغالبة مع العالم المسيحى صدى لولائهم لبغداد أيضا، فقد اشتبك الأغالبة مع البيزنطيين فى حرب دامت نحو سبعين عاما وانتهت باستيلائهم على صقلية وبعض الجزر الأخرى التى كانت خاضعة للبيزنطيين، بينما هادنوا الفرنجة الكارولنجيين وبادلوه المودة متأثرين فى ذلك بما كان سائدا من علاقات طيبة بين شالمان وهارون الرشيد، فلما توفى الرشيد ناصبوه العداء وأغاروا على سواحلهم واقتطعوا جزء من أملاكهم فى جنوب إيطاليا .

وبذل الأمراء الأغالبة الأواخر غاية جهدهم فى محاربة الدعوة الشيعية فى المغرب، لكن جهودهم باءت بالفشل، ويانتصار هذه الدعوة وزوال دولة الأغالبة، اختفى نفوذ الخلافة العباسية فى المغرب.

والجانب الاقتصادى من علاقات الأغلبية الخارجية تأثر أيضا بولائهم للخلافة، كما تأثر بسيطرتهم البحرية على المنطقة الوسطى من حوض البحر الأبيض المتوسط بعد انتهاء السيادة البيزنطية، فازدهرت التجارة بينهم وبين بلاد الشام ومصر، وتأثرت نظمهم الاقتصادية بنظائرها فى العراق . كما وهنت الصلات التجارية مع دول المغرب والأندلس. وكانت لهم علاقات تجارية محدودة مع بيزنطة لم تلبث أن انقطعت بعد قيام الصراع العسكرى بينهما . بينما تاجر الأغلبية مع المدن الإيطالية التى شاركتهم الوساطة بين الشرق والغرب.

أما العلاقات الثقافية فقد تأثرت بانتصار المدرسة المالكية فى بلاد المغرب، فازدهرت العلاقات مع مصر وخاصة فى فترة تألق المالكية ، بها كما تأثرت الفنون الأغلبية بالمؤثرات والمدارس المشرقية. ومن الطبيعى أن ترتبط ثقافة القيروان بنظيرتها فى قرطبة لالتقائهما حول مذهب مالك، وظهر تأثير مدرسة القيروان فى العمارة والمنشآت الأندلسية ، بينما وهنت العلاقات الثقافية بين القيروان وكل من سجلماسة وتاهرت مركزى الخوارج الصفرية والإباضية فى المغرب. ولم يكن هناك اتصال فكرى مباشر بين القيروان وفاس ، وإذا كان الفن الأغلبى قد أثر فى فن الأدارسة ، فإن ذلك كان نتيجة هجرة بعض الأسر القيروانية إلى فاس. ونعتقد أن محاربة الدعوة الفاطمية فى المغرب كانت تنطوى على أسباب مذهبية ، إذ لا يخفى دور المالكية بالذات فى مقاومة الشيعة العبيديين. ولم تكن ثمة صلات ثقافية تذكر مع العالم المسيحى اللهم إلا ما نعرفه عن وجود بعض مؤثرات بيزنطية فى الفن الأغلبى. فلندرس هذه العلاقات بمزيد من التفصيل .

(أ) سلطات الأمراء فى حدود التبعية للخلافة :

سبق القول بأن قيام دولة الأغلبية فى إفريقية كان مرتبطا أشد الارتباط بعاملين رئيسيين ، أولهما ما ساد المغرب الإسلامى من نزعات الاستقلال التى أدت إلى اقتطاع المغربين الأوسط والأقصى عن سلطان الخلافة العباسية كلية من المغرب . وثانيهما ، استجابة الخلافة لهذا التحدى، وإقرارها قيام أسرة عربية موالية تتمتع بالاستقلال الذاتى فى إطار من الولاء والتبعية لها، وكان هذا الإجراء بمثابة الحل الأمثل لمشاكل الخلافة العباسية فى المغرب ، والضمان الوحيد لبقاء نفوذها فيه^(١).

وفى ضوء هذين العاملين - الولاء والتبعية للخلافة، والاستقلال الداخلى للإمارة- تحدد وضع دولة الأغالبة وعلاقاتها مع الخلافة العباسية، فقد سارت العلاقات فى طريق ودى، والتزم الطرفان بالحفاظ على هذه الوشائج بشرط عدم الإخلال بالمبادئ السابقين، فالخلافة من جانبها دأبت على الاعتراف بالأمراء الأغالبة، عن طريق إرسال تقليد الإمارة، وما يرتبط به من رسوم، كما لم تتوان عن تقديم العون للأمراء الأغالبة فى أوقات الأزمات بالقدر الذى سمحت به ظروفها، ولم تتدخل فى شؤون الإمارة الداخلية بما مس الاستقلال المتعارف عليه، اللهم إلا فى حالات نادرة، وفى ظروف خاصة. وكذلك درج الأمرء الأغالبة على الاعتراف بالتبعية وإظهار الولاء للخلافة، فأسماء الخلفاء كانت تذكر فى الخطبة وتنقش على السكة، كما كانت الأموال السنوية ترسل بانتظام من القيروان إلى بغداد، فضلا عن الهدايا والألطفاء فى الأعياد والمناسبات، واكتفى بنو الأغلب بلقب «الأمير»^(٢)، ولم يتخذوا لأنفسهم ما يخرجهم عن إطار التبعية كما فعل الأدارسة مثلاً حين لقبوا أنفسهم بالأئمة، وكذلك الرستميون^(٣)، وانتهجوا فى سياستهم الخارجية نهجا يتلام مع الأصول العامة للسياسة العباسية.

وما كان يؤكد هذه الروابط ذلك الارتباط المصلحى والمصيرى بين الطرفين، فقد كان الأغالبة عرباً سنة بين غالبية من البربر الخوارج والشيعة فاحتاجوا إلى مؤازرة الخلافة ومساندتها. وفى نفس الوقت كانت دولتهم قلعة تدافع عن نفوذ الخلافة ضد أخطار العلويين والخوارج، وظلت تمثل البقية الباقية من النفوذ العباسى فى الغرب الإسلامى.

٢- وهو لقب يدل على الوظيفة لولا الأمصار التابعة للخلافة الإسلامية. أنظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ١٨٠.

ومن الملاحظ أن العملة التى ضربها أمراء الأغالبة بأفريقية جاءت خلوا من أى لقب، إذ ورد عليها اسم الأمير فقط. أنظر. Lavoix : Catalogue de monnaies musulmanes... vol. 2 pp. 345, 352. FF. ولم يذكر لقب «الأمير» إلا فى العملة التى وجدت بصقلية. وهالك صورة لوجه دينار ضرب فى عهد زيادة الله الأول:

غلب - محمد رسول الله - مما أمر به - الأمير زيادة الله - ابن إبراهيم - زيادة الله. أنظر: Lavoix : Op. cit. vol 2, p. 354.

Vonderheyden : la Berberie Orientale , p. 28.

وبالغ بعض المؤرخين^(٤) فى تصوير استقلال الأغالبة ، والتهوين من شأن نفوذ الخلافة بقولهم : «إن إفريقية الأغلبية قد تحقق لها الاستقلال الفعلى بكل جوانبه» ، حتى أنه «لم يقدر لأى من خلفاء بنى العباس ممارسة أدنى سيادة فيما وراء حدود مصر الغربية» ، بينما يمضى فنندرهين^(٥) فى تصوير سلطان الخلافة وإظهار هيبتها ونفوذها والتهوين من شأن استقلال الإمارة ، حتى خيل إليه أن الأمر لم يخرج عن إطار «إمارة الاستكفاء بعقد عن اختيار» وهو ما عرفته النظم الإسلامية .

والواقع أن كلا الرأيين ينطوى على مبالغة، ومن ثم تجدر مناقشة وضع الإمارة الأغلبية فى ضوء ما ورد «بالأحكام السلطانية» عن نظام الإمارة^(٦) فى الإسلام.

يقول الماوردى عن^(٧) إمارة الاستكفاء بعقد عن اختيار أنها «تتضمن على عمل محدود ، ونظر معهود والتقليد فيها تفويض الخليفة للأمير إمارة بلد أو إقليم على جميع أهله، ونظرا فى المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل، ومعهوداً من نظر». ويقول أيضاً^(٨) أن «وزارة التفويض تصح فى إمارة الاستيلاء، ولا تصح فى إمارة الاستكفاء». «وأن إمارة الاستيلاء متعينة فى المتولى، وإمارة الاستكفاء مقصورة على اختيار المستكفى» وأن «إمارة الاستيلاء تشمل على معهود النظر ونادره ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على معهود النظر دون نادره».

وفى ضوء ما ذكره الماوردى يمكن القول بأن دولة الأغالبة تدخل ضمن إطار الإمارة العامة، وتجمع بين بعض خصائص إمارة الاستكفاء وبعض سمات إمارة الاستيلاء، لكنها لا يمكن أن تندرج تحت أى منهما، وخصوصاً إمارة الاستكفاء بعقد عن اختيار كما يذهب فنندرهين .

٤- أنظر : Hitti : History of the Arabs . p. 451 , Marcais : L'Afrique du Nord Francais :
 dans l'histoire p. 149 , Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale . vol . I . p. 264 ,
 Brockelman : History of the islamic people p. 150 , Cam. med, hist, vol . 2 . p. 278 .

٥- La Berberie Orientale . p. 26 .

٦- انظر ملحق رقم ١ .

٧- الأحكام السلطانية ص ٣٠ .

٨- نفسه ص ٢٤ .

وذلك أن شرط اختيار «المستكفي» لا ينطبق على تولية الأمراء الأغلبية، فقد كان الأمير قبل وفاته يعهد إلى وريثه بالإمارة وفقا لوصية تركية ، فتؤول تلقائيا إليه «مستحقا أو غير مستحق»^(٩)، ثم يعترف الخليفة به ، ويبعث إليه عهد الإمارة وخلعها دون اعتراض ، بمعنى أن الخلافة كانت تضافى صفة الشرعية على حكم الأمراء الأغلبية دون أن يكون لها يد فى اختيارهم . هذا وقد اتخذ الكثيرون من الأمراء الأغلبية وزراء ، الأمر الذى لا يحدث فى إمارة الاستكفاء ؛ فقد اختار زيادة الله الأول أخاه غلبون وزيرا ، كما ولى محمد الأول أخاه أبا جعفر أحمد الوزارة^(١٠)، أما عبدالله بن أبى إسحاق، فقد كان وزير الأمير إبراهيم بن أحمد^(١١)، بينما أستد زيادة الله الثالث الوزارة والبريد إلى عبدالله بن الصايغ^(١٢)، واتخاذ الأمراء وزراء لهم أمر لا يجوز إلا فى إمارة الاستيلاء . فضلا عن ذلك ، فقد مارس الأمراء الأغلبية سلطة مطلقة فى شؤون إمارتهم الداخلية ، دون الرجوع إلى بغداد، كما خاضوا الحروب وقادوا الجيوش دون الانتظار لأوامر الخلافة ، وهذا ما لا يحدث إلا فى إمارة الاستيلاء .

وإذا كانت الإمارة الأغلبية أقرب ما تكون إلى إمارة الاستيلاء فيما يتعلق بتولية الأمراء، واتخاذهم الوزراء، واتساع سلطانهم ، فلاشك أنها تحمل بعض سمات إمارة الاستكفاء إذ مارس الخلفاء فيها سلطانا إسميا وتدخلوا فى بعض الأحيان تدخلا فعليا مثمرا فى شؤون الإمارة الداخلية كما حدث زمن المعتضد . وكانت الإتاوة السنوية تحمل إلى بغداد بانتظام ، فضلا عن الهدايا والطرف^(١٣)، وكان فى بغداد ديوان لإقليمية يتألف من أصل وزمام^(١٤) للإشراف على الشؤون المالية الجارية بين الإمارة والخلافة. ومن مظاهر هذا النفوذ أيضا ما جرى

٩- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٧ .

١٠- Hopkins : medieval muslim government in barbary, p. 2 .

١١-

١١- البيان المغرب ج ١ ص ١٦٠ .

١٢- نفسه ص ٨٣ .

١٣- ابن خلدون : المقدمة ص ١٨١ ، Brunschwig : la Tunisie dans le haut moyen âge .

p. 10 .

١٤- ابن الصايغ : رسوم دار الخلافة ص ٢٩ ، ميتز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٢٤ .

من ذكر أسماء الخلفاء على منابر إفريقية^(١٥)، فيما عرف «بالخطبة العباسية»^(١٦)، ونقش أسمائهم وأسماء أولادهم^(١٧) على السكة الأغلبية، كذلك اكتسب حكم أمراء بنى الأغلب صفته الشرعية عن طريق تقليد الخلفاء الذين لم يتوانوا فى إرسال التفويض والخلع وشارات الخلافة عقب تولية كل أمير^(١٨).

قصارى القول : أن دولة الأغالبة تمتعت بوضع فريد لا يدخل فى إطار المألوف من النظم الإسلامية، وما ذكره النويرى^(١٩) فى هذا الصدد يؤكد حقيقة وضع الأغالبة، ويحدد الأبعاد الحقيقية لسلطان الأمراء ونفوذ الخلافة، إذ يقول : «... هذه أول دولة قامت بإفريقية وجرى عليها اسم الدولة، وكان من قبلهم عمالا إذا مات أحدهم أو صدر منه ما يوجب العزل عزله من يكون أمر المسلمين إليه من الخلفاء فى الدولة الأموية والعباسية. فلما قامت هذه الدولة كانت كالمستقلة بالأمر، وإنما كانت ملوكها تراعى أوامر الدولة العباسية، وتعرف لها حق الفضل والأمر، وتظهر طاعة مشوية بمعصية. ولو أرادوا عزل واحد منهم والاستبدال به من غير البيت يخالفونهم... وصار ملوك هذه الدولة يوصون بالملك بعدهم لمن يروه من أولادهم وإخوتهم».

وفى ضوء ذلك لم يكن الأغالبة مستقلين تماما بإفريقية، وإنما مارسوا سلطاتهم الداخلية، سالكين فى سياستهم الخارجية نهج الخلافة العباسية. ومن ناحية أخرى لم يكن للخلفاء

١٥- أنظر : الملحق رقم ٢ .

١٦- ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٠ .

١٧- وهاك صورة لدرهم أغلبي نقش عليه اسم المأمون قبل أن يتولى الخلافة. (كتابة دائرية) بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدرهم بإفريقية سنة ست وثمانين ومائة .

(الوجه الأول) : لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

(الوجه الثانى) : غلب - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم- إبراهيم.

(كتاب دائرية) : مما أمر به الأمير المأمون عبد الله بن أمير المؤمنين .

انظر : . p. 346 . vol 2 . Lavoix : Op. cit.

أنظر : الملحق رقم ٣ .

١٩- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقم ٢٦ ، ٢٧ .

العباسيين نفوذ فعال في إفريقية ، ولم يهتموا من جانبهم بتأكيد هذا النفوذ ، ولم يحاولوا إقحام أنفسهم في الأمور الداخلية واكتفوا منهم بالولاء والود. غير أنه من الملاحظ أن سلطان الخلافة في إفريقية كان يضعف أو يقوى حسب مكانة الخلفاء أنفسهم، فليس يخاف مثلاً تغفل نفوذ الخلافة في إفريقية زمن الرشيد والمعتضد ، ثم انحسار هذا النفوذ في عهود خلفاء المأمون مثلاً. ومع ذلك ، ففي كلتي الحالتين لم ينتقص الخلفاء من سلطان الأغلبية في إفريقية، فحين حاول المأمون ذلك لم يقدر له النجاح ، كما لم يخرج الأمراء عن سياستهم الودية المقرونة بالولاء للعباسيين.

(ب) العلاقات السياسية :

من الثابت أن علاقات إبراهيم بن الأغلب بالخلافة العباسية انطوت على الود والولاء ، فقد تولى الإمارة من قبل الرشيد في ظروف عصيبة جعلته يحرص على أن يستمد من الخلافة العون المعنوي والمادي، ومن هنا يمكن تبرير تدخل الرشيد في شؤون إفريقية . وكان ابن الأغلب آنذاك مجرد وال من الولاة، فلم يستطع السيطرة حتى على كبار رجال دولته، فالقاضي ابن غانم لم يسمح له بالإطلاع على ما يكتبه الرشيد إليه، ولم يكن بإمكان الأمير أن يرسل كتبه إلى الخليفة إلا مصحوبة بكتب ابن غانم^(٢٠).

وظهر نفوذ الخلافة واضحاً في سياسة الإمارة الخارجية ، فلم يفتأ إبراهيم الأول يعمل على الكيد للأدارة إمعاناً في إرضاء الخلافة، ولم يتقاعس عن مساعدة الصقالبة - حلفاء الرشيد- في ثورتهم على البيزنطيين بالبلقان ، كما هادن الفرنجة - أصدقاء الخليفة- وقدم لسفرائهم التسهيلات في بلاده، واستجاب لمطالبهم. وما يدل على حرص الأمير على إرضاء الخليفة ما جرى من قيامه بضرب عملة خاصة دفع منها راتب الخلافة السنوي^(٢١). والجدير بالذكر أن هذه العملة خلت من ذكر كلمة «غلب» ومن اسم الأمير الأغلبى الأمر الذي كان شائعاً في سكة الأمراء الأغلبية المضروبة من الذهب أو الفضة أو البرونز^(٢٢) على السواء،

٢٠- رياض النفوس ج ١ ص ١٥١ ، معالم الإيمان ج ١ ص ٢٢٥ .

٢١- De candia : Monnaies Aghlabites du musée du bardo, Revue Tunisienne 1935. p. 272 .

٢٢- Ibid . p. 180

بينما نقش عليها عبارة «للخليفة» (٢٣). كما أنشأ عاصمة جديدة لدولته أطلق عليها «العباسية» (٢٤) تيمنا بالخلافة واسترضاء لها.

والخلافة العباسية أولت تابعها فى إفريقية الاهتمام والرعاية، فلم يتأخر الرشيد عن تقديم العون لإبراهيم الأول حين أهدقت به الأخطار ، وحملت الدنانير العباسية اسم «إبراهيم حاكم إفريقية» كما جرت العادة بذكر أسماء الولاة والعمال وأبناء الخلفاء على العملة إلى جانب اسم الخليفة (٢٥).

وساعد الخليفة عامله على إفريقية بتقديم الأموال لقمع فتن الجند التى هددت الإمارة والخلافة معا، إذ أن معظم هذه الفتن كانت تهدف إلى خلع الطاعة للعباسيين. وبفضل هذه

= ومن الملاحظ أن العملة الأغلبية عموما نقش عليها كلمة «غلب» ، وحتى عملة إبراهيم ابن الأغلب من غير التى ضربها للخلافة كانت تحمل نفس الكلمة ، كما وردت أيضا فى سكة عبد الله ابن إبراهيم ، وزيادة الله الأول، ومحمد بن الأغلب، وأحمد بن محمد ، ومحمد بن أحمد ، وإبراهيم بن أحمد.

أنظر : . 346 , 349 , 350 , 354 , 357 , 358 , 360 . Lavoix : Op. cit. vol 2 . pp.

٢٣- صورة الدينار الذى ضربه إبراهيم بن الأغلب خصيصا للخلافة :

(الوجه الأول) : محمد رسول الله- للخليفة.

(الوجه الآخر) : لا إله - إلا الله- وحده لا شريك له.

أنظر : . 345 . Lavoix : Op. cit. p.

أما الدينار الذى ضربه إبراهيم بن الأغلب للتداول فى إفريقية فصورته كالآتى:

(نقوش دائرية) بسم الله ضرب هذا الدينار سنة إحدى وتسعين ومائة.

(الوجه الأول) محمد- رسول- الله- غلب .

(الوجه الآخر) لا إله - إلا الله- وحده لا شريك له.

(نقوش دائرية) محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

أنظر : Catalogue of the collection of Arabic coins presented in the khedivial library of Cairo. p. 129 .

٢٤- الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ .

٢٥- الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ١٢٣-١٢٤ .

المعونة تمكن ابن الأغلب من ردع الثوار، وتثبيت دولته، والتمكين للسيادة العباسية. وليس أدل على التقاء مصالح الإمارة والخلافة- في هذا الصدد- مما حدث من تخلص إبراهيم من قواد الجند المتمردين بإرسالهم إلى بغداد^(٢٦).

واضح من هذا أن الإمارة الأغلبية إذا كانت تستعين بالخلافة العباسية في عهد إبراهيم الأول فإنها كانت تخدم بطريق غير مباشر مصالح الخلافة وتضمن استمرار نفوذها في المغرب^(٢٧)، وإذا كان النفوذ العباسي قد تغفل في إفريقية في عهد الرشيد، فإن ذلك يعزى إلى شخصية الرشيد نفسه، فضلا عن اشتداد حاجة الإمارة إلى الخلافة لتستمد منها العون المادي والروحي في مواجهة المشاكل الداخلية.

ولما توفى الرشيد وتخلصت الإمارة الأغلبية من أخطار الجند نسبيا، قل تدخل الخلافة تدريجيا في إفريقية، ووجد إبراهيم بن الأغلب متنفسا للعمل بحرية دون ارتباط حتمي بسياسة بغداد، فقد عادى الفرنجة، وأغار على سواحلهم. غير أن ذلك لم يكن خروجاً عن سياسة الود والولاء التي ظلت رائد الأغلبية جميعاً^(٢٨)، فقد ظل خلفاء إبراهيم محافظين على هذه الصلة، يتلقون التقليد الرسمي من الخلافة ويوفون بالتزاماتهم المالية حيالها، ولا يبخلون بالإشادة بسيادتها في المناسبات الرسمية وغير الرسمية. فلما ضعفت الخلافة، وانشغلت بمواجهة الكثير من المشاكل في العراق^(٢٩)، عمل أمراء بنى الأغلب على توسيع مفهوم الاستقلال.

وقد درج الخلفاء العباسيون بعد الرشيد على تقليد الأمراء الأغلبية حكم إفريقية، فقد أقر المأمون أبا العباس بن إبراهيم بن الأغلب^(٣٠)، ولما توفى أبو العباس عبد الله عام ٢٠١ هـ، وخلفه أخوه زيادة الله، بعث إليه الخليفة المأمون تقليداً بالإمارة في نفس العام^(٣١).

٢٦- الطبايع : كتاب الحلة السيرة ص ٤٠٤ .

٢٧- ابن الأثير : الحلة السيرة ص ٢٤٦ .

٢٨- ديموبين : مادة بنى الأغلب بدائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ ص ٣٢٦ .

٢٩- عن هذه المشاكل أنظر : حسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والاختشيديين، المقدمة .

٣٠- الباجي المسعودي: الخلاصة النقية ص ٢٦ .

٣١- العبر ج ٤ ص ١٩٧ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ ، المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥٤٠ ، ٥٤١ .

أما زيادة الله الأول ، فظل مخلصا للخلافة حتى في ظروفها العصبية فلم يخرج عن ولائه للمأمون إبان اندلاع فتنة إبراهيم بن المهدي في بغداد : لذلك شكر له الخليفة موقفه بعد أن صفا الجو له (٣٢). إلا أن علاقة الرد ما لبثت أن تعرضت لهزة عنيفة حين حاول الخليفة المأمون الانتقام من استقلال إفريقية والتدخل في أمورها ، لكن جهوده في هذا الصدد لم تكلل بالنجاح ، فقد أراد مكافأة عبدالله بن طاهر - قائده - فأسند إليه ولاية مصر والمغرب (٣٣) ، وكتب إلى زيادة الله يأمره بالدعوة لعبدالله بن طاهر على منابر إفريقية (٣٤) ، بمعنى أن تتبع إفريقية إمارة مصر ، وتفقد استقلالها الذاتي. ورفض زيادة الله طلب الخلافة ، ولم يفرط فيما حافظ عليه والده وأخوه . ويصور ابن الأبار (٣٥) غضب زيادة الله حين وصل إليه رسول الخليفة بقوله « ... وأمر (زيادة الله) بإدخال الرسول عليه بعد أن تملأ من الشراب ، وحلق شعره ، ونار عظيمة بين يديه في كواتين وقد احمرت عيناه ثم قال : وقد علم أمير المؤمنين طاعتى له ، وطاعة أبائى لأبائى ، وتقدم سلفى في دعوتهم ، ثم يأمرنى الآن بالدعاء لعبد خزاعة ، هذا والله أمر لا يكون أبداً » . وكتب زيادة الله رسالة إلى الخليفة يرفض فيها الأمر ، ويخبره بأنه سيدافع عن حقوقه حتى لو أدى الأمر إلى اندلاع الحرب (٣٦) وأرق بالرسالة كيسا به الفى دينار إدريسية (٣٧) . لذلك لم يجد الخليفة بدا من التخلي عما أمر به ،

٣٢- الحلة السيرة ص ٢٥٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص ١٦٠ ، Fournel : Les berbers ، vol . I . p. 481 .

٣٣- ابن طيفور : بغداد ص ٣٥ .

٣٤- العبر ج ٤ ص ١٩٧ .

٣٥- الحلة السيرة ص ٣٥٤ ، . Vonderyden : Op. cit. p. 30 .

٣٦- اختتم زيادة الله رسالته بهذه الأبيات :

أنا النار في أحجارها مستكنة فإن كنت ممن يقدهم الزند فاقده
أنا الليث يحمى غيله بزئيره فإن كنت كلبا جاء موتك فانبع
أنا البحر في أمواجه وعبابه فإن كنت ممن يسبح البحر فاسبح
أنظر : الحلة السيرة ص ٢٥٤ ، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣١ .

٣٧- الحلة السيرة ص ٢٥٤ ، العبر ج ٤ ص ١٩٧ ، الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ص ٢٨ ، ويذكر ابن خلدون أن زيادة الله كان يرمز بإرسال هذه النقود إلى أنه سيدعو للأدارة ويتحول عن بنى العباس ، انظر : العبر ص ١٩٧ ، ويأخذ بهذا الرأي فورنل وفندين ، انظر :

= Les Berbers, vol . I . p. 481 , La Berberie orientale, pp. 31 , 91 ff .

متجاهلا^(٢٨) ما ورد برسالة الأمير الأغلبى من خروج عن المؤلف فى مراسلة الخلفاء^(٢٩)، ورضى ببقاء الأمور على ما هى عليه بإفريقية .

ولم يحاول زيادة الله من جانبه التنصل من ولائه للخلافة بعد استقرار أحوال دولته وبلوغها أوج قوتها، فلم يقم بمثل ما أقدم عليه أمراء آخرون فى ظروف أقل ملاءمة^(٤٠)، واتخذ لنفسه حق التصرف فى شؤون دولته فى الداخل والخارج بما لا يمس علاقته بالخلافة . فلما شرع زيادة الله فى إعداد حملته على صقلية بغرض الجهاد، لم يتلق توجيها من أحد ، وليس هناك ما يشير إلى التماسه مشورة بغداد حتى لمجرد الاسترشاد برأى الخليفة، ومع ذلك لم يفتنه إخبار الخليفة بما حققه من انتصارات فى عمليات الفتح الأولى^(٤١).

ثم توفى المأمون عام ٢١٨ هـ بطرسوس وقام أخوه المعتصم بالأمر من بعده^(٤٢). وفى خلافته احتل الترك مركز الصدارة فى دولة الخلافة ، ومع ذلك فقد استعان فى جيشه بعناصر

= ونحن نستبعد ذلك، فلم يقصد الأمير الأغلبى سوى تذكير الخليفة بجهوده وجهود أسلافه فى مناوئة الأدارسة الذين اشتد خطرهم ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن الأبار من أن الدنانير كانت مضروبة باسم إدريس الحسنى ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب، ومناخلة العلويين، أنظر : الحلة السراء ص ٢٥٥، ويؤكد هذا المعنى أيضا إرسال زيادة الله خطابا آخر « يتلطف فيه » للخليفة المأمون ويبدى اعتذاره.

٣٨- اشتهر المأمون بشيعة العفو عن أعدائه، فقد عفا عن الحسن بن سهل والفضل بن الربيع وإبراهيم بن المهدي رغم ما سببوه له من متاعب ، وقد تغنى الشعراء بهذه الخصلة الحميدة فقال أحدهم :

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما
وقال آخر :

أمير المؤمنين عفوت حتى كأن الناس ليس لهم ذنوب
بل قال المأمون نفسه : « لو علم أهل الجرائم لذتى فى العفو ما حمدونى عليه ولا أنابوا من ذنوبهم » .
أنظر : ابن طيفور : بغداد ص ٣٨٠ .

٣٩- أنظر : الملحق رقم ٤ .

٤٠- Vonderheuden : Op. cit. p. 27 .

٤١- رياض النفوس ج ١ ص ١٨٨ ، معلم الايمان ج ٢ ص ١٥ ، المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٤٢ .

٤٢- صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٥٩ .

أخرى إلى جانب الأتراك، فيذكر بيوري^(٤٣) أن «البدو من عرب مصر والبربر والزنوج خدموا في جيش الخلافة زمن المعتصم» ولا يخالفنا شك فيما ذهب إليه بيوري إذا علمنا أن الخليفة خصص في مدينته الجديدة، «سر من رأى»، قطائع لسكنى الجند المغاربة «كجزء من شارع الخليج المطل على نهر دجلة، فضلا عن الموضع المعروف بالازلاخ»^(٤٤). وليس من شك في أن وجود جند من إفريقية في حاضرة الخلافة دليل على العلاقات الطيبة بين بغداد والقيروان، وأن ما حدث من جفوة عارضة بين زيادة الله والمأمون لم تؤثر في مجرى العلاقات التقليدية بين الطرفين.

وظل الخلفاء يواصلون إصدار التقاليد للأمراء عقب شغور عرش الإمارة ليشغله أمير جديد، فالخليفة المعتصم قلد الأمير أبا عقال على إفريقية^(٤٥) ٢٢٣هـ بعد موت زيادة الله الأول، ومن بعده قلد أبا العباس محمد عام ٢٢٦هـ أميراً على إفريقية. ويخيل إلينا أن الخلافة العباسية - بالرغم من مشاكلها في الشرق - أولت أمور المغرب زمن المعتصم بعض الاهتمام، ولعل بزوغ نجم الأغالبة في البحر المتوسط في ذلك الحين، شجعها على التفكير في الاستعانة بهم في استرداد نفوذها المفقود في المغرب والأندلس، إذ يخبرنا السيوطي^(٤٦) أن المعتصم راودته فكرة إعداد حملة لإقصاء الأمويين عن الأندلس لم يقدر لها أن توضع موضع التنفيذ لوفاته المفاجئة؛ فقد توفي المعتصم عام ٢٢٧هـ، وخلفه الواثق بالله^(٤٧).

وإذا كانت خلافة الواثق لا تحفل بذكر أخبار عن إفريقية، فليس هناك ما ينفي استمرار العلاقات الودية، وسير الأمور في مجراها الطبيعي بين بغداد والقيروان.

ويزخر عهد المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) بعدد من الأحداث ذات الدلالة على العلاقات الوطيدة بين الطرفين، وتؤكد هذه الأحداث تضامن الخلافة مع أمراء إفريقية، وحفاظها على

٤٣- Ahistory of the eastern Roman empire p. 238.

٤٤- البعقوبى : البلدان ص ٢٩٣ .

٤٥- المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥٤٢ .

٤٦- تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ .

٤٧- صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٥٩ .

السيادة الإسمية ، وحرص الأغلبية على إرضاء الخلافة ومجاملتها ، والاستجابة لأوامر الخلفاء طالما لا يتحد من استقلالهم الذاتي. ففي عام ٢٣١هـ تفاقمت الفتنة بسبب خروج أحمد بن الأغلب على أخيه الأمير أبي العباس محمد ، فلم يجد الأمير وسيلة أسلم من نفى أخيه الشائر إلى العراق حتى يستقيم حال الإمارة^(٤٨). ولم تقف جهود المتوكل عند حد إيواء المخالفين من رجال البيت الأغلبى ضمانا لعدم إثارة القلاقل في إفريقية، بل حرص أيضا على تقديم العون المادي للأمير الأغلبى بما يحقق له توطيد حكمه . ولا يخفى أن المتوكل كان ينظر إلى أمراء بني الأغلب على أنهم من عماله وأتباعه ، لكنه كان يدرك تماما ما يتمتع به الأغلبية من مكانة خاصة في استقلالهم بأمور دولتهم، لذلك لم يحرص على تنفيذ ما أجراه من تفويض عامله على مصر المعروف «بقوصرة» أمر المغرب^(٤٩). وما حدث عام ٢٣٥هـ من وضعه المغرب ضمن أملاك ابنه المنتصر^(٥٠) عند تقسيم الملك بين أبنائه^(٥١) لم يغير من وضع الإمارة شيئا . ولم يعر الأغلبية هذا التصرف أدنى اهتمام، وواصلوا سياستهم التقليدية مع الخلافة، ففي سنة ٢٣٩هـ أنشأ الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب مدينة قرب تاهرت سماها العباسية^(٥٢).

٤٨- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٧٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص ٢١-٢٢ .

٤٩- المنصوري : زبدة الفكرة ج ٤ ورقة ١٠١ مخطوط .

٥٠- الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣٥٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٣٥ .

٥١- قسم المتوكل ملكه بين أبنائه الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد ، فاختص المنتصر بعرش مصر وإفريقية، فضلا عن قنسرين والعواصم والثغور الشامية، والجزيرة وديار بكر وربيعة، والموصل والفرات وهيت ، وغانة والخابور ودجلة والحرمين ، واليمن واليسامة وحضرموت والبحرين والسند، وكرمان وكور الاهواز ومسبلان ومهرجان وشهر زور وقم وقاشان وقزوين . ومن الجدير بالإشارة أن إفريقية لم تدخل ضمن أملاكه حسبما يذكر ابن العبري. أنظر : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٧ .

أما المعتز فاختص بخراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله، بينما كان نصيب المؤيد أرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين . أنظر : الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣٥٨ . ويذكر المسعودي أن المتوكل أخذ البيعة لأبنائه الثلاثة، وجعل المنتصر ولي عهده ثم المعتز فالمؤيد ، وقرق الأموال والصلوات ابتهاجا بهذه المناسبة.

أنظر : مروج الذهب ص ٤٠٣ .

٥٢- الكامل ج ٥ ص ٢٦٣ ، Fournel , Op. cit. pp. 513-14 .

إظهاراً لمودة بنى العباس ، كما بعث إلى الخليفة بالهدايا والسبى عام ٢٤٤هـ بعد سقوط قصر يانة فى صقلية (٥٣) ، ولم يتقاعس عن تنفيذ أوامره الخاصة بمعاملة النصارى (٥٤) فى إفريقيا ، تلك الأوامر التى سرت فى جميع أنحاء ولايات الدولة العباسية (٥٥) .

ولما توفى المتوكل بسامرا عام ٢٤٨هـ ، قام بالأمر من بعده المستعين بالله (٥٦) الذى كان معاصرا للأمير أبى إبراهيم أحمد بن محمد الأغلبى (٥٧) . وتعتبر العلاقات بينهما امتداداً لما كانت عليه من قبل ، ففى عام ٢٤٨هـ عقد المستعين بالله لقائه أوتامش على مصر والمغرب (٥٨) ، كما فعل المتوكل من قبل ، ولم يؤد ذلك إلى استياء الأمير الأغلبى . وليس أدل على إخلاصه مما حدث من إجراءات بعض التحسينات فى جامع الزيتونة ونسبتها إلى الخليفة المستعين إجلالاً لشأنه (٥٩) . ولما مات الأمير أبو إبراهيم أحمد وخلفه أبو محمد زيادة الله بن محمد بن إبراهيم عام ٢٤٩هـ كان تقليده من قبل الخليفة المستعين (٦٠) كما جرت العادة .

وفى خلافة المهتدى استعان بجند من المغاربة تمكن بفضلهم من التغلب على باكباك التركى (٦١) ، كما استعان المعتز (٢٥٢-٢٥٥هـ) بالمغاربة والفراغنة (٦٢) دون الأتراك .

٥٣- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧١ ، العبر ج ٤ ص ٢٠١ ، الباجى المسعودى الخلاصة النقية ص ٢٣٠ ، فاذيليف : العرب والروم ص ١٩٤ .

Scott : The moorish empire in Europe. vol . 2 . p. 30 .

٥٤- أبو العرب قسيم : طبقات علماء أفريقيا ص ١١٠ .

٥٥- كتب المتوكل إلى جميع البلدان أن يختص النصارى بلباس مميز ، وأن يمنعوا من ركوب الخيل ، وأن تصور على أبواب دورهم صور الشياطين ، والخنازير والقروء . أنظر : سعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٦٣ .

٥٦- صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٠ .

٥٧- المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥٤٣ .

٥٨- النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٤٨ ، المنصورى : زبدة الفكرة ج ٤ ورقة ٢١ .

٥٩- ابن أبى دینار : المؤنس ص ١١٠ ، حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٦٩ .

٦٠- المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥٤٣ .

٦١- المسعودى : مروج الذهب ص ٤٣٣ ، الكامل ج ٥ ص ٢٣٣ .

٦٢- حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٢ .

وجرى الخليفة المعتمد على الله على سنة سابقه فى تقسيم الإمبراطورية بين الأبناء والإخوة والقادة ، ففى عام ٢٥٦هـ عين أخاه الموفق طلحة على المشرق ، وأسند المغرب إلى ابنه وولى عهده جعفر بن المعتمد (٦٣) ، كما جدد هذا التقسيم عام ٢٦١هـ (٦٤) ، وفى نفس العام بعث بتقليده إلى إبراهيم بن أحمد الأغلبى بعد موت الأمير أبى الغرانيق (٦٥) .

وإذا كان الخلفاء السابقون قد اكتفوا بمجرد السيادة الإسمية على إفريقية فلم يكن ذلك إلا من قبيل التسليم بالأمر الواقع ؛ نظراً لما تردت فيه الخلافة آنذاك من ضعف بسبب تسلط الأتراك .

أما وقد ولى الخلافة فى عام ٢٧٩هـ خليفة قوى هو المعتضد (٦٦) تمكن من استرداد (٦٧) هيبتها بما أوتى من شجاعة ؛ فكان من الطبيعى أن يرنو ببصره نحو المغرب لتأكيد نفوذ الخلافة فيه . ويبدو أن الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد استشعر سطوة المعتضد فعمل له كل حساب ، فلم يدخر وسعا فى إذكاء العيون للقبض على المهدي أثناء هجرته إلى المغرب تنفيذا لأمر الخليفة (٦٨) . وثمة حادثة أخرى تؤكد هذا الاتجاه الجديد ، فقد روى البارونى (٦٩) نقلا عن أبى زكرياء (٧٠) أن إبراهيم بن أحمد حارب نفوسة تنفيذا لأوامر الخليفة . وإذا كنا نشك فى

= مما يدل على استخدام المغاربة فى جيش الخلافة إلى جانب الترك والفراغة تلك الأبيات التى نظمها أحد الشعراء :

وأقبلت الترك والمغربون وجاء الفراغنة الدارمونا
تسير كراديسهم فى السلاح يروجون خيلا ورجلا تبينا

أنظر : الطبرى تاريخ الأمم والملوك ج ١١ ص ٩٧ .

٦٣- السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٤ .

٦٤- ابن تغرى بردى : ص ٣٣ .

٦٥- المكتبة الصقلية ج ٣ ص ٥٤٣ .

٦٦- صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٠ .

٦٧- مروج الذهب ص ٤٦٢ .

٦٨- ابن خلدون : المقدمة ص ٢١ ، العبر ج ٣ ص ٣٩٠ .

٦٩- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

٧٠- كتاب السير ورقة ٣٣ .

صحة هذه الرواية، فليس ثمة ما يدفعنا إلى إنكار رواية الدرجيني^(٧١) - نقلا عن الشماخي^(٧٢) - التي تصور إبراهيم بن أحمد يقود حملة على مصر الطولونية انتقاما من أعداء الخلافة . وقد بلغ نفوذ الخلافة ذروته بصورة فريدة في تاريخ الأغالبة حين أجبر الخليفة المعتضد إبراهيم بن أحمد على اعتزال الإمارة، وإسنادها إلى ابنه أبي العباس عبدالله. فقد أصيب إبراهيم بلوثة جعلته يقدم على سفك دماء أقرب الناس إليه ، فاستأمت الرعية من ظلمه واضطهاده وكتبوا إلى الخليفة يستجيرون به ، فبعث المعتضد إلى الأمير الأغلبى رسولا قدم عليه عام ٢٨٩هـ^(٧٣) وأمره بالتنازل عن الإمارة لابنه أبي العباس عبدالله واللاحق ببغداد . ولم يجد إبراهيم مناصا من اعتزال الحكم^(٧٤)، فاستدعى ابنه أبا العباس من صقلية سنة ٢٨٩ هـ فاحتل مكان أبيه الذي أثر اللحاق بصقلية للجهاد^(٧٥).

وبتحتية إبراهيم بن أحمد لم تعيش أسرة الأغالبة إلا سبعة أعوام وقعت بعدها فريسة للغاطميين. وقد حفلت هذه السنوات بضروب المقاومة اليائسة ضد الخطر الشيعي. وفي تلك الظروف العصبية اتجه الأمراء إلى المشرق طلبا للمعونة ، فازداد التقارب بين بغداد والقيروان. وليس من شك في أن الأمراء الأغالبة أظهروا تمسكهم بالخلافة أكثر من ذي قبل إنقاذا لدولتهم من تهديد الشيعة^(٧٦) ، فزيادة الله الثالث - آخر أمراء بني الأغلب - حين انتقل إلى رقادة ليقم فيها بدلا من القيروان نزل في قصر سماء «قصر بغداد»^(٧٧)، وبالح في تكريم الخليفة المكتفى بإرسال الهدايا^(٧٨)، ويذكر المسعودي^(٧٩) أنه بعث إليه مرة «مائتي خادم أسود

٧١- طبقات الإباضية ج ١ ورقة ٨١ مخطوط.

٧٢- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

٧٣- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٥١ .

٧٤- يتشكك المؤرخ ديموبين فيما وقع، ويستبعد روض الأمير الأغلبى لأوامر الخليفة العباسي . انظر : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ ، مادة بني الأغلب ص ٢٢٦ .

٧٥- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٥١ .

- Biquet : Histoire de l'Afrique Septentrionale. p. 60 .

٧٦- Vondenheyden . Op. cit. p. 32 .

٧٧- الطباق : الحلة السيرة ص ٤١٩ .

٧٨- عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص ١٤ .

٧٩- مروج الذهب ص ٥٠٠ .

وأبيض ، ومائة وخمسين جارية، ومائة من الخيل العربية». ولا يخالفنا ريب في أن الأمير الأغلبى كان يطمع في مؤازرة الخليفة، عن طريق جيش يوقف تقدم الشيعة الذين نجحت جيوشهم في الاستيلاء على كثير من قلاع إفريقية وحصونها ، لكن الخلافة العباسية لم يكن بوسعها تجنيد قوات تحارب في المغرب ، فاكتمت المكتفى بإرسال الرسل يحضون سكان إفريقية على الاستبسال في حرب الشيعة^(٨٠). وتوفي المكتفى عام ٢٩٥هـ دون أن يحقق رجاء زيادة الله، وخلفه أخوه المقتدر بالله^(٨١). وضاعت نداءات زيادة الله إلى المقتدر، فلم تجد الهدايا والأموال الطائلة التي أرسلها إليه للقيام بعمل حاسم في بلاد المغرب. والواقع أن الخلافة كانت تود إنقاذ أتباعها في المغرب، لكنها - بسبب مشاكلها - وقفت مكتوفة الأيدي أمام تقدم الزحف الفاطمي، كما أن نزاعاً جرى في البيت العباسي أدى إلى عزل المقتدر وتولية المعتز، ثم عودة المقتدر، وعزله ، وتولية أخيه القاهر، ثم عودته من جديد إلى الخلافة^(٨٢)، مما حال دون مجرد التفكير في تقديم العون للأغلبية .

ولما أدرك زيادة الله الثالث استحالة مقاومة الشيعة، جمع أمواله وفر هارباً إلى المشرق، وأثناء وجوده في مصر تخلى عنه بعض غلمانه ، وانحازوا إلى واليها عيسى النوشري ، ولم يعودوا إليه إلا بعد أن أمر المقتدر النوشري بإخلاء سبيلهم^(٨٣)، وتوجه زيادة الله قاصداً الرقة آملاً أن يلقي الخليفة ، غير أن الوزير ابن الفرات أمره بالانتظار ريثما يأذن المقتدر^(٨٤). وقد ضن الخليفة على الأمير الأغلبى بالمقابلة ، وأمره بالعودة إلى مصر حيث يستطيع واليها أن يمهّد بالأموال والسلاح لاسترجاع ملكه، والحق أن الخليفة قد فقد الأمل في استرداد إفريقية بعد أن علم بفساد سيرة زيادة الله، وتخلى رجاله عنه، وانصرفه إلى اللهو والعبث.

ويسقوط دولة الأغلبية ، زال النفوذ العباسي من المغرب كله.

٨- البيان المغرب ج١ ص ١٨٩ ، ٢ . p. 71. Fournel Op. cit.

٨١- صبح الأعشى ج٣ ص ١٦١ .

٨٢- نفسه ص ١٦١ .

٨٣- نهاية الأرب ج٢٢ ورقة ٤٤ .

٨٤- العبر ج٤ ص ٢٠٧ .

(ج) العلاقات الاقتصادية :

ليس من شك في أن العلاقات الودية بين الخلافة العباسية والأغالبة، ساعدت على ازدهار النشاط الاقتصادي بينهما، فالعلاقات السياسية بين بغداد والقيروان صحبتها علاقات اقتصادية ومعاملات مالية مستمرة . وقد تأثرت الأحوال والنظم الاقتصادية في إفريقية في عهد الأغالبة بنظيرتها في بغداد، كما أن الخلافة العباسية حرصت من جانبها على دعم الأحوال الاقتصادية في إفريقية لتتمكن من القيام بالأعباء السياسية التي نيبت بها .

وفي نفس الوقت لم يتقاعس الأغالبة عن الوفاء بالتزاماتهم المالية حيال بغداد، فالأمير ابراهيم بن الأغلب تعهد للرشيد بأن يدفع أربعين ألف دينار سنوياً (٨٥)، ودأب خلفاؤه من بعده على دفع هذا المال، وليس ثمة ما يشير إلى تردد الأمراء الأغالبة أو امتناعهم عن دفع هذه الأموال بانتظام . وقد أنشئ في بغداد ديوان خاص بالمغرب (٨٦) للإشراف على العلاقة المالية بين الخلافة والإمارة ، وهو دليل لاشك فيه على استمرار أمراء الأغالبة في وقائهم بما تعهد به ابراهيم بن الأغلب لهارون الرشيد . لكن وجود مثل هذا الديوان لا يعني ارتباط إفريقية بما ارتبطت به الولايات العباسية من جبايات مالية أو عينية ، يدل على ذلك أن القائمة التي أوردها قدامة بن جعفر (٨٧) عن الولايات التابعة للخلافة ومقدار ما عليها من جباية خلت من ذكر إفريقية.

وقد تفانى الطرفان في تقديم المساعدات العينية والمالية كلما سنحت ظروفهما ، فبعثت الخلافة بالأموال إلى ابراهيم بن الأغلب ليستعين بها على مواجهة قتنة عمران بن مخلد عام ١٩٤ هـ (٨٨)، وبفضلها تمكن ابراهيم من دفع أعطيات الجند وقمع الفتنة ، كما بعث الخليفة المتوكل الأموال إلى أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب لتوزيعها على المنكوبين من ضحايا الزلزال الذي حدث بالبلاد في عام ٢٤٥ هـ (٨٩). ولم يقتصر الأمراء الأغالبة على ما كانوا

٨٥- الكامل ج ٥ ص ١٠١ .

٨٦- الصائبي : رسوم دار الخلافة ص ٢٩ ، ميتز الحضارة الإسلامية، ج ١ ص ١٢٤ .

٨٧- الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٤٩ وما بعدها ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٩٢ .

٨٨- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٨ .

٨٩- الكامل ج ٥ ص ٢٩٨ . . . p. 31 . Vonderheyden , Op. cit .

يرسلون من إتاوة سنوية للخلافة ، بل دأبوا على تقديم الهدايا والأموال إلى الخلفاء ، فقد بعث الأمير زيادة الله الثالث إلى الخليفة المقتدر « عشرة آلاف مثقال، فى كل مثقال منها عشرة مثاقيل »^(٩٠).

وفى هذا الجزو الودى كان من الطبيعى أن تزدهر التجارة بين إفريقية والعراق، ومما ساعد على هذا الازدهار سهولة الاتصال بين الإقليمين برًا وبحرًا ، يذكر ابن خرداذبة^(٩١) أن الطريق بين بغداد والمغرب كان معبدا مأمونا ، فكانت القوافل تخرج من بغداد وتقر بالأنبار وهيت والرقّة وحران والرها وتل موزن والخابور وحلب وقنسرين وحمص ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والإسكندرية ، ومنها إلى برقة فالقبروان. وجدير بالذكر أن هذا الطريق البرى هو الذى سلكته قوافل البريد^(٩٢) فضلا عن التجار ورسل الخلفاء والأمراء الأغالبة. أما الطريق البحرى فأصبح آمنا بعد تداعى السيادة البيزنطية فى البحر الأبيض المتوسط بعد سنة ٢١٢هـ، وظهور بحرية الأغالبة وسيطرتها على الملاحة فى المنطقة الوسطى منه، فقد غدت موانئ مصر والشام مهياة تماما لاستقبال السفن الأغلبية ، وأصبحت القوى الثلاث- فى مصر والشام وإفريقية - تسيطر على التجارة العالمية بين الشرق والغرب^(٩٣)، ولا غرو فقد أظهر العباسيون آنذاك اهتماما غير عادى بالنواحي البحرية، قتل فيما أمر به الخليفة المعتصم من بناء السفن لحماية سواحل الشام^(٩٤).

وساعد على رواج التجارة أيضا ما عم العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى من تقدم فى الزراعة والصناعة، ووفرة فى إنتاج المحاصيل والسلع بدرجة جعلت التبادل التجارى أمرا ضروريا . وتفيض كتب الجغرافيين^(٩٥) والرحالة فى وصف المزارع المزدهرة وما تنتجه من غلات متنوعة، والمناجم وما يستخرج منها من معادن ومراكز تصنيعها فى الشام ومصر والعراق، كما تزخر بالحديث عما شهدته إفريقية من امتداد الرقعة الزراعية- بفضل اهتمام الأغالبة بتوفير

٩٠- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٥ .

٩١- المسالك والممالك ص ٧٢ وما بعدها .

٩٢- قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

٩٣- لويس : القوى البحرية ص ١٩٨ ، ٢٤٢ . Vonderheyden : Op. cit. p. 242

٩٤- لويس : نفس المصدر ص ٢٢٥ .

٩٥- أنظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٢ وما بعدها .

المياه^(٩٦) - وزراعة محاصيل جديدة، وعما غصت به مناجمها من معادن الحديد والفضة والرصاص ، وتقدم الصناعة والتخصص فيها حتى أن كل مدينة أو إقليم اشتهر بنوع معين من الصناعات، كما حفلت السواحل بمصايد الأسماك والإسفنج والمرجان^(٩٧).

لذلك تألفت مراكز التجارة في الشرق الإسلامي في بغداد والإسكندرية ودمشق، وزاد من أهمية بغداد التجارية كونها حاضرة للعالم الإسلامي كله^(٩٨). كما انتعشت طرابلس وبيروت وصور^(٩٩)، وكذلك ازدهرت القيروان وأصبحت أعظم المراكز التجارية في غرب البحر الأبيض المتوسط، وأيضاً تونس وقوصرة وقفصة وبجاية والأريس وسوسة. وعرفت رقادة بالأسواق والفنادق والقصور^(١٠٠)، وكذلك العباسية^(١٠١). وإذا كانت بغداد ودمشق والإسكندرية قد عرفت نظام الأسواق المتخصصة^(١٠٢)، فلاشك في أن القيروان شهدت مثل هذه الأسواق منذ أيام يزيد بن حاتم^(١٠٣)، وغص طريقها الرئيسي بالتاجر ودور الصناعة^(١٠٤). ويحدثنا المالكي^(١٠٥) عن حوانيت الرقائين والكتافين وتجمعها في مكان واحد حيث عرفت «بالحوانيت الجدد».

وقد صدر الأغلبية القمح إلى الإسكندرية والرقيق الأسود إلى بلاد الشام، كما صدروا النسيج والأبسطة والأقمشة الفاخرة إلى بغداد^(١٠٦) واستوردوا ماء الورد الذي اشتهرت به مدينة جور^(١٠٧)، وتعلموا زراعة المحاصيل المشرقية كالقطن وقصب السكر^(١٠٨).

٩٦ - Vonderheyden , op. cit. p. 342 .

٩٧ - الإدريسي : صفة المغرب ص ١١٥ وما بعدها .

٩٨ - حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٢٩ .

٩٩ - لويس : القوي البحرية والتجارية ص ٢٥٩ .

١٠٠ - المغرب ص ٢٧ :

١٠١ - نفسه ص ٢٨ .

١٠٢ - حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٢٠ .

١٠٣ - البيان المغرب ج ١ ص ٩٣ .

١٠٤ - المغرب ص ٣٥ .

١٠٥ - رياض النفوس ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

١٠٦ - ابن خلدون : المقدمة ص ١٨١ .

١٠٧ - حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٣٢٥ .

١٠٨ - Heyd : Histoire du commerce . Vol, I. p. 50 .

وليس من شك فى أن تحكم الأغالبة والعباسيين فى التجارة العالمية فى ذلك الحين، وقيام الأغالبة بدور الوساطة التجارية، أدى إلى رخاء اقتصادى تمتعت به المدن والموانئ الإسلامية فى البحر الأبيض المتوسط، فقد شهدت حلب ودمشق وبيت المقدس رخاء عظيمًا (١٠٩)، والأرقام تدل على ما كانت عليه من ثراء عريض، ففي عام ٢٩٦هـ بلغ دخل سورية ثمانية وثلاثين مليون درهم (١١٠). وليس يخفى ما كانت عليه كل من بغداد والإسكندرية من أحوال اقتصادية مزدهرة، وما جناها الأغالبة من ثروات طائلة، ظهرت آثارها فيما أقاموه من منشآت وعمائر بإفريقية. وليس أدل على ذلك الرخاء المادى من ذبوع الدينار الذهبى العباسى، واستخدامه فى المعاملات التجارية بين هذه البلاد، وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على «الارتباط التجارى بينهما داخل وحدة اقتصادية واحدة» (١١١).

وثمة حقيقة على جانب كبير من الأهمية، وهى أن النظم المالية فى إفريقية قد تأثرت بالعملة العباسية، فإبراهيم بن الأغلب ضرب عملة خاصة جيدة القيمة ليدفع منها راتب الخلافة السنوى، كما ضرب زيادة الله الثالث عملة خاصة للخليفة المقتدر (١١٢)، ونقشت أسماء الخلفاء وأبنائهم على كثير من عملة الأمراء، وليس بغريب أن تنقش أسماء بعض أمراء الأغالبة على دنانير العراق إلى جانب أسماء الخلفاء (١١٣)، وكانت وظيفة «متولى الضرب» التى وجدت فى إفريقية الأغلبية (١١٤) تقليدا لما عرفتته العراق، ونجد الكثير من أسماء هؤلاء

١٠٩- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٩ ، . Heyd: Op. cit, p. 43 .

١١٠- لويس : نفس المصدر والصفحة .

١١١- نفسه ، ص ٢٦١ .

١١٢- نقش زيادة الله على هذه العملة البيتين الآتين :

يا سائرا نحسو الخليفة قل له إن قد كفاك الله أمرك كله

بزيادة الله بن عبد الله سيف الله من دون الخليفة سله

أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٥ . لكن الأثرين لم يعشروا على شىء من هذه العملة . انظر :

De Candia : Op. cit. p. 275 .

١١٣- الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

١١٤- Vonderheyden : Op. cit. p. 171 .

الموظفين منقوشة على العملة الأغلبية (١١٥)، كما شاعت نفس الأساليب المصرفية التي ازدهرت في العراق (١١٦).

وعرفت إفريقية نظام الدواوين ، فيذكر ابن الأثير (١١٧) أنه في عام ٢٣١هـ اشتدت فتنة أحمد بن الأغلب حين ثار على أخيه الأمير محمد ونقل الدواوين إليه، ومن أهم هذه الدواوين ، ديوان الخراج، وكان صاحبه من الشخصيات المرموقة في دولة بنى الأغلب ، فقد حرص الأمراء على اختيار «صاحب الخراج» ممن يثقون به (١١٨). كما عرف الأغلبية أيضا ديوان «الخاتم» وغالبا ما كان هذا الديوان يسند إلى الوزير ، إذ أسند ابراهيم الثانى إلى ابنه عبدالله الوزارة والخاتم (١١٩). ومن الدواوين أيضا «ديوان العطاء» (١٢٠)، وكذلك «دار الطرز» (١٢١) التي كانت تنتج ما يرسله الأمير من الكساوى والإنعامات إلى مشاهير رجال الدولة في المناسبات. ودخل نظام الحسبة إلى إفريقية الأغلبية فكانت الدولة تشرف على الأسعار ، وعلى مستوى الإنتاج وأحوال الصناعة (١٢٢). كما عرف الأغلبية أيضا نظام العسس (١٢٣).

وكان للأغلبية نفس النظم الإدارية ، وكان بلاطهم صورة صادقة لبلاط الخلفاء العباسيين (١٢٤) فقد عرفت إفريقية الأغلبية نظام الوزارة (١٢٥)، واتخذ معظم الأمراء وزراهم

١١٥- من هؤلاء موسى الذى تولى هذه الوظيفة فى عهد ابراهيم الأول، ومسروق فى عهد زيادة الله الأول، وخلف فى عهد محمد الأول.

أنظر : Lavoix : Op. cit vol . 2 . p. 364 . ff

١١٦- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٦٣ .

١١٧- الكامل ج ٥ ص ٢٧٥ .

١١٨- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٨ . ، Vonderheyden : Op. cit. p. 171 .

١١٩- ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٦٠ .

١٢٠- نفسه ص ١٥٨ . . Vonderheyden : Op. cit. p. 173 .

١٢١- ابن عذارى : ص ٢٠٠ .

١٢٢- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٣ .

١٢٣- الكامل ج ٦ ص ١٠٤ .

١٢٤- Vonderheyden : Op. cit. p. 126 .

١٢٥- الكامل ج ٦ ص ٧٠ .

من أفراد الأسرة أو ممن يشقون بهم من العناصر الموالية للبيت الأغلبى، كما عرفت أيضا نظام «الحجاجة» ، ومن أهم حجاب الأغلبية أحمد بن محمد بن قزح حجاب إبراهيم بن أحمد وقائده المعروف (١٢٦)، ووجدت وظيفة «صاحب البريد» ، وكان ابن الصايغ يجمع بين البريد وبين الوزارة فى عهد زيادة الله الثالث (١٢٧).

(د) أثر بغداد فى الحياة الثقافية بالقيروان :

نجم عن صلات الود بين الأغلبية والعباسيين تألق فى الحياة الثقافية وفى الفن الإسلامى فى إفريقية، فاتجه المغاربة إلى بغداد يتلقون عنها ضروب العلم والمدنية، وانعكست حضارة العباسيين على البلاط الأغلبى الذى كان فى رونقه ورسومه وأبهته صورة مصفرة لبلاط بغداد وسامرا (١٢٨).

وإذا كانت حضارة إفريقية الأغلبية قد تأثرت بمؤثرات أخرى تنتمى إلى عالم البحر المتوسط (١٢٩)، أو تستمد قوامها من الأصول البيزنطية القديمة، إلا أنه من السهولة بمكان تمييز المؤثرات العباسية فيها واضحة جلية. ولم تترك مدرسة بغداد أثراً كبيراً فى النواحي المتعلقة بالفقه وعلوم الشريعة التى شهدتها مدرسة القيروان (١٣٠)، فلم يستطع المغاربة استيعاب النشاط الفكرى المتألق فى عاصمة الخلافة، ذلك النشاط الذى ازدهر نتيجة الاطلاع على الفكر اليونانى وتأثره بالمنطق الأرسطى إلى أبعد الحدود. ولعل ذلك يفسر إقبال المغاربة على مذهب مالك الذى يلتزم بالكتاب والسنة وأعمال الصحابة والتابعين ، ولا يميل إلى الاجتهاد والقياس كما هو الحال بالنسبة للمذهب أبى حنيفة (١٣١). ونظراً لإقبال فقهاء الحنفية فى المغرب على أصحاب الأمر والسلطان، والتماسهم الرخص والتيسيرات عن طريق التأويل والقياس

١٢٦- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٨ .

١٢٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٣ .

١٢٨- Vonderheyden : Op. cit . p. 326 .

١٢٩- Ibid . p. 324 .

١٣٠- ابن خلدون : المقدمة ص ٤٤٩ .

١٣١- نفس المصدر ص ٥٠ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٩٣ .

البعيد (١٣٢)، كان المالكية بالمغرب أكثر الناس عنفا في مقاومة آرائهم، وكذلك آراء المعتزلة والقدرية والخوارج (١٣٣). وبالرغم من جهود فقيه كأسد بن الفرات الذي عرف بتبحره في العلوم على اختلافها (١٣٤)، واستيعابه لآراء أبي حنيفة؛ فلم يقدر لمذهب أهل العراق رواجاً في إفريقية الأغلبية بل «محيت كتب أبي حنيفة من إفريقية على يد سحنون» (١٣٥).

كذلك نشطت الرحلات العلمية بين بغداد والقيروان إذ رحل الكثير من علماء المشرق إلى إفريقية، ووجد من العراقيين من درس العلم فيها، كعبد الرحمن بن عبيد البصري الذي تتلمذ على يديه الكثيرون من طلبة إفريقية الوافدين إلى القيروان (١٣٦). كما شهدت بلاد المغرب الرحالة والجغرافيين المشاركين الذين وفدوا للمشاهدة والدراسة، ومن هؤلاء اليعقوبي المتوفى عام ٢٨٢هـ صاحب كتاب البلدان (١٣٧).

وغصت مدارس الكوفة والبصرة وبغداد بالكثيرين من الطلبة المغاربة وكذلك الشعراء، والعلماء والفقهاء، ومنهم من نال صيتاً ذائعاً في المشرق كالفقيه عبدالله بن محمد بن سعيد الذي أخذ عن محمد بن شجاع البلخي وغيره، وأجاد أساليب المناظرة على طريقة أهل العراق (١٣٨)، وكان الفقيه محمد بن زرزور عالماً بمذاهب أهل الكوفة وجميع الأقاويل (١٣٩).

وتركت المؤثرات الثقافية العراقية آثاراً واضحة على نظم الدراسة ومناهجها في إفريقية فقد جرى نظام الدراسة على ما عرف في العراق من حلقات الطلاب وأساتذتهم، كما اتبع أيضاً منهج التخصص في الدراسات الإسلامية، كدراسة المغازي والشرعة والنحو والفقه والحديث. ومن أشهر أساتذة مدرسة القيروان في هذا الصدد أسد بن الفرات، وسحنون،

١٣٢- رياض النفوس، المقدمة ص ١٣.

١٣٣- أبو العرب قيم: طبقات علماء إفريقية ص ١٠٢، حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٩٣.

١٣٤- رياض النفوس ص ١٨١، ابن خلدون: المقدمة ص ٤٥.

١٣٥- المالكي: المرجع السابق ص ١٦٥، حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٩٣.

١٣٦- ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة ج ١ ص ٢٠٠.

١٣٧- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٤٠٤.

١٣٨- معالم الإيمان ج ٢ ص ١٥٥.

١٣٩- رياض النفوس ص ٤١٤.

وأبى محرز ، ومحمد بن سحنون ، ومحمد بن عبدوس وغيرهم ممن انتهجوا نهج المعاصرين فى المشرق كالبخارى ومسلم^(١٤٠).

ومن المعروف أن الفن الإسلامى شهد تطوراً ملحوظاً فى العصر العباسى ، وبلغ الطراز العباسى أوجه فى مدينة سامرا فى القرن الثالث الهجرى ، وحين دب إليه الضعف نتيجة الاضطراب السياسى ، حملت الدول المستقلة لواءه وطورته وأصبحت لها أنماطها الفنية المستقلة^(١٤١). ومن الطبيعى أن تتأثر الفنون والعمارة فى إفريقية تأثراً واضحاً بالأنماط الفنية بالرقعة وبغداد وسامرا ، إذ لم يكن من الممكن أن ينفرد الأغلبية -بإحدى الأمر- بطابع مستقل فى الفن ، منفصل عن الطابع العباسى^(١٤٢) ولكنهم ما لبثوا أن اتخذوا أسلوباً مستقلاً أخذ ينمو ويتطور ، وظهرت آثاره فيما بعد على فنون قرطبة ، وفاس والمهدية^(١٤٣). وكان الفن الأغلبى متأثراً أيضاً بمؤثرات بيزنطية ورومانية ، وبخاصة فى المعادل والحصون التى أقامها الأمراء للدفاع عن المدن^(١٤٤) ، واختلطت هذه الأنماط بالطابع العباسى ، حتى أصبح من العسير التمييز بين ما هو وارد من المشرق وما هو مسيحى وبيزنطى^(١٤٥). ومع ذلك ظهر الطابع العباسى بشكل واضح فى الكثير من المنشآت الأغلبية كالقصور ، وقناطر المياه ، والمواجل ، وفى الأبنية المشيدة بالأجر الذى لم يكن معروفاً لدى البيزنطيين أو الرومان^(١٤٦). وفى تسمية الأغلبية لكثير من منشآتهم بأسماء عباسية^(١٤٧) - كمدينة العباسية التى أقامها إبراهيم الأول ، وقصر بغداد الذى أقام فيه زيادة الله الثالث حين استفحل خطر الشيعة - ما ينهض دليلاً على أن الفن الأغلبى كان متأثراً بالتقاليد العباسية . كما أن فن التصوير والزخرفة المشرقى وجد طريقه إلى العمارة الأغلبية فأيات القرآن المكتوبة بالخط الكوفى على جدران جامع الزيتونة بتونس^(١٤٨) ، والتى تعد معجزة فى فن الزخرفة الإسلامية ، دليل ناصع على

١٤٠- Vonderheyden : Op . cit. pp. 126 , 127 .

١٤١- زكى حسن : فنون الإسلام ص ١٣ .

١٤٢- حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤٨ .

١٤٣- زكى حسن : المرجع السابق ص ٤٤٩ ،

١٤٤- Terrasse L' Art Hispano - Mauresque . p. 40 .

١٤٥- Brunschvig : La Tunisie dans le haut moyen age . p. 19 .

١٤٦- Terrasse : Op. cit . p. 401 .

١٤٧- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

١٤٨- البكرى : المغرب ص ١٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠ ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب

الكبير ج ٢ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

هذا التأثير . بل كما الأغلبية يستوردون أعمالاً فنية جاهزة من بغداد ، كاللوحات القاشانية التي تزين محراب جامع سيدى عقبة ^(١٤٩)، وعددها نحو مائة وأربعين بلاطة، تعد من أبدع ما أنتجه الخزفيون فى العصر العباسى، ويلاحظ أنه ضمن زخارفها توجد علامات على شكل حروف كوفية مزخرفة ، وقد جلبت هذه اللوحات من بغداد للأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبى فيما بين عامى ٢٤٢ و ٢٤٨ هـ ^(١٥٠).

كما استورد الأغلبية أيضا بعض الخامات كخشب الساج الذى يستخدم فى عمل المنابر ^(١٥١)، وقد صنع منبر جامع سيدى عقبة من خشب ساج جلب من بغداد فى عام ٢٤٨ هـ، ويعد هذا المنبر من أبدع التحف الخشبية فى فجر الإسلام ^(١٥٢)، ويدل على نقلة فى تاريخ الفن إذ يمثل تطوره من الطراز الأمري إلى الطراز العباسى ^(١٥٣) وعمل فنانون من العراق فى خدمة الأمراء الأغلبية لإقامة المنشآت وما يتصل بها من نحت وزخرفة ، ونقش وحفر ^(١٥٤). ووجد من الصناعات فى إفريقية الأغلبية ما كان متأثرا بنظائرها فى العراق ، كصناعة الخزف ^(١٥٥) التى ازدهرت ، وتفوقت على الخزف العراقى نفسه ^(١٥٦). ولعل هذا التأثير الكبير للطرز العباسية فى العمارة والفنون الأغلبية ، هو الذى حدا بجورج مارسيه إلى القول بأن «الموالى لعبوا دوراً هاماً فيما شيده الأغلبية من منشآت فى إفريقية» ^(١٥٧).

١٤٩- معالم الإيمان ج ٢ ص ٩٧ . ، p. 99 . vol. 2 . Huart : Histoire des Arabes , ,

١٥٠- زكى حسن : فنون الإسلام ص ٦١ . ويرى الدكتور أحمد فكرى أن ما استقدم من بغداد هو القراميد القيشانية التى تكسو جدران القبلة وتحيط بعقد المحراب .

أنظر : مسجد القيروان ص ١٢٩ .

١٥١- البيان المغرب ج ١ ص ١٤٨ .

١٥٢- زكى حسن : فنون الإسلام ص ٤٤٤ .

١٥٣- نفسه ص ٤٤٦ .

١٥٤- معالم الإيمان ج ٢ ص ٩٧ .

١٥٥- Terrasse : Op. cit. p. 177 .

١٥٦- Vonderheyden : Op. cit. p. 242 .

١٥٧- Idris : Contribution d'histoire de l'ifrikiya - Revue des études islamiques, 1935 , p. 174 .

ثانيا : العلاقات بين مصر وإفريقية

(١) العلاقات السياسية :

ظلت مصر على صلات وثيقة بالمغرب طوال الحكم البيزنطى بفضل موقعها الجغرافى ، وسهولة الاتصال البرى والبحرى بينها وبين تلك البلاد . وازدادت هذه الصلات أهمية وتوطدا بعد ظهور الإسلام ، فمن مصر انطلقت الحملات المتتالية لفتح المغرب^(١) ، ولا يمكن إنكار الجهود التى بذلها ولايتها فى قيادة هذه الحملات أو إسناد قيادتها إلى رجالهم . فمسلمة بن مخلد- وهو أول ولاية مصر الذين حكموا مصر والمغرب^(٢) - وجد حسان بن النعمان ومن بعده أباه المهاجر دينار للاضطلاع بمهمة الفتح ، ولم تكن فتوحات عقبة بن نافع وزهير بن قيس البلوى إلا من قبل الواليين سعيد بن يزيد^(٣) وعبد العزيز بن مروان^(٤) . كما ساهمت مصر بأموالها فى تمويل هذه الفتوحات ، فقد أطلق الخلفاء الأمويون أيدى قواد هذه الحملات فى أموال مصر لتوزيعها على العسكر^(٥) .

ولم تخرج بلاد المغرب عن تبعيتها لمصر إداريا إلا بعد عام ٨٦هـ حين أرسل عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير ليحكم المغرب من القيروان بدلا من حسان بن النعمان^(٦) ، ومنذ ذلك الحين أصبح ولاية المغرب على صلة مباشرة بالخلافة^(٧) . ومع ذلك ، فمن الملاحظ أن غالبية ولاية المغرب فى عصر الولاية كانوا ممن تولوا حكم مصر من قبل ، كعبيد الله بن الحبحاب وحنظلة بن صفوان وغيرهما .

١- فتوح البلدان ص ٢٦٧ .

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٧ ، البلاذرى : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

٣- النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٦ .

٤- فتوح البلدان ص ٢٧٠ .

٥- البيان المغرب ج ١ ص ٢٢ .

٦- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ٢٠٣ ، ابن عذارى ، المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

٧- سيلة الكاشف : مصر فى عصر الولاية ص ٢٥ ، ٢٦ .

وأسهمت مصر فى أحداث المغرب بقمع ثورات الخوارج ، فمحمد بن الأشعث- والى مصر- هو الذى قمع ثورات البربر سنة ١٤٢هـ ، ومحمد بن عبد الرحمن - والى مصر- هو الذى جهز يزيد بن حاتم «بالأموال والخيول والسلاح والرواتب» سنة ١٥٥هـ ، ويفضلها تمكن يزيد من تمهيد المغرب وإصلاح أموره^(٨) وفضلا عن ذلك فقد كانت مصر ترسل معونة مالية سنوية قدرها مائة ألف دينار لتغطية نفقات ولاية المغرب، ولم تنقطع هذه المعونة إلا بقيام دولة الأغالبة.

ولما ظهر الأغالبة ، تابعت مصر دورها السابق فأزرتهم فى مواجهة مشاكلهم الداخلية بتوجيه من الخلافة العباسية التى لم تستطع إرسال المساعدات مباشرة، فكانت تسند إلى والى مصر هذه المهمة . ويفضل أموال مصر تم القضاء على ثورة عمران بن مخلد الذى حاصر إبراهيم بن الأغلب فى مدينة العباسية^(٩) وكاد أن يقضى عليه، وفى سنة ١٨٧هـ استعان إبراهيم بن الأغلب بوالى مصر أحمد بن إسماعيل لما قرء أهل طرابلس «فأمداه بالعساكر، وتوجهوا إليه ثم عادوا»^(١٠).

وإذا كان الأمراء الأغالبة قد قبلوا مساعدة ولاية مصر عن طيب خاطر ؛ فإنهم رفضوا أن يكونوا أتباعا لهم، فلم يرض زيادة الله الأول بالتبعية لوالى مصر عبدالله بن طاهر ، وخالف الخليفة المأمون فى هذا الشأن. فقد كان أمير القيروان يارس سلطانا أوسع نطاقا بوصفه أميراً مستقلا، ولذلك لم يكن من المعقول أن يستجيب لطلب الخليفة العباسى بشأن تبعيته لوالى مصر.

ويبدو أن ولاية مصر كانوا ينفسون على الأمراء الأغالبة مكانتهم الفريدة ، وإلا فما تفسير أيوائهم لبعض المناوئين لحكم زيادة الله الأول؟ يذكر النويرى^(١١) أن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ومحمد وإبراهيم ابنى عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب هربوا من إفريقية بعد موت

٨- ابن تغرى بردى: المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤ .

٩- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٨ ، . L p. 468 . Fournel : les Berbers . vol . I .

١٠- النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

١١- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٢ .

أبى العباس عبدالله وتولية زيادة الله- خوفا من بطشه- وأقاموا بمصر. ومما يحملنا على هذا الاعتقاد إقدام زيادة الله الأول على قتل عمرو بن معاوية القيسى ولديه- وكانوا قد خرجوا عليه- ولم يعر أقوال أعوانه اهتماما حين خذروه غضب القيسية فى مصر عليه^(١٢).

قصارى القول ؛ أن علاقات الأغالبة بمصر فى عصر الولاة اتخذت طابعا وديا بوجه عام، مجاراة لسياسة الأغالبة الخارجية المتأثرة أصلا بالولاء للخلافة العباسية ، وحسبنا عدم وقوع ثمة ما يشير إلى عدا ء صريح بين ولاة مصر العباسيين وبين حكام القيروان^(١٣).

وقد تغيرت طبيعة هذه العلاقات بعد استقلال أحمد بن طولون بمصر سنة ٢٥٤هـ، حقيقة أنه تولى حكمها من قبل الخليفة المعتز، لكنه عول من بادئ الأمر على الاستقلال بها ، ولم يسفر أحمد بن طولون عن مشروعاته فى الاستقلال فجأة. بل أثر تحقيقها على خطوات متتابعة تضمن له التحكمين لنفسه فى مصر أولا ، ثم الاتسلاخ بها عن سلطان الخلافة الفعلى^(١٤)، وبالفعل حقق ابن طولون أهدافه فى أيام الخليفة المعتمد^(١٥) ودخل فى صراع طويل مع الموفق- أخى الخليفة- وصاحب السلطان الفعلى فى بغداد^(١٦).

وباستقلال أحمد بن طولون بمصر ، انتهت مرحلة العلاقات الودية بين مصر وإفريقية . حقيقة أن الأغالبة لم يفكروا جديا فى القيام بعمل عسكري موجه إلى مصر الطولونية، لانصرافهم إلى محاربة القوى المعادية فى البحر المتوسط ، وبديهي أيضا أن أحمد بن طولون لم يكن يهدف إلى القيام بعمل عدائى ضد إفريقية ، والدخول فى صراع مع الأغالبة^(١٧)، لانصرافه إلى بلاد الشام والثغور التى استحوذت على جل اهتماماته. ومع ذلك اتسمت

١٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

١٣- Vondrehyden , la Berberie Orientale . p. 34 .

١٤- صبح الأعشى ج ٣ ص ٤١ ، حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص ١٨ .

١٥- النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦ .

١٦- أنظر : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٧٩ وما بعدها ، Brockelman : history of the Islamic people . pp. 138 -140 .

١٧- Zaki Hassan : les Tulunids. p. 160 .

العلاقات بين الطرفين بروج العداء، فقد لجأ كل من الطولونيين والأغالبة إلى الكيد لبعضهما البعض عن طريق إثارة القلاقل على الحدود المشتركة. يفسر ذلك قيام الثائر المفرج بن سالم بالثورة على أمير القيروان، واستيلائه على أربعة وعشرين حصناً بمنطقة الأرض الكبيرة- التي تبعد عن برقة بنحو مسيرة خمسة عشر يوماً نحو الغرب- وطلب أن يكون تابعاً لأحمد بن طولون^(١٨). ويبدو أن الأغالبة ردوا على ذلك بإثارة سكان برقة- التابعة لمصر^(١٩)- ضد ابن طولون، مما دفع الأخير إلى إرسال غلامه لؤلؤة على رأس جيش لتأديب الثوار، فردعهم بالقسوة، «وقبض على جماعة من رؤسائهم، وضربهم بالسياط، واستعمل على برقة عاملاً»^(٢٠)، وقد حدث ذلك سنة ٢٦١هـ. وظلت برقة تابعة للطولونيين^(٢١)، ولم تدخل على الإطلاق في نطاق دولة بنى الأغلب^(٢٢)، ووقف النفوذ الطولوني لايتعداها صوب الغرب. كذلك لم يفكر الأغالبة قط في بسط سلطانهم فيما وراء برقة شرقاً، ولذلك لم يهتموا بإنشاء الحصون والمحارس على حدودهم الشرقية^(٢٣)، وظل «قصر أحمد» الحد الشرقي للملك الأغالبة^(٢٤).

لكن محاولة من جانب الطولونيين بقصد غزو إفريقية قُتلت في حركة العباس بن أحمد بن طولون، ففي عام ٢٦٤هـ غادر أحمد بن طولون مصر متوجهاً إلى أنطاكية لحصار سيماء الطويل^(٢٥) الخارج عليه بالشام، واستخلف ابنه العباس على البلاد، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطي ليكون له «مديراً ووزيراً»^(٢٦)، لكن العباس وقع تحت تأثير جماعة من القواد

١٨- الكامل ج ٥ ص ٢٦٣ .

١٩- فتوح البلدان ص ٢٦٤ .

٢٠- الكامل ج ٦ ص ٥ .

٢١- ايشهون : ذكر بلاد المغرب ص ٨ ،

Fournel , Op. cit . vol I, p. 56 , Zaki Hassan : Op. cit . p. 70 .

٢٢- الاضطخري : المسالك والممالك ص ٢٣ .

٢٣- العبر ج ٤ ص ٤٣١ .

٢٤- صبح الأعشى ج ٥ ص ١٠٥ .

٢٥- النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٠ .

٢٦- الولاة والقضاة ص ٢١٩ .

الخائقين على والده فأغروه بالخروج^(١٧)، ومن هؤلاء على ابن ماجور وعبدالله بن طغيا وأحمد بن صالح الرشيدى وجعفر بن حذار الكاتب^(٢٨)، كما شجعه على الخروج إيقاع جماعة من النحاة والأدباء بينه وبين الوزير الواسطى . والحق أنهم كانوا مدفوعين فى ذلك بحقدهم الشخصى على الواسطى، وعلو مكانته عند ابن طولون ، ومن هؤلاء أحمد بن المؤمل ومحمد بن أزهر^(٢٩)، فاشتط العباس فى معاملة الواسطى والتضييق عليه، ولم يجد الواسطى مناصا من مراسلة والده بشأنه ، وكانت كتب الواسطى تبلغ العباس عن طريق محبوب بن رجا الذى اصطحبه أحمد بن طولون^(٣٠) معه إلى الشام . واطلع العباس كذلك على ردود والده عندما هاجم منزل الواسطى، فلما وقف عليها «اشتد خوفه من أبيه ، وساء ظنه به»، وقرر مغادرة مصر^(٣١). وجمع من الأموال ما بلغت قيمتها ألف ألف دينار، واقترض من التجار مائتى ألف، واصطحب الواسطى وأمين الاسود معه مكبلين بالأغلال^(٣٢).

توجه العباس إلى الإسكندرية سنة ٢٦٥هـ مظهراً عزمه على قتال الروم بعد أن استخلف أخاه ربيعة على القسطنطينية ، ومن الاسكندرية سار إلى برقة^(٣٣). ويذهب الدكتور زكى حسن^(٣٤) إلى أن العباس لم تراوده فكرة القيام بحملة توسعية على إفريقية ، بل تركز هدفه فى تأسيس إمارة مستقلة فى برقة . ويذهب آخرون^(٣٥) إلى تبييته النية على غزو إفريقية، والتوسع نحو الغرب ، وانتزاع القيروان من أيدي الأغالبة.

٢٧- يذكر الدكتور زكى محمد حسن أن هذه الجماعة كانت تعمل فى الخفاء لصالح الموفق العباسى عن طريق إثارة المتاعب الداخلية فى وجه ابن طولون . لكن لم يرد بالمراجع ما يشير إلى ذلك .

أنظر : Les Tulunides p . 68 .

٢٨- ابن الناية : : سيرة ابن طولون ص ٥٨ ، الولاة والقضاة ص ٢٢٠ .

٢٩- البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٣٦ .

٣٠- نفسه ص ٢٤٧ ، ابن الناية : المرجع السابق ص ٥٩ .

٣١- البلوى : ص ٢٤٨ .

٣٢- العبرج ٤ ص ٣٠١ .

٣٣- الولاة والقضاة ص ٢٢١ ، البلوى : المرجع السابق ص ٢٤٨ .

٣٤- Les Tulunides, p. 70 .

٣٥- أنظر : المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، كما ورد عند الباروتى : الأزهار الرياضية

ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ . . Op. cit , p. 270 . Vonderheyden :

والراجح أن العباس لم يفكر قط في الخروج من مصر إلا بعد تيقنه من انتقام والده عقب عودته من الشام، وذلك بعد إطلاعه على رسائل والده إلى الواسطي، فعول على الهرب، واستقر في برقة زمنا دون أن يتطلع إلى المغرب. بل إنه فكر في العودة إلى مصر حين وصلتته كتب والده التي يعده فيها بالعفو، ولم يردده عن العودة سوى تخويف أصحابه، بما سيحل به وبهم من نقمة أبيه، فزينوا له غزو إفريقية، وصوروا له قدرته على ذلك لما كان معه من مال وجند وعتاد، ولما كانت عليه إفريقية من اضطراب، فاستجاب لهم^(٣٦).

وسواء أكان غزو العباس لإفريقية نتيجة نية مسبقة، أو مرتعنا بتطور الأحداث التي جعلته يخشى العودة إلى مصر، فالذي يهمنا أن حدود دولة الأغالبة الشرقية تعرضت للخطر بشكل جدي من قبل مصر لأول مرة منذ قيامها. فقد كتب العباس إلى وجوه البربر يرغبهم في الانضمام إليه، واتحازت قلة منهم إلى جانبه. كما أرسل إلى إبراهيم بن أحمد يخبره «بأن المعتمد بالله أمير المؤمنين قلده أمر إفريقية» ويأمره «بالدعوة له»^(٣٧). ولم ينتظر العباس رد الأمير الأغلبى وهاجم حصن لبدة، وقبض على عامله الأغلبى، وأعمل فيه النهب والسلب^(٣٨)، فاستعانت طائفة من أهل الحصن بإلياس بن منصور النفوسى رئيس الإباضية، فاشترك^(٣٩) مع جيوش ابن الأغلب بقيادة ابن قهره عامل طرابلس فى التصدى لحملة العباس^(٤٠)، وأطبق عليه الجيشان فى معركة دارت الدائرة فيها على الجيش الطولونى وقتل

٣٦- ابن النديّة : المرجع السابق ص ١٠٥ ، البلوى : المرجع السابق ص ٧٧ ، الكامل ج ٦ ص ٢١ ، العبر ج ٤ ص ٣٠١ ، المقرئى: المخطوط ج ٢ ص ١١٤ ، نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٧ .

٣٧- البلوى : المرجع السابق ص ٥٣ .

٣٨- العبر ج ٤ ص ٣٠٢ .

٣٩- ليس ثمة ما يشير الدهشة فى اشتراك النفوسيين الإباضية - أعداء الأغالبة- فى التصدى لحملة العباس إلى جانب الجيش الأغلبى، إذا علمنا أن الخطر الطولونى هدد النفوسيين أيضا، ويظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى وجهها العباس إلى إلياس ابن منصور كبير نفوسة، حيث خاطبه فيها بقوله : «أقبل بسمعك وطاعتك ، وإلا وطبت بلك بخيلى ورجلى ...» فرد النفوسى على رسول العباس: «قل لهذا الغلام أنت أقرب الكفار منى واحقهم بمجاهدتى... وأنا على أثر رسالتى إليك». أنظر البارونى: الأزهار الرياضية ص ٢٥٨ . وخرج إلياس لملاقاته على رأس ألف وستمئة فارس . أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٧ .

٤٠- الكامل ج ٦ ص ٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٧ .

منه جمع غفير ، ونجى العباس بعد أن فقد «سواده وذخائره وجميع ما كان معه من المتاع والأموال والسلاح وما حصله من مصر»^(٤١).

ولامبالغة فيما يذكر^(٤٢) عن وفرة المغنم التي وقعت في أيدي الأغالبة ، إذ أنها أحدثت راجا اقتصاديا ملموسا في إفريقية، بعد أن كان إبراهيم بن أحمد الأغلب يعاني من الضائقة قبل التحام جيوشه مع العباس ، حتى اضطر أن «يضرب حلى نسائه دنائير ودراهم»^(٤٣) ليدفع منها رواتب الجند. ويؤكد المؤرخون أن النفوسيين لم يصيبوا شيئا من هذه المغنم زهدا منهم وتعففا ، فوقعت كلها في يد إبراهيم بن أحمد فتمكن من إصلاح حاله بأن أصدر عملة جديدة سميت «بالدنائير العشرية»^(٤٤)، ضاربا صفحا عن تدمير التجار لما أصابهم من خسارة^(٤٥). وبذلك وجد الأمير حلا للأزمة المالية التي ورثها عن الأمير أبي الغرائق^(٤٦).

وليس من شك في أن الكارثة التي لحقت بالجيش الطولوني أحدثت صدى سيئا في مصر، ويكفي أنها وضعت أحمد بن طولون في مأزق لامخرج منه، إذ أوقع هذا الحادث بينه وبين الأغالبة والنفوسيين ، ولم يكن في مقدوره الانتقام لما حل بالعباس ، ولم يكن يستطيع السكوت وإلا انتقص ذلك من شأنه ومكانته^(٤٧). فلم يجد ابن طولون بدا من أن يكتب إلى ابنه في برقة يوبخه ، ويأمره بالعودة . ورد عليه العباس مبررا مسلكه^(٤٨)، فعزم ابن طولون على المسير إليه بنفسه ، ولم يثنه عن عزمه سوى تهوين الواسطي من شأن العباس . وتوجه الواسطي بنفسه على رأس جيش لإحضاره^(٤٩) بالقوة، وتمكن من هزيمة العباس بالفعل ،

٤١- البلوى : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

٤٢- Vonderheyden : Op. cit . p. 250 , Zaki hassan : Op. cit . p. 160 .

٤٣- البيان المغرب ج ١ ص ١٥١ .

٤٤- نفسه ص ١٦١ .

٤٥- De Candia : Monnaies Aghlabites. 274 , Revue Tunisienne. 1935 .

٤٦- ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٥٨ .

٤٧- ابن الناية : ص ٦٢ .

٤٨- عن الرسالتين المتبادلتين بين أحمد بن طولون والعباس ، أنظر : البلوى من ص ٢٥٧ إلى ٢٦٤ .

٤٩- العبر ج ٤ ص ٣٠٢ .

وعاد به إلى مصر أسيراً^(٥٠) . وهكذا لم يقدر لحملة العباس أن تحقق أغراضها ، وسلمت إفريقية من الخطر الطولوني^(٥١).

وبعد حملة العباس بنحو ست سنوات ، تحركت من إفريقية حملة أغلبية نحو مصر ، لكنها عادت من حيث أتت دون أن تحقق أغراضها . والواقع أن المؤرخين اختلفوا حول أغراض هذه الحملة ودوافعها اختلافاً بينا . فبعضهم يعزوها إلى رغبة إبراهيم بن أحمد في التنكيل بالخوارج الإباضية بجبل نفوسة ، فيذكر الدرجيني^(٥٢) نقلاً عن أبي زكرياء^(٥٣) « بأن نفوسة كانوا أطوع برعايا الدولة الرستمية ، وأكثرها عوناً على الخير ، وأشدّها بأساً في النصر على الأعداء .. وانتشر الصيت عن نفوسة حتى اشتهر في بلاد المشرق عند ملوك المسودة لمكاتبات أهل القيروان ، وأهل مدينة طرابلس وغيرهم ، يعلمونهم أن دولة الرستميين أقامت نفوسة .. وكان ذلك في أيام المتوكل ببغداد ، فاهتز لذلك ، وتحرك إليه خاطره ، فوجه إليه عسكرياً في المغرب قاصداً تاهرت ، فلما قرب من طرابلس سمعت بخبره نفوسة ، فخرجوا إلى العسكر ينعونه السلوك إلى المغرب ، فلحقوه بموضع يقال له (مانوا) . فاقتتلوا قتالاً شديداً لم ير أشد منه بالمغرب ».

ويحدد ابن عذارى^(٥٤) هدف الحملة بعزم إبراهيم بن أحمد على قتل ابن عمه أبي العباس محمد بن زيادة الله حاكم طرابلس « لأن المعتضد العباسي كتب إلى إبراهيم بن أحمد يعنفه على سوء فعله بأهل تونس ويقول له : إن انتهيت عن أخلاقك هذه ، وإلا نسلم العمل

٥٠- البلوى : ص ٢٦٧ ، الطبرى تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٤٤ ، نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٧ ، المقرئى: الخطط ج ٢ ص ١١٥ .

٥١- يورد المؤرخ ميور : « أن أحمد بن طولون انتصر على إبراهيم بن أحمد الأغلبى الذى اتجه بمطامعه نحو مصر » . أنظر : The Caliphate p. 548 والواقع أنه لم يحدث قط أن التقى أحمد بن طولون بإبراهيم بن أحمد الأغلبى فى معركة ما ، ذلك أن الحملة التى قادها إبراهيم بن أحمد على مصر حدثت سنة ٢٨٣ هـ أى فى عهد هارون بن أحمد بن طولون ، ولم تلتق هذه الحملة البتة بجيوش طولونية.

٥٢- طبقات الإباضية ج ١ ورقة ٣٩ .

٥٣- كتاب السيرة ، وأخبار الأئمة ورقة ٣٣ .

٥٤- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

الذى بيديك لابن عمك محمد بن زيادة الله . ويفسر ابن عذارى احتكاك إبراهيم بن أحمد بنفوسة بأنها «اعترضته بين قابس وطرابلس ومنعته من المرور» ويؤيد كل من فورنل ، وفندرهيدن وزكى حسن وجهة نظر ابن عذارى.

وثمة قول ثالث للبارونى^(٥٥) نقلا عن الرقيق المؤرخ يعزو فيه هدف الحملة بأنه الانتقام من الطولونيين بمصر، «ففى سنة ٢٨٣ هـ تحرك إبراهيم يريد محاربة ابن طولون ، وأمر بالحشد، فلما اجتمع له ما يريد خرج من تونس لعشر خلون من المحرم، فأقام برقادة إلى سبع بقين من صفر، ثم خرج بجميع من معه، فاعترضته أهل نفوسة، فكان بينهم قتال عظيم .. وكان (ذلك) فى أيام المعتضد...» . وما هو جدير بالذكر أن ابن خلدون والنورى يأخذان بوجهة النظر هذه .

والحق أن الرواية الأولى تنطوى على عديد من الأخطاء التى تشكك فى قبولها ، فلم تكن تلك الحملة معاصرة للخليفة المتوكل كما يذهب الدرجينى ؛ ذلك أن وفاته كانت سنة ٢٤٧ هـ^(٥٦)، بينما خرجت الحملة من تونس سنة ٢٨٣ هـ . ومن ناحية أخرى لم يرد عند المؤرخين ما يشير إلى خروج إبراهيم بن أحمد إلى المشرق بقصد إعداد حملة لقتال الرستميين، كما لم تكن الخلافة آنذاك فى حالة تسمح لها بتعبئة الجيوش إلى إفريقية، وهو أمر لم تشهده إفريقية الأغلبية حتى فى أشد أزوماتها . وحتى لو سلمنا بوصول الحملة العباسية إلى إفريقية ، فلماذا لم تتجه إلى تاهرت قلب الدولة الرستمية بعد أن تسنى لها التنكيل بنفوسة مصدر قوتها ؟ كل ذلك يشكك فى صدق هذه الرواية.

أما رواية ابن عذارى التى يأخذ بها فورنل وفندرهيدن فلا يمكن الأخذ بها لاعتبارات كثيرة منها : أنه لم يكن هناك ما يدعو إبراهيم بن أحمد لتجهيز حملة من عشرين ألف مقاتل^(٥٧)، ويلتحم مع نفوسه فى حرب مضنية من أجل تحقيق هدف جزئى قتل ابن عمه حاكم طرابلس ، ثم إن الخليفة المعتضد لم يتدخل لإقصاء إبراهيم بن أحمد عن إفريقية إلا سنة ٢٨٩ هـ، حين

٥٥- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٨٠ ، ٨١ .

٥٦- صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٥٩ .

٥٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٣ .

أمره بالتنازل عن الحكم لابنه أبى العباس (٥٨). وذلك يناقض ما ذهب إليه فنديرهيدن (٥٩) وزكى حسن (٦٠) من أن إبراهيم بن أحمد تظاهر فقط بقصد مصر للتمويه عن هدفه الأساسى وهو اغتيال ابن عمه، إذ ليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بإقدامه على قتل ابن عمه خوفاً من أن يؤول حكم إفريقية إليه (٦١)، بل يخيل إلينا أنه فعل ذلك جرياً على ما اعتاد عليه من رغبته فى سفك دماء آل بيته وخاصته وخدمه وجواريه (٦٢).

لذلك نعتقد أن هدف الحملة كان غزو مصر، وسواء أكان ذلك تحقيقاً لمآرب توسعية أو ردّاً على حملة العباس، ففى ذلك دلالة على تكدر صفو العلاقات بين الطولونيين والأغالبية. ولا ينقص من هذا التصور صمت المصادر العربية عن الإشارة إليه صراحة (٦٣)، فهذا الصمت سببه عدم تحقيق الحملة لأغراضها بعد خروج الكثيرين من رجال إبراهيم بن أحمد عليه واضطراره للعودة إلى تونس (٦٤). ولا ينقص من وجهة النظر هذه أيضاً اعتقاد الدكتور زكى حسن (٦٥) باستحالة تفكير الأغالبية فى فتح مصر «الذى يعد بالنسبة إليهم أمراً يصعب تحقيقه»، فغزو دولة الطولونيين كان من السهولة بمكان (٦٦)، فقد عمتها الفوضى بسبب الصراع على الحكم، وما جره من فتن بين طوائف الجند (٦٧)، ذلك أنه بعد مصرع خمارويه فى دمشق سنة ٢٨٣هـ، ورث خلفاؤه تركة مثقلة بالأعباء، فبسبب إسرافه وتبذيره، ترك خزائن

٥٨- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٥١ .

٥٩- La Berberie Orientale . p. 272 .

٦٠- Les Tulunides , p. 161 .

٦١- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٣ . . Fournel : Op. cit. p. 576 .

٦٢- ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، قسم ٣ ص ١٢٩ وما بعدها .

٦٣- أنظر : . p. 161 . Fournel : Op. vol . p. 570, Zaki Hassan : Op. cit. p. 161 .

٦٤- ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٧٣ .

Biquet : Histoire de l'Afrique Septentrionde p. 60 .

٦٥- Les Tunulides , p. 161 .

٦٦- Vonderheyden : Op. cit , p. 272 .

٦٧- الولاة والقضاة ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الدولة خاوية ، ولم يستطع خلفه أبو الجيش أن يكتف في الحكم أكثر من ستة شهور ليعمل أخوه هارون محله ، حيث وقف مكتوف اليدين أمام خطر القرامطة بالشام^(٣٨) ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما انتطوت عليه سياسة الأغلبية من تفكير في التوسع شرقا^(٦٩) ، لأدركنا الأهداف الحقيقية لحملة إبراهيم بن أحمد سنة ٢٨٣ هـ .

وإذ لم يقدر لهذه الحملة تحقيق أغراضها فإن ذلك يعزى إلى إرهاب رجالها أثناء حربهم مع نفوسة التي اعترضت طريق الجيش الأغلبى ، وقصد ذلك الجيش على قائده لإتباعه سياسة العسف والإسراف في سفك الدماء . وبالرغم من اضطوار إبراهيم بن أحمد إلى العودة دون اشتباك مع الطولونيين ، فلاشك أن هذا الحادث عمق الهوة بين القطائع والقبوروان ، ويكفى أنه في سنة ٢٨٩ هـ حين تم عزل إبراهيم بن أحمد وتقليد ابنه أبى العباس الإمارة وفقا لمشيئة الخليفة العباسى ، عزم الأمير المخلوع على الحج تكفيرا عن آثامه ، وأبلغ الخليفة عن عزمه^(٧٠) لكنه خشى المرور بمصر^(٧١) ، فعدل عن الحج واتجه إلى صقلية ليواصل حركة الجهاد فيها^(٧٢) . ولم تعمر الدولة الطولونية بعد ذلك كثيرا إذ ما لبثت أن سقطت سنة ٢٩٢ هـ . ومن غريب الاتفاق أن يكون ضعف الخلافة وانشغالها سببا في ظهور الدولة الطولونية وقيامها ، وأن تكون صحوة الخلافة وبقظتها سببا في القضاء عليها^(٧٣) ، فقد جهز الخليفة المكتفى جيشا

Brockelman : history of the Islamic People . p. 140 .

-٦٨-

٦٩- كان الأمراء الأغلبية يقولون : «إننا نخرج إلى مصر والشام ونربط خيلنا في زيتون فلسطين » .
أنظر : الكامل ج٦ ص ١٢٤ ، المنصوري: زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٢ .
٧٠- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٥١ .

٧١- يعزو الدكتور زكى محمد حسن إجمام إبراهيم بن أحمد عن الحج إلى خوفه من المشول بين يدي الخليفة المعتضد ، ويقول بأن الطولونيين قد شغلوا بعديد من المشاكل التي صرفتهم عن التعرض للأمير الأغلبى في طريقه إلى مكة . أنظر : Les Tuhmides . p. 1161 . لكننا لانجد مبررا لخوف الأمير من الخليفة بعد تنفيذه أوامره ، وكان من الممكن للأمير تأدية فريضة الحج والعودة إلى إفريقية دون التوجه إلى بغداد . فليسلم حيثئذ من غضب الخليفة عليه . وكذلك لا يمكن قبول فكرة انشغال بنى طولون عن التردد لعدوهم الأغلبى ، فلن تكلفهم تلك الغاية ما يحول دون مواصلة مواجهتهم مشاكلهم الأخرى .

٧٢- الكامل ج٦ ص ٥ ، الأنصارى : النهل العذب ج ١ ص ٨٢ .

٧٣- حسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ص ٧٥ .

أسند قيادته إلى محمد بن سليمان الكاتب سنة ٢٩١هـ فى الوقت الذى أمر فيه دميانة الرومى على الأسطول لاستخلاص مصر من يد هارون^(٧٤) ، وتمكن محمد بن سليمان من إغراء قواد هارون ، فتألبوا عليه واغتالوه^(٧٥) ، غير أن هارون لم يكن آخر الأمراء الطولونيين، فبعد موته بايع الجند عمه شيبان الذى اشتبك مع قوات الخلافة فى عدة معارك انتهت باستسلامه ، واستولى محمد بن سليمان الكاتب على مصر ثم غادرها بعد أن ولى عليها عيسى النوشرى^(٧٦).

وبعودة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، انتهت مرحلة العلاقات العدائية بينها وبين إفريقية ؛ لكنها لم تعد قادرة على القيام بدورها القديم فى بذل المساعدات للتمكين لحكم الأغالبة ، ففى الوقت الذى شغلت فيه إفريقية فى عهد زيادة الله الثالث بمواجهة الخطر الفاطمى، حفلت ولاية النوشرى بمزيد من الاضطرابات والقلال التى سببها عدم رضا المصريين عن العودة من جديد إلى حظيرة الخلافة، وسوء أحوالها بعد سقوط الطولونيين^(٧٧).

ثم كانت هزيمة جيوش زيادة الله الثالث المرة تلو الأخرى إلى أن هزمت أخيراً فى معركة «الأريس» التى على إثرها هرب زيادة الله الثالث تاركاً إفريقية للفاطمين . ومن الطبيعى أن يلجأ زيادة الله إلى أقرب معقل عباسى يأمن إليه، فيسم وجهه شطر مصر. ولما بلغ طرابلس أرسل كتاباً إلى عيسى النوشرى يطلب منه تخصيص مقام له ولجن معه ، لكن النوشرى لم يرحب بمقدم زيادة الله متأثراً فى ذلك بوشاية إبراهيم بن الأغلب وأبى المصعب ابن زرار^(٧٨) اللذين «أوقعا عنده فى زيادة الله وسوء أفعاله وأنه يطمع نفسه بمصر»^(٧٩). فلما قدم زيادة

٧٤- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ١٣ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٦٧ .

٧٥- اختلفت الروايات حول قتل هارون، فمنها ما تذهب إلى أن بعض المقاربة وموه بالمزاريق فقتل ، وأخرى تقول بأن عمه شيبان هو الذى فعل ذلك ، وثالثة ترى أن أصحاب الخليفة المكتفى اغتالوه .

أنظر : نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ١٣ ، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٦٧ .

٧٦- نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ١٤ .

٧٧- سيدة الكاشف: مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ص١٢٨ ، ١٢٩ .

٧٨- كان إبراهيم بن الأغلب قد حاول استرداد حكم الأغالبة بالقيروان ، لكنه فشل ، فلهق بزيادة الله فى طرابلس ثم هرب إلى مصر مع صاحبه ابن زرار خوفاً من بطش زيادة الله.

٧٩- الكامل ج٦ ص١٢٤ ، نهاية الأرب ج٢٦ ورقة ٤٣ ، زبد الفكرة ج٥ ورقة ١٥٢ .

الله إلى مصر، لم يستطع دخول الجيزة إلا بعد مناوشة بينه وبين أصحاب النوشري^(٨٠)، وأمام الأمر الواقع سمح النوشري له بدخول الفسطاط « وأنزله بدار ابن الجصاص، وأنزل رجاله بدور كثيرة»^(٨١).

ويبدو أن زيادة الله لم يستطع المقام بمصر طويلا، فغادرها بعد ثمانية أيام متوجها إلى بغداد، وآثر بعض غلمانه ورجاله البقاء بمصر وقدموا ما معهم من أموال إلى واليها، ثم لحقوا بأميرهم بعد ذلك^(٨٢). ولم يفلح زيادة الله في لقاء الخليفة المقتدر، واضطر للعودة إلى مصر ثانية، حيث أمره الخليفة أن يستعين بأموالها ورجالها في استعادة نفوذه المفقود. ولما وصل إلى مصر منعه النوشري من دخول الفسطاط وطلب منه الإقامة في مكان يقال له «ذات الحمام»^(٨٣). ويخيل إلينا أن النوشري لم يتحمس لتنفيذ أمر الخليفة لعدم ثقته في نجاح محاولة زيادة الله استرداد إفريقية، فأخذ يماطله ويسوف به، ويتحفه بالهدايا والخمور إلى أن ساءت صحته، ومات قبل أن يقوم بمحاولته^(٨٤).

(ب) العلاقات التجارية :

لم تقتصر العلاقات الأغلبية المصرية على الناحية السياسية، بل شملت أيضا الصلات التجارية، ولم يحل العداء السياسى - فى بعض الأحيان- دون رواج حركة التجارة بين مصر وإفريقية.

والثابت أن الفتح العربى لمصر لم يقصر تجارتها على دول الشرق فقط، بل ازدهرت هذه التجارة مع بلاد المغرب أيضا^(٨٥). وغنى عن البيان أن الأموال المصرية قد ساهمت فى دعم

٨٠- الولاة والقضاة ص ٢٦٧، ٨١. 2 p. 81. Fournel : op. cit.

Vonderheyden : Op. cit. p. 313 .

٨١- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٤٤ .

٨٢- الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص ٣٥ .

٨٣- زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٢ .

٨٤- النويرى : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٤٤ . 313 p. cit. Vonderheyden : Op.

٨٥- سيده الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص ٣٠٩ .

موقف الأغلبية الأوائل حتى وطلدوا أركان دولتهم، على الرغم من انقطاع المعونة السنوية التي اعتادت مصر إرسالها إلى ولاية إفريقية قبل قيام دولة الأغلبية .

وقد ساعدت الظروف الجغرافية على زيادة النشاط الاقتصادي بشكل ملحوظ ، فكانت مصر بفضل موقعها الهام تمسك بزمام تجارة قارات ثلاث هي أوروبا وآسيا وأفريقيا (٨٦). فبسبب الاتصال البري والبحري كانت ميسرة لحركة التجارة بين البلدين . أما عن طرق القوافل ، فكانت ممهدة وآمنة يعبرها الحجاج والتجار، كما كانت مزودة بالأبار ومحطات الراحة، وليس ثمة ما يشير إلى حدوث ما من شأنه إزعاج المسافرين والتجار، أو نهب بضائعهم رغم الاضطرابات السياسية والعلاقات العدائية بين البلدين في بعض الأحيان، فقد ماجت هذه الطرق بجموع التجار والعلماء والحجاج ورسل الخلفاء والأمراء الأغلبية (٨٧). وقد ارتبطت مصر بإفريقية بطريقين برين كبيرين أحدهما يسير بحذاء الساحل، والآخر إلى الجنوب منه في الداخل (٨٨)، أما الطريق الأول، فيمر بالقسطاوط ويتجه غربا دون أن يمر بالإسكندرية ، وعند برقة يلتقى بالطريق الآخر الذي يبدأ من الإسكندرية وينتهي قرب برقة، ويقدر طول هذا الطريق بحوالى إحدى وعشرين مرحلة (٨٩)، ثم يتحد الطريقان في طريق واحد معبد إلى مدن إفريقية مارا بذات الحمام والطاحونة (٩٠). وكذلك ربط الطريق البحري بين الإسكندرية وموانئ إفريقية مثل تونس ، وسوسة، وبجاية وغيرها، والمعروف أن التجارة العالمية الواردة من الشرق كانت تمر بموانئ مصر، ثم برقة، فموانئ إفريقية في طريقها إلى الغرب (٩١).

٨٦- Zaki Hassan : Op. cit . p. 238 .

٨٧- Vonderheyden : Op. cit. p. 313 , Zaki Hassan : Op. cit. p. 160 .

٨٨- ميتز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٨-٣ .

٨٩- الإدريسي : صفة المغرب ص ١٣٢ .

٩٠- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٨٦، ٨٧ .

٩١- النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٧ ، ٦٨ ،

ويبدو أن التجارة بين مصر وإفريقية في عهد الأمراء الأغالبة الأوائل كانت قاصرة على طرق القوافل البرية، فلم تكن قوة الأغالبة البحرية قد ظهرت بعد لتؤمن الطريق البحري إلى الشرق، وكانت الغلبة في البحر المتوسط آنذاك للبحرية البيزنطية التي فرضت نوعاً من الرقابة على السواحل الإسلامية عموماً - بما فيها سواحل مصر وإفريقية - فحالت دون وصول سفن التجارة المصرية إلى غرب البحر المتوسط^(٩٢). ومن الطبيعي أيضاً أن تراقب بيزنطة حركات السفن الأغلبية التي كانت قد بدأت تشن إغاراتها بين الحين والآخر على الجزر البيزنطية، والراجع أنها نجحت في سياستها إلى حد كبير، فقد استطاعت الأساطيل البيزنطية المراقبة في صقلية وقبرص ومالطة وقوصرة أن ترغم التجار المصريين والتونسيين على إتباع الطرق البرية بعيداً عن الساحل^(٩٣)، يؤكد ذلك ما ساد مصر آنذاك من كساد اقتصادي، فلم تسهم في حركة التجارة العالمية بدور إيجابي واكتفت موانئها باستقبال التجار المغاربة^(٩٤).

أما وقد انتهى زمن السيادة البيزنطية بفقدان البيزنطيين لقواعدهم البحرية في كريت وصقلية ومالطة وقوصرة، ظهر الأغالبة كقوة بحرية جديدة تهيمن على منطقة وسط البحر الأبيض^(٩٥)، وتيسر الاتصال البحري بين موانئ إفريقية وموانئ مصر، وبما شجع على ذلك انتعاش البحرية المصرية في عهد الطولونيين. وظهر أثر التبادل التجاري واضحاً في تحسن أحوال مصر الاقتصادية زمن الطولونيين، وحسبنا أن خراجها قد بلغ في عهد أحمد بن طولون «أربعة آلاف وثلاثمائة ألف دينار»^(٩٦)، أو على الأقل خمسة آلاف وستمائة ألف درهم كما يذكر ابن خرداذبة^(٩٧).

كذلك ازدهرت أحوال إفريقية الاقتصادية في ذلك الحين، فتقدمت الزراعة وزادت المحاصيل، وتضاعفت أشجار الزيتون والكروم، وازدهرت حركة التعدين في مناجم مجانة

٩٢- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٧٤ .

٩٣- نفسه ص ١٧٧ .

٩٤- نفسه ص ١٩١ .

٩٥- Vonderheyden : Op. cit. p. 242 .

٩٦- النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٢ .

٩٧- المسالك والممالك ص ٧٣ ، ٧٤ .

والأرس وبونة الغنية بالحديد والفضة والرصاص^(٩٨)، وعمرت أسواق برقة وغصت بالتجار المصريين باعتبارها أول محطة ينزلها القادمون من الإسكندرية إلى إفريقية^(٩٩)، كما اكتسبت طرابلس مكانة مرموقة، وجنت أرياحا طائلة.

ويخيل إلينا أن قيام العباس بن أحمد بن طولون بحملته على إفريقية عام ٢٦٥هـ لم يغير كثيرا من حركة التجارة بين مصر وإفريقية، إذ أن الفشل السريع الذي صادف الحملة جعل الأمور تعود إلى ما كانت عليه، وكان من نتائج الحملة الاقتصادية وقوع أموال العباس غنيمة لإبراهيم بن أحمد الأغلبى، وبلغ من ضخامة هذه الأموال أن أحدثت ازدهارا اقتصاديا فى إفريقية، إذ يخبرنا ابن عذارى^(١٠٠) أن الأمير الأغلبى تمكن عن طريق هذه الأموال من إصدار عملة جديدة ذهبية أكبر قيمة من العملة التى كانت سائدة قبل ذلك^(١٠١). ولهذا أغمض إبراهيم بن أحمد عينيه عن الانتقام المباشر من الطولونيين، وشرع فى تأمين طرق التجارة، وإنشاء المحارس والمناثر «حتى كانت النار توقد بسبعة، فيصل الخبر إلى الإسكندرية فى الليلة الواحدة»^(١٠٢).

كما حرص الأمير الأغلبى على تأمين الطرق البرية وصارت القوافل التجارية تغدو وتروح فى سلام^(١٠٣)، وكانت منارة الإسكندرية ترشد السفن المغربية^(١٠٤)، وشجع الطولونيين التجار التونسيين على ارتياد المدينة، وكفلوا لهم سبل الراحة بإنشاء الأسواق والفنادق، ولا غرو إذ اجتذبت الإسكندرية تجار المغرب فكانوا يقدون إليها طلبا للراحة والاستجمام أو لزيارة معالمها كالمنار وعمود السوارى^(١٠٥)، وغدت الإسكندرية تقوم بنفس الدور الذى تقوم به

٩٨- الإدريسى : صفة المغرب ص ١١٦ ، ١١٧ ، ff . ، 303 , 305 . Idris : Op. cit.

٩٩- الإدريسى : نفس المصدر ص ١٣١ .

١٠٠- البيان المغرب ج ١ ص ١٦١ .

١٠١- عن هذه العملة انظر : Lavoix : Op. cit . vol . 2 . pp. 359 ff.

١٠٢- الكامل ج ٦ ص ٥ ، أبو زكريا : كتاب السيرة ورقة ٣٥ .

١٠٣- Vonderheyden : Op. cit. p. 240 .

١٠٤- الإدريسى ، صفة المغرب ص ١٣٨ .

١٠٥- نفس المصدر والصفحة ، جمال الشيال : الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة الإسكندرية ، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية مجلد ١٥ ص ١٤٨ .

طرابلس بالنسبة للتجار المصريين، وجدير بالذكر أن الرسائل بين الإسكندرية وطرابلس لم تكن تستغرق أكثر من بضع ساعات^(١٠٦)، في حين كانت المسافة بين طرابلس وإفريقية مسيرة تسعة أيام^(١٠٧)، كما ازدهرت القطن وحصر الطولونيون على تنظيم أسواقها، فغصت بضروب السلع والمتاجر^(١٠٨).

وكان تعاون المصريين والمغاربة واضحاً في العمل سوياً في نقل التجارة العالمية من الشرق إلى الغرب^(١٠٩)، وقد ازدهرت تلك التجارة بسبب ما أجراه ابن طولون من سك أحسن الدينار الإسلامية وأثقلها وزناً، هذا فضلاً عما قام به من إصلاحات إدارية وقضائية، وقضائه على الفتن والثورات وجهوده في إقرار الأمن مما وفر لهذه التجارة أسباب الحماية^(١١٠). ويبدو أن تجارة الشرق الذاخرة إلى المحيط الهندي والشرق الأقصى أخذت تتحول عن طريق الخليج الفارسي والعراق إلى طريق مصر والبحر الأحمر^(١١١)، كما كانت السلع الواردة من الشرق تمر بمصر عن طريق موانئ البحر الأحمر ثم تسلك الطريق البري إلى الإسكندرية^(١١٢)، وعلى الرغم من أن التجار اليهود «الرهانية» لعبوا دوراً واضحاً في نقل هذه التجارة إلى أوروبا^(١١٣)، فلا شك أن التجار الأغلبية قد استحوذوا على النصيب الأكبر في عملية الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، فعكفت سفنهم على ارتياد موانئ الشام ومصر لجلب التوابل والمنتجات من الشرقيين الأدنى والأقصى إلى بلاد المغرب^(١١٤)، بينما اكتفى المصريون بنقل تلك السلع داخل البلاد من موانئ البحر الأحمر إلى مدينة الإسكندرية، ولم يعملوا لحسابهم

١٠٦- ميتز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٠ .

١٠٧- البلاذري : فتوح البلدان ص ١٦٧ .

١٠٨- Zaki Hassan : Op. cit. p. 238 .

١٠٩- لويس : القوي البحرية والتجارية ص ٢٥٧ .

١١٠- حسن محمود : حضارة مصر الإسلامية ص ٢٦٤ .

١١١- لويس : المرجع السابق ص ٢٥٣ .

١١٢- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٩ ، ٨٠ .

١١٣- Heyd : Op. cit. vol. I. p. 40 .

١١٤- لويس : القوي البحرية والتجارية ص ٢٥٣ .

الخاص فى الاتجار مع العالم الخارجى، ويدفعنا ذلك إلى القول بأن تجارة مصر آنذاك غلب عليها الطابع المحلى^(١١٥).

وقد راجت حركة التبادل التجارى بين مصر وإفريقية فى ذلك الحين فقد كانت إفريقية الغنية بالقمح تعمل على تصديره إلى مصر^(١١٦)، كما شغل المصريون بالخيول المغربية المشهورة^(١١٧)، وحمل التجار المصريون منسوجاتهم التيلية والكتانية^(١١٨) إلى الموانئ التونسية حيث وجدت إقبالا كبيرا فى أسواق إفريقية، ليعودوا محملين بالمرجان^(١١٩) الذى كان يستهوى التجار من كافة الجهات، وليس من المستبعد تصدير الأغالبة للأخشاب التى كانت مصر دائما بحاجة إليها، والتى كانت تعمل على استيرادها من أوروبا فى عصر السيادة البحرية البيزنطية^(١٢٠).

وحصل التجار الأغالبة على ثروات وأرباح طائلة نتيجة اشتغالهم بالتجارة، حتى لقد ساهم الأمراء فيها لحسابهم الخاص، وجنوا من ورائها الأموال الوفيرة التى مكنتهم من إقامة المنشآت العظيمة^(١٢١)، ولا شك أن الطولونيين أيضا قد استفادوا منها، وتوفرت لديهم الثروات التى يدلل عليها ما قام به خمارويه بن أحمد بن طولون من تشييده لقصره الفخم وبحيرته الزئبقية^(١٢٢)، ولاغرو فقد شاع تداول النقد الذهبى فى المعاملات التجارية بين القطنع والقيروان^(١٢٣).

١١٥ - Zaki Hassan : Op. cit . p. 238 .

١١٦ - الإدريسى : صفة المغرب ص ١٨٧ .

١١٧ - صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٤ .

١١٨ - لويس : القوى البحرية التجارية ص ٢٥٧ .

١١٩ - الإدريسى : صفة المغرب ص ١١٦ .

١٢٠ - Heyd : Op. cit . vol . 1 . p. 40 .

١٢١ - Vonderheyden : Op. cit . p. 243 .

١٢٢ - لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٧ .

١٢٣ - نفس المصدر ص ٥٧٥ ، وعن عملة الطولونيين انظر : Lavoix : Op. cit . vol . 3 . pp. 1-10 ff .

(ج) العلاقات الثقافية :

ليس من شك في أن العلاقات الثقافية بين إفريقية الأغلبية ومصر كانت أكثر ترابطاً وأشد وثوقاً من العلاقات التجارية، ذلك أن مصر في عصر الولاة اشتهرت كمركز للحركة العلمية الدينية ، كما كانت مركزاً سياسياً ، فكان جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة والطلاب المغاربة (١٢٤)، ومكاناً للدروس والمناقشات الدينية .

ولا يخالفنا شك في أن قيام الدولة الطولونية لم يغير من هذا الوضع، إذا ما علمنا أن تنافس الدولة المستقلة في مجال الفكر والحضارة قد زاد الفكر نشاطاً وإنتاجاً (١٢٥).

ومن الأمور المسلم بها أن الأغلبية اتجهوا إلى المشرق التماساً للتراث الفكري والروحي (١٢٦)، وحسبنا أن إبراهيم بن الأغلب - مؤسس دولة الأغلبية - قد تلقى علومه بالفسطاط ، وتعلم على الليث بن سعد فقيه مصر (١٢٧).

ونهل المصريون والأفارقة من معين فكري واحد، فأخذوا بمذهب مالك، واتجهوا إلى المدينة «دار الهجرة» يتعلمون أصول الفقه المالكي، وإذا كان فقهاء إفريقية من أمثال علي بن زياد والبهلول بن راشد وأسد بن الفرات وغيرهم قد رافقوا مالكا بالمدينة ونقلوا عنه مذهبه إلى إفريقية (١٢٨)، فلاشك أنهم التقوا هناك بإخوانهم فقهاء مصر من أمثال عبدالله بن وهب، وابن القاسم ، وأشهب وغيرهم من أعلام المالكية في مصر. وجدير بالذكر أن مدرسة الفسطاط كانت أكثر ازدهاراً من مدرسة القيروان أول الأمر ؛ وذلك بفضل تنافس الفقهاء واجتهادهم رغم تمسك بعضهم الشديد بتعاليم المالكية . فإذا كان فقيها مثل أشهب بن عبد العزيز لا «يزيد في سماعه حرفاً واحداً» (١٢٩)، فإن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هي في

١٢٤- سيدة الكاشف : مصر في عصر الولاة ص ١٨١ ، ١٨٢ .

١٢٥- حسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ص ١١٨ .

١٢٦- Vonderheyden : Op. cit , p. 321 .

١٢٧- ابن عثاري : البيان المغرب ج ١ ص ١١٦ .

١٢٨- معالم الإيمان ج ٢ ص ٥٢ .

١٢٩- النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٥٧ .

الموطأ ، بل كان يدقق في اختيار (١٢٠) الأحاديث، وكذلك ابن القاسم الذي كان يفرغ على أصول مذهب مالك وينافس أشهب بن عبد العزيز إلى أن توفي عام ١٩١ هـ (١٢١).

ولا غرو فقد أرحل فقهاء إفريقية وعلمائها إلى مصر طلبا للدراسة والعلم (١٢٢)، فأسد بن الفرات صاحب «الأسدية» في الفقه، أخذها عن علي بن القاسم إمام المالكية بمصر (١٢٣)، وكذلك فعل سحنون حين أخرج «مدونته» (١٢٤)، فقد رحل سحنون إلى مصر عام ١٨٨ هـ وسمع من علماء المالكية بها كابن القاسم وابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن عمر (١٢٥). وكذلك تزود عيسى بن مسكين- الذي تتلمذ على يد سحنون بإفريقية - بآراء الحارث بن مسكين وأبى الطاهر، والربيع وغيرهم من فقهاء المذهب بمصر (١٢٦)، ورحل إلى الصعيد فدرس على محمد بن سنجر (١٢٧). وكذلك كان الحال بالنسبة لحمديس القطان (١٢٨)، وحماس بن مروان (١٢٩)، وغيرهما من مشاهير فقهاء القيروان وعلمائها. وجدير بالذكر أن الحركة الثقافية لم تتمركز في القسطة فقط بل ازدهرت أيضا في الإسكندرية وغيرها من مدن الصعيد كأسوان وأسيوط وإدفو (١٣٠).

١٣٠- محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٤١ .

١٣١- السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٦ .

١٣٢- النائب الأنصاري : نفحات التفسير ورقة ٦ مخطوط .

Zaki Hassan : Op. cit p. 254 .

١٣٣- معالم الإيمان : ج ٢ ص ٩١ .

١٣٤- نفسه ص ١٦٠ .

١٣٥- نفسه ص ٤٩ .

١٣٦- القاضي عياض : ترتيب المدارك قسم ١ ج ٢ ورقة ٢ مخطوط.

١٣٧- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٤٢ .

١٣٨- معالم الإيمان ج ٢ ص ١٣٣ .

١٣٩- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٤٢ .

١٤٠- Zaki Hassan . Op. cit . p. 258 .

ونتج عن ذلك ازدهار مدرسة المالكية بالقيروان بدرجة أثارت دهشة فقهاء مصر أنفسهم^(١٤١)، بل صارت أشهر مدارس الفقه المالكي في العالم الإسلامي على الإطلاق^(١٤٢)، ونجحت هذه المدرسة في اجتذاب بعض أفراد البيت الأغلبى بالرغم من إتباعهم مذهب أهل العراق^(١٤٣)، وكتب لمدرسة القيروان بفضل أسد وسحنون وأبى محرز ومحمد بن سحنون وابن عبدوس التفوق على مدرسة الفسطاط وانتزاع مكان السيادة منها في الفقه المالكي^(١٤٤).

لكن مدرسة القيروان تأثرت إلى حد كبير بتقاليد مدرسة الفسطاط، وظهر ذلك واضحا في موقف الفقهاء من الحكام وحرصهم على تبوأ مكانة على قدم المساواة معهم إن لم تفهم في غالب الأحيان. والجدير بالذكر أن هذه المكانة السامية كان مردها تعلق الناس بفقهاء المالكية باعتبارهم زعماء شعبيين، فكان الليث بن سعد يهيم على مصائر الولاية والقضاء في مصر حتى قيل إن والى والقاضى كانا لا يقطعان برأى إلا بعد أن يرى هو رأيه فيه^(١٤٥). وكان فقهاء القيروان على تلك الحال، وحسبنا أن ابراهيم بن الأغلب لم يكن بإمكانه أن يرأس الرشيد إلا بعد إطلاع القاضى ابن غانم على ما يرسله^(١٤٦).

ومن مظاهر التأثير المتبادل بين مدرستي الفسطاط والقيروان ما عرف عن إجماع الفقهاء عن تولى القضاء والفتيا وعدم رضوخهم لمشينة الولاة، ويحدثنا ابن خلكان^(١٤٧) عن عبدالله بن وهب المصرى الذى خبأ نفسه، ولزم بيته، حين كتب إليه المنصور بتولى قضاء مصر، وقد انعكس هذا الموقف على تلامذته القيروانيين الذين تلقوا على يديه الفقه المالكي في مصر^(١٤٨)، ولا غرابة إذا وجدنا فقيها مثل عبد السلام بن سحنون مثلاً يرفض بإباء منصب القضاء ويندد بسياسة الأغلبية الأواخر التى انطوت على الظلم والفساد^(١٤٩).

١٤١- الحشنى : المرجع السابق ص ١٥٣ ، معالم الإيمان ج ٢ ص ٢٢ .

١٤٢- حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ١٢ .

١٤٣- ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٤ .

١٤٤- نفس المصدر والصفحة.

Vonderhyden : Op. cit . 172 , Idris : Op. cit . p. 125 .

١٤٥- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٢ .

١٤٦- معالم الإيمان ج ١ ص ٢٥٥ .

١٤٧- وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٩ .

١٤٨- السيوطى : حسن المحاضرة ص ٢٥٤ .

١٤٩- الديباج المذهب ص ١٦٣ .

ومن السمات المشتركة في الحركة الثقافية بين مصر وإفريقية ما ساد من تنافس المذاهب الإسلامية ، وما صاحب هذا التنافس من تعصب وتحيز ، وإذا كانت سيادة المذهب المالكي تستمر في مصر طويلا لظهور الشافعي وإقبال الناس عليه ، وأخذهم بمذهبه الذي يعتمد الجدل والمناظرة (١٥٠) ، فإن المغاربة لم يرتاحوا لمذهب الشافعي الذي لا يتلاءم عقليتهم (١٥١) ، ومع ذلك شهدت إفريقية بعض أعلام الشافعية الذين أشهروا عداهم للمالكي حتى أن فقيها مثل ابن الحداد - وهو شافعي المذهب - كان يتهمهم على مدونة سحنون ، قائلًا عليها «المدودة» (١٥٢) . لكن المصريين والمغاربة اشتركوا في كراهيتهم لمذهب أهل العراق لا شك في تأثره بالمدارس الفارسية (١٥٣) ، فكان الأحناف في مصر وإفريقية قلة يساد الحكام في كثير من الأحيان ، بل انهارت مدرسة الأحناف في مصر تمامًا في العا الطولوني (١٥٤) ، كما محبت كتب أبي حنيفة من إفريقية على يد سحنون (١٥٥) . حقيقة التنافس بين المذاهب الإسلامية قد أذكى الحركة الفكرية ، وانبرى الفقهاء بدلولن بالح والمنطق على صحة أحكامهم ، لكن منطق الكلمة والعقل ما لبث أن اختفى في كل من مصر وإفريقية ليسود التعصب والبطش والارهاب والاضطهاد . فالفقيه ابن الحداد ألف كتابًا «المقالات» سفه فيه آراء المذاهب أجمعين (١٥٦) ، وفي مصر أمر القاضي المالكي الحارث مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد ، وكذلك أصحاب الشافعي ، وأمر به حصرهم (١٥٧) والقاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خلق القرآن ، فأوقع بأصحاب ما والشافعي ، ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد (١٥٨) . وفي إفريقية منع سحنون الخو

١٥٠ - Zaki Hassan : Op. cit . p. 260 ، أدب مصر الإسلامية ص ١٥٣ .

١٥١ - معالم الإيمان ج ٢ ص ٢٠٣ .

١٥٢ - ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠ .

١٥٣ - حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ص ١٦٩ .

١٥٤ - Zaki Hassan : Op. cit . p. 260 .

١٥٥ - ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣٥ .

١٥٦ - معالم الإيمان ج ٢ ص ٢٠٢ .

١٥٧ - الولاة والقضاة ص ٤٦٩ .

١٥٨ - نفس المصدر ص ٤٥ .

والمعتزلة من دخول المسجد الجامع، وفرق شملهم^(١٥٩)، كما أمعن الأحناف في اضطهاد المالكية في عهود الأغالبة الأواخر، فالقاضي ابن عبدون «استطال على طبقة المدنيين، وامتهنهم، وضرب جماعة منهم»^(١٦٠)، كما تعرض ابن البرذون للضرب بالسياط في عهد القاضي محمد بن أسود الصديني^(١٦١).

وثمة أثر كبير لمدرسة الفسطاط على نظيرتها في القيروان في مجال علم القراءات؛ فالمعروف أن القراءات في مصر كانت تتبع رواية نافع التي نقلها عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش من المدينة وعاد بها إلى مصر ليتولى رئاسة الإقراء بها إلى أن توفي عام ١٩٥هـ^(١٦٢)، وخلفه في الإقراء تلميذه أبو يعقوب الأزرق بن عمر بن يسار، وكان لورش وأبى يعقوب أثر كبير في انتشار رواية نافع في مصر والمغرب^(١٦٣)، حتى أن المصريين ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبى يعقوب هذا^(١٦٤).

ولم تقتصر الحركة الفكرية في مصر وإفريقية على الناحية الدينية فحسب، بل تعدتها إلى الجوانب اللغوية والأدبية، ففي مصر حدث تطور كبير في هذه النواحي إبان القرن الثاني للهجرة، واطرد نحو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وانتقلت منها إلى بلاد المغرب^(١٦٥) ونبغ فيها من النحاة بنو ولاد وأحمد بن جعفر الدينوري وغيرهم ممن أضافوا الكثير إلى هذا النوع من الدراسات. كذلك لا يستطيع أن نجزم بافتقار مدرسة القيروان إلى ألوان الثقافة العربية الأخرى، فكانت معظم العلوم، الإسلامية تدرس وتدرس بها^(١٦٦) حتى أن عالما مثل إبراهيم بن محمد الضبي «كان يتكلم في تسعة عشر فنا من العلم»^(١٦٧).

١٥٩- أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص ١٠٢ ، حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ص ١٧٠ .

١٦٠- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٨٧ .

١٦١- معالم الإيمان ج ٢ ص ١٧٧ .

١٦٢- حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٧ .

١٦٣- أدب مصر الإسلامية ص ٣٧ .

١٦٤- حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٨ .

١٦٥- محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٩٨ .

١٦٦- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ص ١٧١ .

١٦٧- معالم الإيمان ج ٢ ص ١٧٧ .

ويزغ في مجال الدراسات اللغوية النحوى عبدالله بن محمد القيروانى الذى كان ملما بالعربية والغريب والشعر، وأيام العرب، وكانت الرحلة إليه من جميع البلاد^(١٦٨)، وكذلك أحمد بن إبراهيم اللؤلؤى القيروانى النحوى واللغوى الذى أحاط «بالغريب والحفظ، وشرح معظم دواوين العرب»^(١٦٩).

وجدير بالذكر أن من النحاة المصريين من درس- فى هذا الصدد - بالقيروان، وكان لهم تلامذة ومريدون يقبلون على دروسهم. ومن هؤلاء يحيى الوقار المصرى الذى زار إفريقية عام ٢٠٥هـ وعلم فيها ثم عاد إلى مصر وتوفى بها^(١٧٠).

ويبدو أن حرية الفكر فى القيروان كانت أرحب منها فى مصر حتى غدت إفريقية ملاذًا للمضطهدين من العلماء والمتصوفة فى الفسطاط، فالمتصوف «ذو النون» المصرى- الذى يعد من رواد التصوف الإسلامى- حين تعرض للاضطهاد فى مصر، فر لاجئًا إلى المغرب حيث وجد متنفسًا لآرائه وأفكاره^(١٧١)، ولا غرو فبلاد المغرب اكتسبت شهرة عريضة فى هذا الصدد، حتى عرفت بأنها بلاد الروابط والمرابطين وموئل الزهد والتعبد^(١٧٢)، واستهوى التصوف بعض أفراد البيت الأغلبى، فأبو عقاب بن غلبون المتصوف عاش بمصر زمنًا واشتهر فيها بأنه من «أولياء الله»^(١٧٣)، كما كان ربيع بن عبدالله القيروانى من «أهل التخلي والاتقطاع»^(١٧٤).

ويلغ من اهتمام العلماء المصريين بأمور المغرب وتياراته الفكرية وأحداثه السياسية درجة جعلت مؤرخًا مثل ابن عبد الحكم يخصص فصلًا كاملاً عن شمال إفريقيا فى كتابه الذى وضعه عن فتوح مصر^(١٧٥)، وليس من شك فى أنه استفاد من القادمين من إفريقية للتلمذ عليه فى إعداد هذا الكتاب.

١٦٨- السيوطى : بغية الوعاة ج ٢ ص ٦٥ .

١٦٩- نفسه ج ١ ص ٢٩٣ .

١٧٠- الديباج المذهب ص ١١٨ .

١٧١- أدب مصر الإسلامية ص ٦٥ ، ٦٦ .

١٧٢- حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٥ ، ٢٦ .

١٧٣- معالم الإيمان ج ٢ ص ١٤٩ .

١٧٤- نفسه ص ٢٠٠ .

١٧٥- أدب مصر الإسلامية ص ٨٧ .

ويخيل إلينا أن الكثيرين من التونسيين الذين وفدوا إلى مصر قد استهوتهم الإقامة بها، واستقر معظم هؤلاء في أقاليم مصر الغربية، وساهموا في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بدور بارز^(١٧٦).

كما يبدو أن بعض العرب من المصريين عاشوا في كنف الدولة الأغلبية، ويخيل إلينا أنهم كانوا من الحرفيين الذين ساهموا في إقامة العمائر والمنشآت الأغلبية، أو من الأطباء الذين عملوا في خدمة البلاط الأغلبى، كأبى يعقوب اسحاق بن سليمان الإسرائيلي طبيب زيادة الله الثالث^(١٧٧)، ولا يخفى أن مهنة الطب كانت مزدهرة في مصر آنذاك فقد تعددت مياديتها وتخصصاتها، كما تعددت وسائل العلاج حتى أن العلاج النفسى كان معروفاً لدى أطباء مصر الطولونية^(١٧٨).

ومن المؤكد أن هؤلاء الحرفيين والمهنيين المصريين قد نقلوا الكثير من تراث الفن العباسى الذى عبر مصر إلى إفريقية ليظهر واضحا جليا فيما أقامه الأغالبة من مساجد وقبور وموажل وقناطر وسدود وخزف، ولا يخفى أن الأغالبة والطولونيين أخذوا بأسلوب سامرا في الفن الإسلامى^(١٧٩).

وتنتج عن الاتصال البشرى بين مصر وإفريقية مؤثرات حضارية واجتماعية قنلت في ذلك التشابه الوثيق في العادات والأخلاق والشمائل بين أهل مصر وسكان إفريقية «لكثرة المترددين بينهم»^(١٨٠) «بحكم المجاورة»^(١٨١).

* * *

١٧٦- الولاة والقضاة ص ٢٤٣ .

١٧٧- Fournel : Op. cit . vol . 2 . 72 .

١٧٨- البلى : سيرة ابن طولون ٢٢١ ، حسن محمود ، حضارة مصر الإسلامية ص ٢٦٢ .

١٧٩- زكى حسن : فنون الإسلام ص ٥٦ .

١٨٠- ابن خلدون : المقدمة ص ٣٧١ .

١٨١- صبح الأعشى ج ٥ ص ١١٥ .

الباب الثالث الأغالبة ودول المغرب والأندلس

١- العلاقات السياسية

سبق القول بأن علاقة الأغالبة مع المشرق الإسلامي كانت في إطار الولاء للخلافة العباسية والارتباط بها، وكذلك فإن علاقاتهم مع دول المغرب والأندلس تأثرت بشكل واضح بعلاقة هذه الدول بالخلافة العباسية.

ولا ريب في أن عدااء دول المغرب والأندلس بوجه عام للخلافة العباسية كان عدااء صريحا يرجع لأسباب سياسية ودينية وعنصرية، إذ لا يخفى أن الأندلس انتزع عنوة من قبضة الخلافة على يد عبد الرحمن الأموي، ولم تنفض الخلافة يدها تماماً عن الأندلس رغم عدم قيامها بعمل إيجابى لاسترداده بعد فشل حملة العلاء بن مغيث، إنما ظلت تراودها أحلام عودة الدعوة لها على منابر قرطبة، وقد حاول الخليفة المعتصم - مثلاً - إعداد حملة لتحقيق ذلك الغرض لولا وفاته المفاجئة^(١).

كذلك اقتطع المذاربون إقليم تافيلالت عن سلطان العباسيين^(٢) وأنشأوا دولة الخوارج الصفرية سنة ١٤٠ هـ ولم يستطع ولاية الخلافة في المغرب استرداد هذا الإقليم، وقدر لهذه الدولة الاستمرار حتى أواخر القرن الثالث الهجرى.

أما بنو رستم فقد أقاموا دولتهم بالمغرب الأوسط سنة ١٦٠ هـ على أنقاض نفوذ الخلافة المتداعى، وراودت الآمال مؤسسها عبد الرحمن بن رستم في فتح المغرب كله^(٣)، ويبدو أن الخلافة العباسية أدركت هذه النوايا فعولت على عرقلة جهوده فأرسلت محمد بن الأشعث للقضاء عليه، لكنه فشل في الحيلولة دون قيام دولة الخوارج الإباضية^(٤)، وانعقدت آمال

١- السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٦٦.

٢- السلاوى: الاستقصاء فى أخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ١١١.

٣- ابن عيسى: كتاب الإمكان ص ٥٥.

٤- أبو زكريا: السيرة وأخبار الأئمة، ورقة ١١، الدرجينى: طبقات الإباضية ج ١ ورقة ١٧.

الخوارج على الدولة الرستمية فى تاهرت لتكون ركيزة لدولة كبرى تشمل المغرب والمشرق على السواء^(٥)، لهذا تفانى خوارج المشرق فى دعم حكم الرستميين بإرسال الأموال وتقديم المساعدات إليهم^(٦). وإذا كان عبد الرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب قد رضيا بمهادنة ولاية القيروان قبل قيام دولة الأغالبة، فكان ذلك لانشغالهما بالتمكين للدولة الناشئة، ودرج من جاء بعدهما على إشهار عداوتهم لبنى العباس.

ويعتبر قيام دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ نهاية للنفوذ العباسى فى المغرب الأقصى، وتهديداً مباشراً لإفريقية وما يليها شرقاً، فقد اجتمعت قبائل البربر على اختلافها^(٧) حول مؤسسها إدريس بن عبد الله وفضلهم تمكن من التوسع شرقاً وغرباً على حساب النفوذ العباسى. ويبدو أنه كان يرغب فى توحيد المغرب كله تحت لوائه^(٨)، ففى أقل من عامين دانت بلاد تامسنا وتادلا لسلطانه^(٩)، كما أخضع قبائل مندلاوة ومديونة وبهلولة وغياتة وبلاد فازاز^(١٠)، واتجه شرقاً فاستولى على تلمسان، وأخضع مغراوة وبنى يفرن^(١١)، ويعزى هذا النجاح إلى «كون إدريس ممثلاً للحق والبغض على العباسيين»^(١٢)، وشكل إدريس خطراً على بقية مناطق النفوذ العباسى فى المغرب الأمر الذى دفع الرشيد إلى الاعتراف بدولة الأغالبة لتكون «فى وجه إدريس بن إدريس وملوك طنجة أولاد إدريس بن إدريس»^(١٣). ولدينا ما يثبت رغبة الأدارسة فى مد نفوذهم حتى مصر نفسها.

٥- أهر زكريا : المرجع السابق ورقة ١٤ ، ابن خلون : العبرج ٦ ص ١٢٠ .

٦- الشماخى : سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ١٤١ ، البارونى الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٨٦ ، ٩٠ .

٧- ابن أبى زرع . الأئيس المطلوب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ٧ .

٨- ابن الخطيب : أعمال الأعلام قسم ٣ ص ١٧ حاشية ٢ .

٩- القرطاس ص ٧ .

١٠- نفسه ص ١٢٧ .

١١- مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ١٦ مخطوط.

١٢- Hopkins : medieval muslim government p. 4 .

١٣- الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٧ .

وقد نظر الخلفاء العباسيون إلى إفريقية كـرأس جسر لاستعادة نفوذهم فى المغرب والأندلس، أو على الأقل تغزو حصنا أماميا يحول دون تسرب نفوذ الأمويين والخوارج والشيعية شرقاً، ويخيل إلينا أن أمراء قرطبة قد فطنوا لذلك وخاصة عندما هالتهم قوة الأغلبية البحرية، ومن هنا انصرف اهتمامهم نحو الشؤون البحرية^(١٤).

وجرىا على سياسة الولاء للخلافة العباسية فقد عادى الأغلبة المدرايين، والرستميين والأدارسة وأموى الأندلس. فلنحاول شرح ذلك فى شىء من التفصيل.

أولا - الأغلبة وبنو مدرار :

من الطبيعى أن تكون علاقات الأغلبة ببنى مدرار امتداداً لعلاقات بغداد بسجلماسة. فـدولة الأغلبة التى قامت بإفريقية سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) كانت تدين بالولاء السياسى والتبعية الإسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتى. وحسبنا أنها كانت تمثل البقية الباقية لنفوذ الخلافة فى بلاد المغرب، وقاعدتها لاسترداد سلطانها المفقود فى هذه الجهات. ولاغرو فقد سمح الرشيد بقيام هذه الدولة حرصاً منه على استمرار نفوذه فى إفريقية من ناحية، واسترداد هذا النفوذ فى الأجزاء التى انسلخت عنه من ناحية أخرى؛ لو استطاع الأغلبة إلى ذلك سبيلاً^(١١). ومن ثم عادى الأغلبة أعداء الخلافة فى المغرب ومنهم بنو مدرار.

لكن الذى لاشك فيه أن هذا العداء لم يبلغ حد التنافر والتصارع بين الدولتين، فانصرف الأغلبة عن مشاكل المغرب لتحقيق أهدافهم التوسعية فى حوض البحر المتوسط. وربما كان وجودهم وسط حشد من الأعداء^(١٢)، دافعا لهم على تولية الظهر للقارة والاتجاه إلى البحر. ويدهى أن يخفف هذا الاتجاه من حدة عداثهم لبنى مدرار وخاصة أن الأخيرين كانوا بعيدين

١٤- . p. 120 . Reinaud : Invasions des Sarrazins en France .

١- الإصطخرى : ص ٣٧ ، p. 8 . Vonderheyden : Op cit.

٢- كانت دولة الأغلبة محاطة بكثير من القبائل المعادية سياسيا ومذهبيا، وهذه القبائل هى بنو يفرن الصفرية وأوروية الإدريسية العلوية، ولماية ونفوسة الإباضية الوهبة، وهوارة النكارية، وزواغة الخلفية، وكتامة الشيعية الإسماعيلية.

عن متناول خصومهم حيث قامت الدولة الرستمية حائلا بين الطرفين^(٣) وتعرضت بذلك للاحتكاك مع الأغالبة.

وإذا كانت دولة بنى مدرار قد سلمت من مناجزة أمراء القيروان وتطاولهم ، فذلك لايعنى انتفاء عداوتهم، أو بمعنى آخر لم يكن عدم قيام الحروب بين سجلماسة والقيروان دليلا على الود المتبادل كما ذهب فورنل^(٤) والحقيقة أن كلا من الطرفين لم يعبا بالآخر ، طالما لم يكن بوسعه أن يسير الجيوش لقتاله ومن ثم اتخذت عداوتهما طابع الإغفال وعدم الاكتراث .

ومن الخطأ أن يفسر ذلك على أنه استكانة من جانب بنى مدرار وقناعة منهم بالتبعية للأغالبة ، فقد ذهب ابن أبي دينار^(٥) إلى أن «السبع بن مدرار كان يحكم سجلماسة لبنى الأغلب» . ويخيل إلينا أنه استنتج هذا القول من حادثة القبض على عبيد الله المهدي بسجلماسة على إثر رسالة بعثها الأمير زيادة الله بن الأغلب وفقا لرواية بعض المصادر^(٦) ، أو أرفقها برسالة أخرى للخليفة العباسي في رواية أخرى^(٧) . ومعلوم أن الأمير المدرارى أقدم على سجن المهدي اتقاء للخطر الشيعي الذى هدّد دولته. لقد كان قبض السبع على المهدي وسجنه بسجلماسة من قبيل التوافق غير المقصود بين أهداف الخلافة والإمارة الأغلبية وبين مصالح الأسرة المدرارية التى تهددها خطر الشيعة ، ولايعنى هذا الحادث وجود أدنى نفوذ للأغالبة على أمراء بنى مدرار .

كان الخلاف السياسى والمذهبى بين الإماراتين الأغلبية والمدرارية يحول دون أدنى تقارب بينهما ، ولاغرو فقد هادن بنو مدرار جيرانهم الرستميين كيما يتفرغوا لمواجهة الأغالبة عدوهم المشترك، كما التقوا بأموى الأندلس للوقوف أمام أطماع الأغالبة فى المغرب والحيلولة دون تسربهم إلى ما وراء حدود إفريقية.

٣- انظر الخريطة .

٤- راجع : Les Berbers . vol . 2 . p. 22 .

٥- المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٤٩ .

٦- أنظر : شرح الأخبار ملحق (١) ص ٢٣ من كتاب Ivanova : Ismaili tradition ...

٧- أنظر : ابن خلدون : ج ٣ ص ٣٦٣ .

ولعل من أهم ما يبرز أسباب الجفوة والعداء بين المنداريين والأغالبة ما تعرض له الخوارج الصفرية من بطش واضطهاد فى القيروان ، فقد كان اعتناق المذهب الصفرى تهمة تصم صاحبها بالمروق والعصيان والزندقة^(٨) وعلى الرغم مما يقال^(٩) عن تسامح الأغالبة مع أهل المذاهب الأخرى بالقيروان ، فقد تعرض الصفرية - بوجه خاص - لاضطهاد شديد بعد ولاية سحنون قضاء القيروان - فقد حظر عليهم الاجتماع والصلاة فى المسجد الجامع^(١٠) ، وبدد حلقاتهم قيد^(١١) ، كما منعوا من مزاولة مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم^(١٢) ، وتعرض من خالف ذلك منهم إلى المزيد من البطش والتعنيف^(١٤).

كل ذلك قمين بأن يذكرى العداء بين بنى مدرار والأغالبة ، وينفى بشكل قاطع أى قول بوجود علاقات ودية بينهما ، كما يدحض الزعم القائل بتبعية أمراء سجلماصة لبنى الأغلب.

ثانيا : الأغالبة والرستميون :

يذكر بعض من عرضوا بالدراسة لتاريخ الأغالبة^(١٥) أن علاقتهم بالرستميين لم تتخذ طابعا عدائيا ، وأن كلا من الدولتين أدارت ظهرها للأخرى مكتفية بمجرد الدفاع عن الحدود

٨- أبو العرب قديم : طبقات علماء إفريقية ص ٨٠ .

٩- أنظر : حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ج ١ ص ٥٨ .

١٠- أبو العرب قديم : المرجع السابق ص ١٠٢ .

١١- المالكي : رياض النفوس ج ١ ص ٢٧٦ .

١٢- الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥٥ .

١٣- أبو العرب قديم : ص ١٠٢ .

١٤- نفس المصدر والصفحة .

١٥- Gautier , les Siecles obscurs du maghreb . p. 307 , Vonderheyden : Op. cit . p. 267 ,

Brunschvig : la Tunisie dans le haut moyen age p. 14 . Macraïs L'Afrique du Nord Française dans l'histoire . pp. 144 , 151 .

دائرة المعارف الإسلامية مادة بنى رستم ، مجلد ١٠ ص ٩٣ .

المشتركة، ويعزون ذلك إلى انشغال الأغالبة بالحرب فى صقلية^(١٦) بعد أن أمتوا جيرانهم^(١٧). يشير فنرهيدن^(١٨) إلى «عدم انصياع البربر فى إفريقية لمحاربة أولئك الذين كانوا زملاءهم فى السلاح بالأمس» ، كما يؤكدون أن الرستميين لم يقوموا بعمل عدوانى ضد الأغالبة لما اشتهروا به من التقوى والمسألة وعدم الاهتمام بما يدور خارج حدودهم^(١٩) ، وانصرافهم إلى شؤونهم الداخلية^(٢٠).

والحقيقة أن دراسة مصادر تاريخ الخوارج تدل على غير هذا، وتؤكد ما كان لبنى رستم من أغراض توسعية، مصداق ذلك استيلائهم على المناطق الأغلبية المجاورة لطرابلس فى عهد الإمام عبد الوهاب ، وقيام ابنه الإمام أفلح بإحراق مدينة العباسية، وإثارة أئمة تاهرت القلاقل فى وجه أمراء القيروان، وعقدهم المحالقات مع الأمويين فى الأندلس^(٢١). كما حرص الأغالبة

١٦ - Gautier : Op. cit. p. 307 , Brunschwig : op. cit. p. 14 .

١٧ - Huart : Histoire des Arabes. vol I. p. 321 .

١٨ - La berberie orientale . p. 268 .

١٩ - Ibid . 267 .

٢٠ - Marcais : Op. cit . p. 144 .

٢١ - عادى كل من الرستميين وأمويى الأندلس الخلافة العباسية، فمؤسس كل من الدولتين فر من مذابح العباسيين وأسس دولته فى ظروف عصيبة ، ويعتقد بعض المؤرخين أن التحالف بينهما ما هو إلا امتداد للتحالف القديم بين الأمويين وزناتة (أنظر : Fournel : Op. cit . vol . I. p. 514, Vonderheyden : (أنظر : p. 266) .

بينما يذهب غيرهم إلى أن كراهية الأمويين للأداسة وحرصهم على إضعافهم جعلهم يتقربون إلى بنى رستم (أنظر : السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص ٥٦٩ حاشية ١) . ويبدو أن الرستميين عولوا على الاتجاه إلى الأندلس لوجودهم بين عدوين شرقا وغربا، هما الأغالبة والأداسة (أنظر : Provencal : Op. cit . vol . I. p. 171) .

ومهما يكن من أمر فلا شك فيما حدث بين الدولتين من ألفة وود . ونتحفظ فنقول بأن العلاقات الودية بين تاهرت وقرطبة لم تصل إلى درجة التحالف الرسمى، إنما أقصى ما وصلت إليه كان مجرد تبادل السفارات والهدايا، فضلا عن الصلات التجارية والثقافية، هذا على الرغم من تعرض الدولة الرستمية لإغارات الأغالبة والأداسة ، وتهديد الأساطيل الأغلبية للنفوذ الأندلسى فى حوض البحر المتوسط الغربى.***

على الكيد للدولة الرستمية وإثارة المتاعب في وجه أئمة تاهرت ، والاعتداء المباشر على جبل نفوسة معقل الخوارج الإباضية، ومقاطعة دولتهم تجاريا وثقافيا . كل ذلك يدل على أن الأغالية سلخوا في علاقاتهم مع الرستميين مسلحا عدائيا ، تمشيا مع سياستهم في معاداة أعداء الخلافة العباسية. وكانت تلك العداوة تذكيتها الاختلافات الدينية والمذهبية ، فالأغالية كانوا سنة ومذهب مالك ساد دولتهم ، والمالكية أشد أرياب المذاهب بغضا للنحل المتطرفة ، بينما انتمى الرستميون إلى مذهب الخوارج الإباضية الذي يقول بتكفير مخالفيه^(٢٢) . يضاف إلى ذلك تشابك الحدود^(٢٣) بين الدولتين، وعدم وضوح معالمها ، حيث أحاطت دولة الرستميين بإفريقية الأغلبية من الجنوب والشرق والغرب مما زاد في فرص الاحتكاكات بينهما .

= وفي إيجاز يمكن أن نعرض لمظاهر الود والألفة من خلال الإشارات العابرة التي وردت عند المؤرخين .
 ففي سنة ٢٠٧ هـ زار بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الأندلس، وأنفق عليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم ألف دينار (أنظر : ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٨) .

وتوطدت العلاقات بين الطرفين في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي الذي كان له نفوذ عريض في البلاط الرستمي (أنظر ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٢ ، Dozy : Op. cit. p. 317) حتى أن محمد بن أفلح صاحب تاهرت كان يستشير صديقه الأمير محمد بن عبد الرحمن في أموره ومعضلاته (أنظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٦) .

وازدهرت العلاقات التجارية بين الدولتين ، وغص ميناء مرسى فروع الرستمي بالسفن الأندلسية . (أنظر البعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٥٣ ، Provencal : Op. cit vol . I. p. 245 .)

كما وجدت جالية أندلسية كبيرة في تاهرت (أنظر : ابن القوطية : تاريخ فتح الأندلس ص ٩١ ، ٩٢ ، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٥٧١) ويشهد على وجودها تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم «باب الأندلس» (أنظر : البكري : المغرب ص ٦٦) .

عن مزيد من التفصيلات راجع كتابنا عن الخوارج في المغرب الإسلامي.

٢٢- عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٠٣ .

٢٣- من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية ، فالمصادر لا تشفى غلة في هذا الصدد، ومع ذلك يمكن تصور مناطق النفوذ الرستمي على النحو التالي:

كانت تاهرت مركزا وحاضرة للدولة (أنظر : الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ ، إيشهورن : ذكر بلاد المغرب ص ١٠) وحدا لها في الغرب، بينما شكل جبل نفوسة حدا الشرقي، وخضعت واحات قسطنطينية وبلاد

كما أن رعايا الرستميين من القبائل البدوية^(٢٤) الذين تركزوا في القرى الجبلية والواحات كانوا دائمى الترحال حسب الظروف الطبيعية، الأمر الذى أدى إلى ضرورة خلافهم مع الأغالبة .

والواقع أن الأغالبة لم يشكلوا خطراً مباشراً على تاهرت، لبعدها عن إفريقية بمسيرة شهر على ظهور الإبل^(٢٥)، إنما ركزوا جهودهم فى منطقة طرابلس وجبل نفوسة التى أصبحت مسرحاً للحروب والفتن^(٢٦)، ذلك أن إفريقية كانت دائماً تهددها إغارات النفوسيين^(٢٧) والخوارج القاطنين بإقليم طرابلس وعدتهم ثلاثمائة أسرة^(٢٨).

= الجريد فى الأقاليم الجنوبية من إفريقية لسلطان أئمة تاهرت فى بعض الاحيان، وكذلك جبل أوراس فى غرب إفريقية (أنظر : البكرى: المغرب ص١٤٤) كما مارس الرستميون نفوذاً على قفصة وما يليها ، وسرت ونواحيها ، ونفزاوة وقنطرة ، ومدينة قابس وجبل دمر (أنظر البارونى: المرجع السابق ص١٦٥) . فدولة الرستميين من ثم كانت تحيط بدولة الأغالبة (أنظر : Gautier : Op. cit . p. 301) حيث مست حدودها جنوبى تونس وما حول طرابلس (أنظر : اليعقوبى : المرجع السابق ص٣٤٥ ، Marcias : Op. cit . p. 144) فى حين بقيت مدينة طرابلس ضمن أملاك الأغالبة، (أنظر : الإصطخرى : المرجع السابق ص٣٣ ، الأنصارى : تاريخ طرابلس الغرب ورقة ٤ مخطوط) بينما اختلط رعاية الدولتين فى المنطقة المجاورة لطرابلس (أنظر : اليعقوبى : المرجع السابق ص٣٤٥) . ويبدو أن نفوذ الرستميين امتد إلى ما وراء طرابلس شرقاً بما حدا بأحد المؤرخين إلى القول بأن مذهب الإباضية «اتصل إلى قريب من الاسكندرية» (أنظر : ابن عيسى : كتاب الإمكان ص١١٣) ، وإذا كانت بعض أملاك الأغالبة قد فصلت بين تاهرت وجبل نفوسة (أنظر : البارونى : المرجع السابق ص١٦٩) «دار الهجرة» للخوارج الإباضية ، (أنظر : ابن حوقل : المسالك والممالك ص٦٨) فإن مدينة قابس الرستمية قد فصلت بين طرابلس وموانئ الساحل الإفريقى. (انظر : البارونى : المرجع السابق ص١٦٥) .

٢٤- كتاب الاستبصار ص١٧٩ .

٢٥- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٨٨ .

٢٦- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٧٧ .

٢٧- Brockman : Op. cit , p. 150 .

٢٨- Idris : Contribution a l'histoire de l'ifrikiya : Revue des etudes Islamiques , 1935 .
p. 199 .

وقد حدث أول احتكاك بين الأغلبية والرستميين زمن الأمير إبراهيم بن الأغلب، وكان معاصرا للإمام عبد الوهاب الذى خلف والده عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧٢هـ، وسيبه أن يربر هواره الإباضية ما فتنوا يثيرون الاضطراب والفتن فى وجه ولاية طرابلس من قبل الأغلبية ، وكانوا يصطنعون هذه الاضطرابات للانفصال عن الأغلبية، والانضمام للرستميين (٢٩). ويخيل إلينا أن عبد الوهاب بن رستم هب لتحقيق بغيتهم مستعينا بقوة نفوسة رغم ما تسوقه مصادر تاريخ الخوارج (٣٠) من تبرير تقدمه صوب الشرق بعزمه على أداء فريضة الحج، وتضيف هذه المصادر أن نفوسة أشارت عليه بالبقاء خوفا من مكائد العباسيين، وتبرر اشتراكه فى حرب بنى الأغلب برغبته فى إنقاذ هواره من بطش عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب «لما فى إغاثة القادر للمظلوم من الثواب الجزيل» . وقد أوضح أحد مؤرخى (٣١) الخوارج حقيقة الموقف فذكر أن الإمام «نزل على مدينة طرابلس محاصراً لها، ومحاولا دخولها فى الطاعة ، والمصير إلى ما عليه أهل الحق»، وفى ذلك دليل قاطع على أهداف الرستميين التوسعية فى الأراضى الأغلبية ، ولم يكن خروج الإمام لرغبة فى أداء فريضة الحج؛ إذ ليس من المعقول أن يبتى خارج تاهرت قرابة سبع سنوات ينتظر فتوى شيوخ المذهب «بأنه لاجب عليه لأن من شرط الحج أمان الطريق» (٣٢)، والمؤكد أنه ظل خلال هذه المدة يعد العدة للتوسع على حساب الأغلبية.

فقد واصلت هواره ثورتها على الأغلبية سنة ١٩٦ هـ (٣٣)، فاستنجد عاملها بالقيروان بإبراهيم بن الأغلب الذى أرسل ابنه عبدالله على رأس جيش عدته ثلاثة عشر ألف فارس تمكن من التنكيل بالبربر «وقتل منهم خلق كثير»، ودخل عبدالله طرابلس وحصن سورها (٣٤).

٢٩- . Vonderheyden : Op. cit. p. 39 .

٣- . أنظر: كتاب المسيرة ورقة ٢٣ ، سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ١٥٩ ، طبقات الإباضية ج ١ ورقة

٢٩ ، ٣٠ ، الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٤٥ .

٣١- طبقات الإباضية ج ١ ، ورقة ٣٠ .

٣٢- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩١ .

٣٣- أوود ابن خلون خطأ- كالمعادة فيما أورده من تواريخ دولة الأغلبية- بأن هذه الحادثة وقعت عام

١٧٦هـ . أنظر العبر ج ٦ ص ١٢١ .

٣٤- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 41 .

وتحرك ابن رستم على رأس جيش كبير من نفوسة لقتال عبدالله فى طرابلس ، ثم ضرب الحصار على المدينة^(٣٥)، ولكن عبدالله أغلق جميع أبوابها ، وياشر القتال من باب واحد ، فلم يستطع الرستميون اقتحامها ، وفقدوا بعض مشاهير رجالهم^(٣٦) أثناء الحصار . ويخيل إلينا أن قتل الرستميين فى اقتحام طرابلس يعزى إلى افتضاح خطتهم، ومعرفة القائد الأغلبى بها عن طريق بعض رجال نفوسة^(٣٧)، فأحبط محاولتهم واتخذ سياسة الدفاع. وكاد الإمام عبد الوهاب أن ينسحب ويعود أدرجه لولا وفاة الأمير ابراهيم بن الأغلب فجأة ، فأرسل ابنه زيادة الله إلى أخيه عبدالله يسأله القدوم لتولى الإمارة، ووقع الرسول والكتاب فى أيدي الرستميين^(٣٨)، فأصروا على مواصلة القتال حتى اضطر عبدالله إلى طلب الصلح «على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب»^(٣٩)، ويعنى ذلك دخول هوارة ومن معها من القبائل فى دائرة نفوذ الإمام الرستمى^(٤٠)، فاستجاب عبد الوهاب لشروط الصلح، وعاد إلى جبل نفوسة بعد أن ولى العمال على النواحي الجديدة^(٤١)، ومضى عبدالله إلى القيروان^(٤٢).

انصرف الأغلبة الأول إلى مواجهة ثورات الجند فى إفريقية ، ثم إلى الجهاد فى صقلية ، فلم يتمكنوا - إلى حين- من تصحيح الوضع على حدودهم الشرقية بمواصلة النضال مع

٣٥- الكامل ج ٥ ص ١٥٧ .

٣٦- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ١٦٠ .

٣٧- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٤٥ .

٣٨- الكامل ج ٥ ص ١٥٧ .

٣٩- نفس المصدر والصفحة ، الشماخى : المرجع السابق ص ١٦١ .

٤٠- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٤٦ .

٤١- يذكر البارونى أن ميناء قابس دخل فى حوزة الرستميين، فقد أرسل الإمام قائده قفطان بن سلمة الزواتى فى عسكر إليها، فاستولى عليها عنوة . (أنظر : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٤٧) ولو صحت هذه الرواية فتعنى أن الامام عبد الوهاب لم يحترم حرمة المعاهدة مع عبدالله الأغلبى، أكثر من ذلك انتهازه عودة ابن الأغلب إلى القيروان فاستولى على جزيرة جربة.

أنظر : الشماخى ص ١٦١ ، البارونى : ص ١٤٧ .

٤٢- العبر ج ٦ ص ١٢٢ .

الرستميين ، وكذلك شغل الرستميون فى نفس الوقت بمشاكلهم الداخلية المتمثلة- بصفة خاصة- فى النزاع حول الإمامة^(٤٣) وما ارتبط به من فتن وثورات.

والحق- أن الدارس للأوضاع الداخلية للدولة الرستمية لا يعدم وجود ما يشير إلى وضوح طابع العداء فى العلاقات الرستمية العباسية ، وبالتالى فى علاقات الأغلبية مع الرستميين ، وفى عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذى خلف والده بعد وفاته سنة ٨-٢٠هـ^(٤٤) اندلعت الفتن والثورات، كثورة خلف بن السمع الذى رفض الاعتراف بإمامة أفلح ، وفتنة فرج النفوسى المعروف «بنقات»^(٤٥).

أما الثائر نقات، فإنه لما أخفقت حركته لم يجد مخرجاً سوى الهروب إلى المشرق قاصداً بغداد ، فرحب الخليفة العباسى بمقدمه^(٤٦)، وهذا يوضح دور الخلافة فى الكيد للرستميين، هذا الدور الذى يؤكد ما حدث من القبض على محمد بن الإمام أفلح وسجنه فى بغداد فى عهد الخليفة الواثق^(٤٧).

ومن المحتمل أن يكون العباسيون - وقد هالهم تقرب الرستميين من الأندلسيين - أوعزوا إلى الأغلبية بالاعتداء عليهم ، وفى سنة ٢٣٩هـ^(٤٨) أنشأ الأمير محمد بن الأغلب مدينة قبالة تاهرت سماها «العباسية» وأحرقها الإمام أفلح بن عبد الوهاب^(٤٩). وقد تضاربت

٤٣- كتاب السيرة ورقة ٢٤ وما بعدها .

٤٤- ذكر الدكتور سعد زغلول عبد الرحمن أن الإمام عبد الوهاب توفى سنة ١٨٨هـ . أنظر : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٢ . والواقع أن الإمام عبد الوهاب اشترك فى حصار طرابلس ضد عبدالله بن الأغلب سنة ١٩٦هـ مما يؤكد وفاته بعد هذا التاريخ .

٤٥- أبو زكريا : ورقة ٣٠ ، الازهار الرياضية ، ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها .

٤٦- نفس المصدر ص ٢١٠ .

٤٧- نفس المصدر ص ٢٢١ .

٤٨- ذكر ابن خلدون أن إنشاء المدينة كان سنة ٢٢٧هـ . أنظر : العبرج ٤ ص ٢٠١ ، وأخذ عنه الدكتور السيد عبد العزيز سالم . أنظر : المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٩٤ ، ٥٦٨ . وإذا علمنا أن الأمير محمد الأغلب تولى الإمارة سنة ٢٢٧هـ . فمن المستبعد أن يكون بناء المدينة وإحراقها ثم فى عام واحد.

٤٩- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

أقوال المؤرخين حول دوافع إنشاء المدينة ، وكذلك أسباب إقدام الإمام الرستمي على إحراقها ، فمن قائل^(٥٠) بأن إنشاء العباسية مرتبط بأشد الارتباط بما جرى عليه الأمير محمد بن الأغلب من سياسة الاهتمام بأمور المغرب ومعاداة الرستميين ، فأنشأ العباسية لتكون قاعدة للهجوم على عاصمة الدولة الرستمية ، بينما يذهب آخر^(٥١) إلى أن إنشاء المدينة كان لسبب اقتصادي مؤداه أن تحتل مكانة تاهرت التجارية . والواقع أن كلا التفسيرين مقبول ، ويمكن أن نضيف إليهما حرص الأمير الأغلب على تأديب الفارين من رعاياه الذين أقاموا بتاهرت^(٥٢) ، وعاشوا في أحد أرباضها ، وعكفوا على إثارة المتاعب على الحدود مع الأغلبية^(٥٣) .

ومهما يكن من أمر فقد أسس الأمير محمد الأغلب مدينته الجديدة لتقف في وجه الرستميين ، « ورتب أسواقها على نسق عجيب ، وترتيب غريب »^(٥٤) ، ولم يقف الإمام أفلح بن عبد الوهاب مكتوف اليدين حيال هذا الخطر ، فأضرم فيها النيران^(٥٥) ، وأرسل إلى الأمير محمد - أمير الأندلس - يخبره بذلك ، فكافأه بمائة ألف درهم^(٥٦) .

ورد الأمير الأغلب على إحراق العباسية بتدبير المكائد للإمام أبي بكر بن أفلح الذي تولى الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ٢٤٠ هـ ، وتمكن عن طريق صنائعه في تاهرت من إثارة العراقييل في وجه الإمارة الرستمية . يروي صاحب الازهار الرياضية^(٥٧) أن شخصا يدعى خلف الخادم - مولى بنى الأغلب - استطاع عن طريق بذل الأموال إثارة الشقاق بين سكان تاهرت ، فانقسموا إلى معسكرين ، الإمام وأنصاره من العجم والنفوسيين في جانب ، والجنود والعرب في جانب

٥٠ - Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale vol. I. p. 285 .

٥١ - السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٦٨ .

٥٢ - الشماخي : ص ١٤٠ ، دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١٠ مادة بنى رستم ص ١٩٤ .

٥٣ - الازهار الرياضية ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

٥٤ - نفس ص ١٨٩ .

٥٥ - العبر ج ٤ ص ٢٠١ ، . Fournel : Op. cit. vol. I. p. 513 .

٥٦ - الكامل ج ٥ ص ٢٦٣ ، فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

٥٧ - الباروني : ج ٢ ص ٢٢١ .

آخر، ونجح مولى بنى الأغلب فى تحريض العرب والجنود، فأحرقوا درب النفوسيين فى تاهرت^(٥٨). وبالرغم من جهود الإمام أبى بكر فى رأب الصدع، وقضائه على الحزب المتناوى فى عدة مواقع، فإن الخلافات والفتن ظلت مستشرية، حتى قضى عليها خليفته وأخوه أبو اليقظان محمد^(٥٩) بعد سبعة أعوام من إمامته^(٦٠).

ونعتقد أن ما وقع من اضطرابات على حدود دولة الأغالبة الشرقية بناحية طرابلس كان من تدبير الإمام أبى اليقظان، إذ يذكر ابن خلدون^(٦١) أنه فى عهد الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٤٢-٢٤٩هـ) ثار خوارج البربر من الإباضية فى طرابلس سنة ٢٤٥هـ، وهزموا عاملها، ولم يرتدعوا إلا بعد أن رماهم إبراهيم بن أحمد بجيش جعل على رأسه أخاه زيادة الله، فنكل بالتوار.

وهكذا تبادل الأغالبة والرستميون المكائد والدس لإحداث الشقاق والفتن وعرقلة الجهود.

وما حدث فى سنة ٢٦٩هـ من اشتراكهما معا فى مواجهة حملة العباس بن أحمد بن طولون لم يكن نتيجة تحالف أو تعاون مشترك، ولم يسهم النفوسيون - أتباع بنى رستم - فى المعركة «إنقاذاً لطرابلس وبنى الأغلب من ظلمه» كما يروى البارونى^(٦٢)، بل حدث ذلك لما تهدد الجانيين من خطر العباس، فحين قدم العباس بحملته على لبدة، وقتل عاملها الأغلبى^(٦٣)، لم يتورع عن البطش بالإباضية التابعين لإلياس بن منصور النفوسى^(٦٤)، وتعدى بعض سودانه على بعض حرم البوادي^(٦٥)، وهاكوا الحجب^(٦٦)، فاستعانوا بإلياس بن منصور. وسواء

٥٨- نفسه ص ٢٣٢.

٥٩- تولى الإمامة سنة ٢٤١هـ.

٦٠- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٣٧.

٦١- المبرج ٤ ص ٤٣١.

٦٢- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٥٥.

٦٣- ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ٦٠.

٦٤- الولاة والقضاة ص ٢٢٢.

٦٥- يلاحظ أن الساحل كله يخضع للأغالبة بينما كانت البادية تدين لسلطان بنى رستم.

٦٦- البيان المغرب ج ١ ص ١٠١.

أكان هؤلاء المستغيثون من البربر القاطنين بطرابلس كما يروى ابن عذارى^(٦٧)، أو من الضارين في أحوازها كما يجمع بقية المؤرخين^(٦٨)، فالثابت أنهم كانوا من رعايا الدولة الرستمية. أضف إلى ذلك أن ابن طولون قبل سيره من برقة بعث برسله إلى زعيم نفوسة يدعو للطاعة، ويعدده وينذره إذا لم يستجب لطلبه^(٦٩)، وعلى ذلك فقد فرض على النفوسى درأ الخطر الطولونى دون ارتباط بالأغالية، يؤكد ذلك التحام الجيش الأغلبى مع العباس قبل وصوله إلى طرابلس منفرداً^(٧٠)، «فلما كان اليوم التالى، وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثنى عشر ألفاً من الإباضية»، واشترك الجيشان فى قتال العدو المشترك، ولم يحصل النفوسيون على شىء من الغنائم التى خلفتها الحملة الفاشلة، بل استأثر الأغالبية بها^(٧١). ولو كان هناك اتفاق مشترك مسبق لاقتسم الطرفان الغنيمة.

وبعد مرور ستة أعوام على ذلك الحادث الذى قاتل فيه العلوان جنباً لجنب، أعمل الأغالبية القتل فى رجال نفوسة فى إمامة أبى حاتم يوسف بن محمد الذى خلف والده أبا البيقطان محمد سنة ٢٨١هـ. وقد اختلف المؤرخون حول أسباب حملة إبراهيم بن أحمد هذه، وقد أوضحنا ذلك فى دراستنا للعلاقات الأغلبية المصرية، وانتهينا إلى أن الحملة توجهت إلى مصر بهدف الانتقام، فاعترضت نفوسة بجيشها البالغ ٢٠ ألف مقاتل^(٧٢) طريق إبراهيم بن أحمد سنة ٢٨٣هـ. عند موضع يقال له «مانو» وهو قصر قديم بين قابس وطرابلس^(٧٣)، ورفض القائد النفوسى أفلح بن العباس مرور الجيش الأغلبى فى طريقه إلى مصر، فدارت معركة رهيبة راح ضحيتها اثنى عشر ألفاً من الإباضية من بينهم أربعمائة من العلماء^(٧٤)، وهرب أفلح

٦٧- نفسه ص ١٥٨.

٦٨- ابن الأثير : ج ٦ ص ٢١، ابن الداية : المرجع السابق ص ٦١، ابن خلدون : ج ٤ ص ٣١، التويرى : ج ٢٦ ورقة ٧.

٦٩- ابن الداية : المرجع السابق ص ٦١، الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٧.

٧٠- ابن الداية : نفس المصدر والصفحة.

٧١- البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨، سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ٢٢٥.

٧٢- ابن عذارى : ج ١ ص ١٧٣.

٧٣- الأزهار الرياضية : ج ٢ ص ٢٨١.

٧٤- كتاب السيرة ورقة ٣٤، طبقات الإباضية ج ٦ ورقة ٤٠.

بن العباس ببقية جيشه مدحورا ، وزحف ابن الأغلب إلى قنطرة فباغتتها ، ونكل بسكانها وأسر ثمانين من علمائها (٧٥) ، كما عرج على نفزاوة ، فلاقت نفس المصير (٧٦) .

قصارى القول : أن نفوسة التى شكلت عصب الدولة الرستمىة ودرعها ، انهارت بعد هذه المعركة ، وبانهيارها تداعت الدولة الرستمىة (٧٧) ، ذلك أن أهل الجبل عزلوا أفلح بن العباس وولوا غيره ، فساد الاضطراب جبل نفوسة ، ولم تستطع إرسال الإمدادات لتاهرت (٧٨) وشجعت حالة الفوضى هذه أمير القيروان على إرسال جيش آخر إلى نفوسة فى رجب سنة ٢٨٤هـ ، نكل بالرجال واستباح النساء ، وعاد محملا بالأسرى (٧٩) ، وقد ذبحوا واستخرجت قلوبهم من صدورهم وعلقت فى حبال على باب تونس (٨٠) . ولم يستطع إمام تاهرت أن يحرك ساكنا لمساعدة أنصاره فى محنتهم ليعد المسافة (٨١) ، فانهارت نفوسة ، وانهارت معها دولة الرستميين .

ويخيل إلينا أنه لولا ما جرى فى هذه الأثناء من عزل إبراهيم بن أحمد ، وتوجهه إلى صقلية ، لوجه ضررته التالية نحو تاهرت قلب الدولة الرستمىة ، ولم يتسن لأحد من خلفائه القيام بهذا الدور نظرا لما أصاب دولة الأغلبية ذاتها من انهيار ، وانصراف الأمراء الأواخر لمجابهة الخطر الشيعى . وقد حدث هذا فى إفريقية بينما كانت دولة بنى رستم تحتضر فى عهد الإمام اليعقظان بن أبى اليعقظان الذى تولى الإمامة سنة ٢٩٤هـ (٨٢) . لذلك يمكن القول بتشابه أحوال الدولتين الأغلبية والرستمىة فى ظروفهما الأخيرة ونهايتهما . فزيادة الله الثالث عانى فى بداية حكمه من الفتن الداخلية التى تعزى إلى الصراع حول الإمارة ، ولم يصف له الجوى إلا

٧٥- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ٦٩ ، الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٨٢ .

٧٦- كتاب السيرة ورقة ٣٤ ، طبقات الإباضية ج ١ ورقة ٤ .

٧٧- الدرجيني : نفس المصدر ورقة ٤١ .

٧٨- البارونى : الأزهار الرياضية ص ٢٨٠ .

٧٩- سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ٢٦٩ ، البارونى : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

٨٠- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٤ .

٨١- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٢٨٦ .

٨٢- البارونى ص ٢٩١ .

بعد قتل منافسيه من أعمامه وأخيه عبدالله الأحول (٨٣). وأقدم أبو اليقظان محمد على قتل أخيه أبي حاتم من أجل الوصول إلى الإمامة ، ضاربا صفحا عن السخط الشديد الذي سببه هذا العمل (٨٤)، كذلك تعرضت الدولتان للخطر الشيعة الذي أسقطهما في عام واحد، فاختلفت إمارة الأغلبية ودولة الرستميين سنة ٢٩٦ هـ (٨٥).

ثالثا : الأغلبية والأدارة :

اتخذت العلاقات الأغلبية الإدارية طابعا عدائيا أيضا ، فلم يحافظ الأغلبية من جانبهم على علاقة حسن الجوار مع جيرانهم العلويين ، ويادعواهم بالعنوان ، واكتفى الأدارة بتشجيع الفارين من إفريقية على الاستيطان بدولتهم نكابة في الأغلبية. حقيقة لم يقم الأمراء الأغلبية بأى عمل حربي من شأنه إسقاط دولة الأدارة ، لكنهم تمكنوا عن طريق الدس وتدبير المكائد من إثارة العراقيين في وجه حكامها .

وينفى ذلك ما ذهب إليه بعض الباحثين (٨٦) من أن الدولتين «عاشتا في سلام متبادل» ، أو أنهما ارتبطتا «بعلاقات طيبة أشبه ما يسمى حاليا بالتعايش السلمي، والحفاظ على حسن الجوار» (٨٧)، إذ الملاحظ تأثر الأغلبية بولائهم للخلافة العباسية في علاقاتهم مع الأدارة . ويرى الدارس لتاريخ دولة الأدارة مدى الارتباط بين قيامها ومناهضتها لبنى العباس، بل وتشكيلها خطرا على إفريقية وما يليها شرقا. وليس ببعيد ما ذكره فتندرهيدن (٨٨) من أن الاتفاق بين الرشيد وإبراهيم بن الأغلب أنطوى على تعهد من إبراهيم ببذل قصارى جهده في ضم المغريين الأوسط والأقصى إلى إمارته، أو على الأقل منع النفوذ العلوي من التسرب صوب الشرق. وقد ازداد خطر الأدارة بعد فتحهم تلمسان «وهى باب إفريقية، ومن ملك

٨٣- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٣ .

٨٤- الباروني ص ٢٩١ .

٨٥- البكري : المغرب ص ٦٨ .

٨٦- أنظر : . Biquet : Op. cit. p. 51 .

٨٧- أنظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص- ٤٥ .

٨٨- La Berberie Orientale . p. 260 .

الباب أوشك أن يدخل الدار» (٨٩)، فقد استولى إدريس على موارد هائلة وأصبح لديه من الرجال ما يمكنه من تحقيق أغراضه ليصبح بحق «الإمام الأكبر وصاحب المغرب» (٩٠).

ولما أدرك الرشيد هذه الأهداف ، ولم يكن بإمكانه تجنيد جيش لقتال الأدارسة بسبب بعد المسافة، واضطراب أحوال إفريقية ، عول على اغتيال إدريس بن عبدالله، واختار سليمان بن جرير (٩١) المعروف بالشماخ ليقوم بالمهمة ، وبفضل ما اشتهر به الشماخ من لباقة وعلم (٩٢)، استحوذ على حب إدريس فاتخذة خليلا وصفيًا ؛ وانتهاز الشماخ فرصة اختلى فيها به فدى له السم (٩٣). والذي يهنا في هذا الصدد ما يذكر عن مساهمة إبراهيم بن الأغلب واشتراكه في تدبير اغتيال إدريس الأول، إذ يقول ابن الأبار (٩٤): «... فلما ولي الرشيد دس إلى إدريس من أنس به ، واطمأن إليه ، وكتب له كتابا إلى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية فاحتال حتى سمه . ولما نجح الشماخ في مهمته «... وطلب فلم يقدر عليه، وقدم على إبراهيم بن الأغلب فأخبره ، فكتب إبراهيم إلى الرشيد بذلك . كما يذكر ابن أبي دينار (٩٥) وصاحب كتاب الإمكان (٩٦) «إن الرشيد بعث إلى عامله بالقيروان إبراهيم بن الأغلب ، فبعث إلى

٨٩- القرطاس ص ٨ .

٩٠- الكتامي : الأزهار العطرة الأنفاس ص ٣٣ .

٩١- البيان المغرب ج ١ ص ١٠١ . وقد اختلفت الروايات حول اسم سليمان هذا، فقليل سليمان بن جرير البجلي، أنظر : مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ١٦ مخطوط ، وقليل سليمان الجزري . أنظر : البكري : المغرب ص ١٢ .

٩٢- اشتهر سليمان بسعة علمه وإطلاعه حتى قيل بأنه «متكلم الزيدية». أنظر : المغرب ص ١٢ .

٩٣- بالرغم من اتفاق المؤرخين على موت إدريس الأول مسموما ، فإنهم اختلفوا حول الطريقة التي سم بها ، فالبكري وابن أبي زرع ذكرا أن الشماخ دفع إلى إدريس بمقارورة فيها سم فمات . أنظر : المغرب ص ١٢٠ ، القرطاس ص ٩٠ . أما ابن الخطيب فيقول بأنه سم في دلاعة (تفاحا) . أنظر : أعمال الأعلام قسم ٣ ص ١٩٢ . ويتفق ابن عذاري وابن خلدون على أن إدريس تناول دواء مسموما لتطبيب أسنانه . أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٠١ ، العبر ج ٤ ص ٧ .

٩٤- الحلة السيرا ص ٢٣٣ .

٩٥- المقتس ص ٩٩ .

٩٦- ابن عيسى : ص ٨١ .

إدريس من اغتاله». وذكر ابن خلدون^(٩٧) ما نصه : «.. فشد إليه الرشيد (إلى إدريس) مولى من موالى المهدي وأنفذه بكتاب إلى ابن الأغلب فأجازه».

ورواية ابن الأبار تنطوي على وهم بين ، ذلك أن إبراهيم بن الأغلب لم يكن قد تقلد الإمارة بعد ، ووصل الشماخ إلى إفريقية وواليتها يومئذ نصر بن حبيب المهلبى ، بينما كانت ولاية الزاب للعلاء بن سعيد ، ولم يقدر لإبراهيم بن الأغلب الظهور على مسرح الأحداث فى إفريقية قبل عام ١٧٩هـ ، حيث أسند إليه هرثة بن أعين ولاية الزاب فى ذلك العام. لهذا أيضا لا يمكن الأخذ برواية كل من أبى دينار وابن عيسى ، فهى فضلا عن ذكرها أن إبراهيم بن الأغلب كان واليا على القيروان، تنكر مسألة إرسال الرشيد للشماخ ، وتصور الأمر على أن إبراهيم بن الأغلب تصرف بحض إرادته فى اختيار الشخص الذى ناط به تنفيذ اغتيال إدريس .

أما رواية ابن خلدون فتبدو أقرب للمصدق ، فهى لا تذكر أن إبراهيم بن الأغلب كان يلى إفريقية ، ولا تنكر إرسال الرشيد للشماخ ليضطلع بالمهمة ، بينما تؤكد دور إبراهيم بن الأغلب فى المؤامرة ، وتقصره على «إجازة» الشماخ إلى بلاد المغرب الأقصى .

وفى تصورنا - أن هذا الدور يمكن التسليم به دون شك ، فليس من المعقول أن يبعث الرشيد أحد رجاله لاغتيال إدريس دون استرشاد بخبرة ورأى رجاله فى المغرب، فالشماخ فى حاجة لأن يتزود بالمعلومات عن أحوال الدولة الإدريسة وظروفها ، وطريق الوصول إليها. أما لماذا لم يبعث الرشيد رجله إلى والى القيروان مباشرة ، وخص ابن الأغلب بذلك فيفسره - فى اعتقادنا - اضطراب أحوال القيروان من جراء الصراع على الإمارة بين قبيصة بن روح بن حاتم ونصر بن حبيب^(٩٨) ، هذا فضلا عما تفرد به إبراهيم بن الأغلب من معرفة دقيقة بأحوال دولة الإدارة ، وخبرة بشؤونها ، لطول إقامته بإفريقية وإقليم الزاب على وجه الخصوص الذى ولد به وقضى فيه معظم سنى عمره^(٩٩) ، لذلك فلا غرابة فى أن يختصه الرشيد بتقديم العون للشماخ تأهيلا له قبل الشروع فى مهمته ، ولا غرابة أيضا إذا نزل الشماخ على إبراهيم بن الأغلب لإخباره بنجاح هذه المهمة بعد تنفيذها^(١٠٠).

٩٧- العبرج ٤ ص ٧ .

٩٨- ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ١٠٤ .

٩٩- السلاوى: الاستقصا ج ١ ص ١١٦ ، . p. 9 . Vonderheyden : Op. cit .

١٠٠- يتشكك الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فى صحة هذا الحادث ، ويرى أن أنصار إدريس نسجوا =

هذا كله يدل على عداة ابراهيم بن الأغلب وتآمره على دولة الأدارسة حتى قبل قيام دولته، وذلك تمشياً مع سياسة الولاء للخلافة العباسية، وما حدث من تدبيره اغتيال راشد مولى الأدارسة وصاحب الفضل الأول في قيام دولتهم، يؤكد هذا القول .

والحق أن اغتيال إدريس الأول لم يحل دون نمو دولة الأدارسة واستمرارها ، ذلك أن البربر التفوا حول راشد (١٠١) - الذي قيل أنه من أصل مغربي (١٠٢) - حتى أُنحيت كنزة جارية إدريس ابناً له يشبهه تماماً سنة ١٧٥ هـ (١٠٢)، وقام راشد بأمره ، وعلمه العلوم والآداب العربية والدينية ، فضلاً عن الفروسية (١٠٤). وإلى جانب اهتمام راشد بتنشئة إدريس الثاني، لم يدخر وسعاً في الانتقام لمقتل أبيه، ويذكر ابن الأبار (١٠٥) أنه بلغ من القوة وعلو الشأن ما جعله يشرع في غزو إفريقية، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على العداة المطلق بين العباسيين وعمالهم من جهة ، والأدارسة من جهة أخرى، لذلك لم يتوان إبراهيم بن الأغلب في متابعة ما يدور داخل دولة العلويين، واستطاع عن طريق الكيد وبذل الأموال اغتيال راشد (١٠٦)، وإنقاذ إفريقية من خطره .

وتجميع المصادر على اغتيال إبراهيم بن الأغلب لراشد بعد ولايته إفريقية ولكنها تختلف في تحديد السنة (١٠٧) التي قتل راشد فيها، لكننا نستطيع ترجيح وقوع هذا الحادث في عام

= قصة موته شهيداً استداراً لعطف الجماهير على الأسرة العلوية التي يهدر دم أفرادها غدراً بالمغرب، ويضيف احتمالاً مؤداه أن ما حدث قد يكون من نسج خيال كتاب العباسيين أنفسهم الذين جعلوا الرشيد - فيما بعد - شخصية أسطورية تحيطها هالات من الغرائب والعجائب . أنظر : المغرب العربي ص ٤٢٢ . وبالرغم مما يحيط بأخبار إدريس الأول من الغموض والاعتضاب أنظر : الكتامي : المرجع السابق ص ٦ فليس ثمة ما يدفعنا للمضي وراء هذه الشكوك ، إذ أن ما حدث يعد واقعة عادية مألوفة في سائر عصور التاريخ .

١٠١ - القرطاس ص ١١ .

١٠٢ - كتاب الاستبصار ص ١٩٤ .

١٠٣ - أعمال الأعلام قسم ٣ ص ١٩٦ .

١٠٤ - القرطاس ص ١١ .

١٠٥ - الحلة السيرة ص ٢٣٤ .

١٠٦ - العبرج ٤ ص ١٣ .

١٠٧ - يحددها ابن خلدون والسلاوي بعام ١٨٦ هـ . أنظر : العبرج ٤ ص ١٣ ، الاستقصا ج ١ ص ١٤٦ . بينما يذهب صاحب القرطاس إلى أن الاغتيال تم عام ١٧٨ هـ . أنظر : ابن أبي زرع : ص ١٣ .

١٨٣ هـ أو ١٨٤ هـ قبل أن تؤول إمارة إفريقية إلى إبراهيم بن الأغلب ، فقد ورد في شعر منسوب لإبراهيم بن الأغلب ضمن كتاب أرسله إلى الرشيد عقب نجاحه في اغتيال مولى الأدارسة قوله:

ألم ترني أرديت بالكيد راشدا وأنى بأخري لابن إدريس راصد
تناوله عزمي على نأى داره بمختومة في طيهن المكايد
ثلاثون ألفا سقتهم لقتله لأصلح بالغرب الذي هو فاسد
فتاه أخو عك بهلك راشدا وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد (١٠٨)

كتب إبراهيم بن الأغلب ذلك الشعر إلى الرشيد عندما كان يلي الزاب إبان ولاية محمد بن مقاتل العكي لإفريقية ، وكان ذلك عندما ادعى العكي نسبة فضل اغتيال راشد إليه . ولما تأكد الرشيد من اقتراءات العكي وصدق إبراهيم عن طريق صاحب البريد، أمر بعزله وإسناد الإمارة إلى ابن الأغلب، وقد حدث ذلك سنة ١٨٤ هـ، مما يرجح أن اغتيال إبراهيم لراشد حدث قبل توليه الإمارة (١٠٩).

ولم يفت ذلك كله في عضد الدولة الإدريسية ، فقد حل أبو خالد يزيد ابن إلياس العبدى محل راشد في الوصاية على إدريس الثاني (١١٠)، وقام أبو خالد بتجديد البيعة له، وأقبلت عليه كافة القبائل من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر البربر «فقويت جنوده وأشيعه ، وعظمت جيوشه وأتباعه» (١١١) وهو لم يتجاوز التاسعة من عمره (١١٢). وتابع إبراهيم

١٠٨- ابن أبي زرع : المرجع السابق ص ١٣ ، والاستقصا ج ١ ص ١٤٦ ، الحلة السيرة ص ٢٣٣ ، أعمال الأعلام ص ١٩٧ .

١٠٩- يتفق ذلك مع ما ذكره المؤرخ بأسية بصورة مقتضبة من أن «إبراهيم بن الأغلب الذي كاد يستقل بإفريقية ، قد دس السم لراشد كما دس لسيده من قبل» أنظر : دائرة المعارف الإسلامية مادة إدريس الأول مجلد ١ ص ٥٤٦ .

١١٠- الاستقصا ج ١ ص ١٤٦ .

١١١- مجهول : تاريخ مدينة فاس ورقة ٢١ مخطوط .

١١٢- Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol . I. p. 268 .

والجدير بالذكر أن قول مرسية يؤكد ما سبق أن ذهبنا إليه من اغتيال راشد عام ١٨٣ هـ أو ١٨٤ هـ قبل قيام دولة الأغالبة ، ذلك أن إدريس الثاني ولد سنة ١٧٥ هـ (أنظر : ابن الخطيب : ص ١٩٦) ويشكك =

ابن الأغلب بعد توليه الإمارة نفس سياسته التقليدية في معاداة الأدارسة، ويبدو أن توطيد دولة الأدارسة وعدم جدوى سياسته في النيل منها، وإصرار البربر على مناصرة إدريس الثاني والقيام بأمره، دفع إبراهيم بن الأغلب للتفكير في استخدام القوة لإسقاط الحكومة العلوية، واسترداد المغرب الأقصى.

فيذكر ابن الأثير^(١١٣) أن إبراهيم «أراد قصده (إدريس بن إدريس) فنهاه أصحابه»، وإذا كان إبراهيم قد استجاب لنصيحة الناصحين، ولم ينفذ ما أزمع فلم يكن ذلك «لكرهه قتال إدريس الثاني» كما يذهب النويري^(١١٤) إنما لكثرة مشاكل دولته واستحالة الاتصاف عنها للقيام بنشاط خارج الحدود.

وعول الأمير الأغلب على مواصلة سياسة الكيد والدسائس بقصد إثارة العراقيل في وجه معاصره إدريس الثاني، فحاول هذه المرة إغراء بهلول بن عبد الواحد المدغري، وزير إدريس «والقائم بأمره»^(١١٥) و«صاحب سره»^(١١٦) والذي يعد «من خاصته وأركان دولته»^(١١٧)، فبذل له الأموال ليحضه على «ترك طاعة إدريس إلى طاعة هارون»^(١١٨). وكان إبراهيم بن الأغلب يريد في الحقيقة تأليب البربر على إدريس الثاني، بسبب سخطهم لقدوم خمسمائة^(١١٩)

= في رواية ابن خلدون القائلة بأن إدريس الثاني قد بلغ الحادية عشرة في السنة التي اغتيل فيها راشد . (أنظر : العبر ج ٤ ص ١٣) . وكذلك في رواية ابن أبي زرع التي تجعل مولد إدريس الثاني سنة ١٧٧هـ، ويلوغه الحادية عشرة من عمره وقت اغتيال راشد. (أنظر : القرطاس ص ١) .

١١٣- الكامل ج ٥ ص ١٠٤ .

١١٤- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٠ .

١١٥- الحلة السيرة ص ٢٤٨ .

١١٦- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٨ .

١١٧- الاستقصا ج ١ ص ١٤٨ .

١١٨- العبر ج ٤ ص ١٤ .

١١٩- يذكر بعض المؤرخين أن هؤلاء القادمين على إدريس الثاني كانوا يمثلون سفارة أندلسية من قبل الأمير الحكم بن هشام، وأن هدف هذه السفارة هو تهنئة إدريس الثاني باعتلائه الحكم، فضلا عن عقد تحالف معه ضد عدوهما المشترك في إفريقية والشرق «الأغالبة والعباسيين»، أنظر:

من عرب إفريقية والأندلس إلى فاس وترحيب إدريس بهم، وإحلالهم محل الصدارة في دولته، باتخاذ وزيراً من الأزد هو عمير بن مصعب ، وقاضيا من القيسية يدعى عامر بن محمد بن سعيد، وكاتباً من الخزرج يسمى أبا الحسن عبد الله بن مالك (١٢٠). ودارت مراسلات (١٢١) عديدة بين ابن الأغلب وبين البهلول ، بعدها كسبه ابن الأغلب إلى جانبه، وأخرجه عن طاعة إدريس ، ففارقه ووفد عليه بالقيروان «وعاد إلى الطاعة» (١٢٢) كما يقول

Conde : History of the dominion of the Arabs in Spain . vol . I. pp. 350 . 51 . =

Scott : History of the Moorish empire in Europe . vol . I. p. 456

لكن المصادر تخلو من أدنى إشارة في هذا الصدد .

أنظر : حاشية رقم (١) من كتاب . Fournel : Les Berbers . Vol. I. p. 460

١٢٠- القرطاس ص ١٣ ، ١٤ ، العير : ج ٤ ص ٧ ، الاستقصا ج ١ ص ١٤٨ ، مجهول : تاريخ مدينة

فاس ورقة ٢١ مخطوط . p. 147 . Marçais : L' Afrique du Nord ..

١٢١- أورد ابن الأثير بعض الأشعار التي تضمنتها تلك المكاتبات المتبادلة ، فقد كتب البهلول إلى

إبراهيم بن الأغلب يقول :

لئن كنت تدعوني إلى الحق ناصحا	لتكشف عن قلبي ضمير خلا
لقد ما أتانا عنك أنك ناصح	لمن نال بالصلح الخلافة كان
وأنت محمود النقائب عندهم	تزين ما تأتي لهم بعفاف
فمجل على رد رأي فيأني	أرد الهوى للحق حين يوافي

فجاوبه إبراهيم بقوله :

عرضت على البهلول ما إن أصابه	تعرض منه طاعة بخلاف
ليركب نهج الحق والحق واضح	ونهج العمى وعمر المهالك عاف
فلا تترك رشد الهوى بضلالة	كمستبدل رنق الشراب بصافي
وبايع لهارون الإمام بطاعة	تجده على الإسلام خير مكافي

أنظر : الحلة السراء ص ٢٤٨ .

١٢٢- نظر النويري باعتباره سنياً إلى الإدارة على أنهم مارقين على الخلافة الشرعية .

أنظر : . p. 262 . Vonderheyden : Op. cit

النويري (١٢٢)، ولم تجدد مساعي إدريس الثاني في استمالته (١٢٤) إليه. وقد بادر إبراهيم - تأكيداً لارتباطه بالعباسيين - بإبلاغ الخبير للرشيدي، وبعث وقدماً من أصحاب البهلول بصحبة أحد رجاله ويدعى إبراهيم بن محمد الشيعي إلى بغداد، فرحب الرشيد بمقدمهم (١٢٥).

وكان من نتيجة استمالة إبراهيم بن الأغلب للبهلول أن خشي إدريس الثاني على دولته، فبعث إلى ابن الأغلب يستعطفه، ويذكره بقرابته للرسول (١٢٦)، ويرجوه الكف عن تدبير المكائد ضده (١٢٧)، ويذكر المؤرخون أن إبراهيم «كف عنه» (١٢٨)، «وأجل مشروعاته الخاصة بالمغرب» (١٢٩)، «فلم تجر بينهما حرب» (١٣٠). يتضح من ذلك تفوق مركز ابن الأغلب، لكن ابن خلدون ومن أخذ عنه من المحدثين يصورون الموقف تصويراً مغايراً، يذكر ابن خلدون (١٣١) أن «إدريس صالح إبراهيم بن الأغلب»، ولم يستجب إبراهيم للصالح «إلا

١٢٣- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٢٨.

١٢٤- كتب إدريس الثاني إلى البهلول يقول :

أبهلول قد جشمت نفسك خطية	تبذلت منها ضلعة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره	فأصبحت منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بذكر ابن أغلب	وما قد رمى بالكيد كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خاليا	ومناك إبراهيم شرط قتاد

أنظر : ابن الأبار : ص ٢٠١ السلاوي : ص ١٤٩ .

١٢٥- ابن الأبار ص ٢٠٦ .

١٢٦- ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٤ ، النويري ج ٢٢ ورقة ٢٨ .

١٢٧- كتب إدريس إلى إبراهيم في هذا الصدد يقول :

أذكر إبراهيم حق محمد وعترته	والحق غير مقبول
وأدعو له للأمر الذي فيه رشد	وما هو لولا رأييه بجهول
فإن أثر الدنيا فإن أمامه	زلازل يوم للمعقاب طويل

أنظر : ابن الأبار ص ٢٠٢ .

١٢٨- ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٤ .

١٢٩- Mercier : Op. cit. vol. I. p. 268 .

١٣٠- نهاية الأرب : ج ٢٦ ورقة ٢٨ .

١٣١- المقدمة ص ٢٤ ، ٢٥ ، المعبر : ج ٤ ص ١٤٠ .

لعجزه» عن مناوئة إدريس ، فكف عن مدافعته ، وبرر مسلكه للخلافة بتحقيق شأنه ،
«والغض منه والقبح فى نسبه إلى أبيه إدريس» . والذين تأثروا برواية ابن خلدون ومنهم
جوتيه^(١٣٢) يردون ذلك إلى إجماع قبائل البربر كلها على مناصرة إدريس الثانى . ويؤيد
فندرهيدن^(١٣٣) هذا بقوله بأن «إدريس الذى كان قويا بمساندة أوربة لم يكن بحاجة لاستشارة
شفقة الأغلبة».

لكننا نعتقد بصواب ما ذهب إليه فورنل^(١٣٤) من أن «اتحاد زناتة وصنهاجة - العدوين
التقليديين- فى تدعيم حكم إدريس الثانى لم يكن كافيا لردع إبراهيم بن الأغلب ووقوفه عند
حده» . كما نأخذ بتفسيره لعدم إقدام إبراهيم بن الأغلب على القيام بعمل حرسى ضد
الأدارة «لأن ثورات البربر كانت لاتزال تهدد دولته». وفضلا عن ذلك فإن قبائل البربر
بالمغرب الأقصى لم تكن إذ ذاك مجمعة على تأييد حكم إدريس الثانى لما ذكرناه من حقها
على العرب الذين أنزلهم إدريس مكان الصدارة فى دولته دون البربر، لذلك تألب زعيم البربر
أبو خالد يزيد وحض قومه على مناهضة هذه السياسة^(١٣٥)، كما خرج إسحاق بن محمود
زعيم أوربة لنفس الأسباب، كل ذلك يدحض ما ذهب إليه ابن خلدون ومن أخذ عنه من أن
إبراهيم بن الأغلب سالم إدريس الثانى خوفا منه وتهيبا .

وبالرغم من ثورات الجند فى إفريقية، ظل إبراهيم بن الأغلب يكدد للدولة الإدريسية ،
منتهزا تخاذل البربر فى نصرتها ، ولاشك أن إسحق بن محمود الأوربي كان له دور كبير فى
قيام الدولة، فقد ناصر إدريس الأول فور وصوله المغرب، ومهد له أمر دعوته ، وأخذ له البيعة
من أوربة وسائر القبائل، كما تعهد إدريس الثانى بالرعاية منذ طفولته، وضمن لدولته البقاء
والاستمرار . لكنه اتجه إلى أعداء أدريس الثانى حين أحس بتضعف مكانته، ومكانة قومه
من البربر . ويؤكد المؤرخون^(١٣٦)، تواطؤه مع إبراهيم بن الأغلب فى التآمر على إدريس

١٣٢ - Les siecles obscurs . p. 276 .

١٣٣ - La Berberie Orientale . p. 262 .

١٣٤ - Les Berbers . vol . I. p. 459 .

١٣٥ - Ibid . p. 460 .

١٣٦ - البكرى ص ١٢٣ ، . Fournel : Op.. cit . vol I, p. 461 .

الثانى ، غير أن أحدا لم يذكر ثمة تفصيلات عن طبيعة هذا التواطؤ أو أهدافه . وما نعلمه هو أن إدريس الثانى بطش بالمتآمرين ، وأقدم على قتل الأوربي^(١٣٧) رغم أفضاله السابقة فى عام ١٩٩٢هـ . وهذا الحادث ينهض دليلا على استمرار روح العداء بين الأغالية والأدارسة بالرغم من توسلات إدريس الثانى ومناشدته لتحقيق السلام . ونعتقد أن إدريس الثانى أقدم على قتل الأوربي بفضل قدوم أعداد من العرب إليه ، استأنس بهم فى تدعيم دولته عوضا عن أنصاره من البربر . والجدير بالذكر أن هؤلاء المهاجرين جاؤا من إفريقية ، وكانت عدتهم ثلاثمائة أسرة ، وقد أسس لهم إدريس ريبض القرويين^(١٣٨) بمدينة فاس عام ١٩٣ هـ^(١٣٩) التى حرص على بنائها فى مكان يأمن فيه مؤامرات الأغالية . ولم يحاول إبراهيم بن الأغلب أن يستغل هذا الموقف برغم ما يذهب إليه فورنل^(١٤٠) عن «اهتمامه بإعادة العرب الذين غادروا القيروان إلى

١٣٧- البكرى : نفس المصدر والصفحة ، الاستقصا ج ١ ص ١٤٩ .

١٣٨- المغرب ص ١٢٣ .

١٣٩- يتشكك المؤرخ فورنل فى حدوث هذه الهجرة فى عهد إبراهيم بن الأغلب ويرجع وقوعها فى أوائل حكم زيادة الله ، ويقيم رأيه على اعتبارين أولهما أن حى الأندلسيين قد أنشئ سنة ١٩٨هـ بعد هجرة الريبضيين إلى المغرب ، ثم أنشئ حى القرويين بعد ذلك ، أى أن حى الأندلسيين ساقى فى إنشائه على القرويين . (أنظر Les Berbers . vol . I. p. 489) أما الاعتبار الآخر فهو اعتقاده بأنه لم يقع فى عهد إبراهيم بن الأغلب ومن بعده أبى العباس عبد الله ما يدعو إلى حدوث هذه الهجرة الهائلة.

(أنظر : Les Berbers : vol . I, p.p . 488-89) والواقع أن حى الأندلسيين قد أنشئ قبل حى القرويين ، لكنه لم ينشأ عام ١٩٨هـ كما يذهب فورنل ، بل أقيم عام ١٧٢هـ حسبما طالعنا بروفسال بنظريته الجديدة عن تأسيس مدينة فاس ، التى دعمها بأدلة مادية ، واستشهادات من كتابات المؤرخين أمثال الرازى وابن سعيد وابن الأبار وغيرهم ما يدفعنا إلى قبولها .

أما عدوة القرويين فقد أسست فى عهد إدريس الثانى عام ١٩٢هـ أو ١٩٣ هـ حسبما يذكر بروفسال .

(أنظر : الإسلام فى المغرب والأندلس من ص ١ إلى ٥٠) . ويتفق ذلك مع قول الإدريسي بأن ريبض القرويين أنشئ عام ١٩٣ هـ شمال ريبض الأندلسيين (أنظر : صفة المغرب ص ٧٥) .

ومن ناحية أخرى فقد شهدت إفريقية الثورات والفتن منذ عام ١٨٦هـ ، ومن المحتمل أن تكون الهجرة المعنية قد حدثت على دفعات حتى ازداد عدد المهاجرين عام ١٩٣هـ الأمر الذى دفع إدريس الثانى إلى إنشاء ريبض القرويين .

المغرب» ، وساهموا فى تدعيم دولة الأدارسة (١٤١)، فإن المصادر المعاصرة لاتؤيد هذا القول . ونعتقد أن توانيه كان راجعاً إلى انشغاله بإخماد الثورات التى قامت بافريقية فى عامى ١٩٤هـ، ١٩٦هـ. ولاغرو فقد اغتبط لهذه الهجرة التى أتاحت له التخلص من بعض مناوئيه، فضلاً عن اغتباطه لذلك الصراع الذى نشب بين إدريس الثانى وبين قبيلة أوربة.

ثم مات إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦هـ، وانتعشت الدولة الإدريسية بعد موته ، فقد عمل إدريس الثانى على استمالة رجال أوربة من جديد (١٤٢)، كما اطمأن من جانب إفريقية وشرع فى تدعيم نفوذه غرباً وشرقاً، فاستولى على نفيس وأغمات، وفتح بلاد المصامدة حتى السوس الأقصى، وعاد إلى فاس عام ١٩٩هـ (١٤٣)، ثم استأنف جهوده فى تأكيد سلطانه فى المغرب الأوسط، فأخضع نفزة بتلمسان ، وأدب الخوارج فى تلك الجهات ، ودانت له البلاد من السوس إلى شلف (١٤٤).

وموت أبى العباس عبدالله وتولية زيادة الله الإمارة عام ٢٠١هـ، لم يعبأ بما كان يدور على حدوده الغربية (١٤٥)، واكتفى باتهام إدريس الثانى «بتجاوزه حد التخوم من عمله» (١٤٦)، ولعل كف زيادة الله عن الأدارسة كان بسبب انشغاله بفتح الجند، ولسوء علاقته بالخلافة العباسية إلى حين. ويبالغ المؤرخون فى تصوير عمق الخلاف بين الإمارة، المحبذ لانضمامه إلى الأدارسة على تبعيته لوالى مصر عبدالله بن طاهر ، فى حين أن الخلاف كان أمراً عارضاً ما لبث أن زالت أسبابه. لانتكر أن زيادة الله أرسل تقوداً إدريسية إلى المأمون، غير أن ذلك لم يكن من قبيل التهديد والوعيد، كما يذهب بعض المؤرخين (١٤٧)، بقدر ما كان من قبيل تذكير الخليفة بجهود الإمارة فى مواجهة خطر الأدارسة (١٤٨) وبدو أن الأمراء الأغالبة درجوا

١٤١- Vonderheyden : Op. cit. p. 263 .

١٤٢- Loc. cit.

١٤٣- القرطاس ص ٢٩ .

١٤٤- العبرج ٤ ص ١٣ .

١٤٥- Vonderheyden : Op. cit. p. 263 .

١٤٦- ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥ .

١٤٧- السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٨٠، ٣٨١ . Vonderheyden : Op. cit. p. 263 .

١٤٨- الحلة السيرا ص ٢٥٤ .

على «إنفاذ سكة إدريس فى تحفهم وهداياهم، تهويلا باشتداد شوكته، وتعظيما لما دفعوا إليه من مطالبته» (١٤٩).

وننتج عن توائى زيادة الله فى مناوئة إدريس الثانى إتاحة نوع من الاستقرار للدولة الإدريسية ، فتمعت بالاطمئنان إلى حين ، وامنت جانب إفريقية ، وسلمت من الفتن الداخلية التى طالما تسبب ابراهيم بن الأغلب فى إثارتها من قبل . غير أن هذا الهدوء المؤقت لا يعزى إلى جبن الأمير الأغلبى أو خوفه من التعرض للخطر إذا اشتبك فى حرب مع الأدارسة كما يذكر فتندرهيدن (١٥٠)، ولا يعزى إلى أن فاس غدت فى عهد إدريس الثانى مصدر رعب للأغالبية كما يذكر فورنل (١٥١)، إذ الحقيقة أن زيادة الله لم يشأ مناجزة الأدارسة قبل القضاء على مشاكله الداخلية، فما أن تم له إخماد فتن الجند عام ٢١٢هـ حتى شرع يهتم بالعلاقات الخارجية، وفى الوقت الذى سير فيه حملته المشهورة لفتح صقلية، تابع سياسة والده فى الدس والكيد للأدارسة . وحسبه نجاحه فى اغتيال إدريس الثانى، وتوجيهه أقوى ضربة إلى دولة العلويين بالمغرب الأقصى ، ونعتقد أن وفاة إدريس المفاجئة تنهض دليلا على ما ذكره ابن الأبار (١٥٢) من أن «زيادة الله احتال عليه حتى اغتاله» . كما يؤكد ذلك قول ابن عذارى (١٥٣) بأنه «مات مسموما» ، «بحبة عنب غص بها، فلم يزل مفتوح الفم، سابل اللعاب حتى مات» كما يذكر البكرى (١٥٤). وذلك ينفى تفكير زيادة الله فى التبعية له، ويؤكد أن روح العداوة (١٥٥) غلبت على العلاقات الأغلبية الإدريسية.

١٤٩- ابن خلدون : المقدمة ص ٥ .

١٥٠- La Berberie Orientale . p. 264 .

١٥١- Les Berbers . vol . I. p. 497 .

١٥٢- الحلة السيرة ص ٢٠٠ .

١٥٣- البيان المغرب ج ١ ص ٢٩٩ .

١٥٤- المغرب ص ١٢٣ .

١٥٥- ينفى ذلك ما قيل حول اشتراك الأدارسة فى فتح صقلية جنبا إلى جنب مع الأغالبية. أنظر : Cam.

Med. Hist vol . 2 . p. 381 والواقع أن دولة الأدارسة لم تكن قط دولة بحرية مما ينفى هذا الزعم.

ويعتبر إدريس الشافعي ، تداعت دولة الأدارسة ، ولم يعول الأغلبية كثيرا على متاورتها^(١٥٦) ، فلم تعد تشكل أدنى خطورة على حدودهم الغربية . وليس أدل على ذلك من عدم انتهاء الأدارسة فرصة خروج كثير من القلاع والحصون كسطيف وبلزمة على أمراء بني الأغلب ، ولم يمدوا أيديهم لأتباعهم من زناتة حين بطش بهم أبو الفرائيق ومن بعده إبراهيم بن أحمد الأغلب^(١٥٧) .

فقد قسمت دولة الأدارسة^(١٥٨) بين أفراد الأسرة العلوية^(١٥٩) ، وشاعت الخلافات والفتن والحروب بما أضعف الدولة ، وتقلص نفوذها حتى أصبح لا يتجاوز مدينة سبتة^(١٦٠) ، كما وقعت تلمسان وما جاورها - على حدود إفريقية - في حوزة آل محمد بن سليمان أبناء عمومة إدريس الشافعي^(١٦١) الذين أثروا المسألة والاستكانة^(١٦٢) . وهكذا انصرف الأغلبية - بعد اطمئنانهم على سلامة حدودهم الغربية - إلى مواصلة الجهاد في صقلية وجنوب إيطاليا .

رابعا : الأغلبية والأمويون بالأندلس :

تأثرت العلاقات بين الأغلبية والأمويين بالأندلس بطبيعة نشأة كل من الدولتين ، ثم بالعداء التقليدي بين العباسيين والأمويين ، ومن ثم كانت هذه العلاقات عموما تتسم بروح العداء .

وإذا كانت المصادر تصمت تماما عن ذكر أدنى صلة بين الأغلبية والأندلس : فإن المؤرخ بروفنتسال^(١٦٣) يفسر هذا الصمت بأنه "تجاهل رسمي متبادل ينم عن العداء السياسي

١٥٦ - Provençal : L'Espagne Musulmane . vol . I. 381

١٥٧ - البيان المقرب ص ١٦٠ وما بعدها . . Vonderheden : Op. cit. 264

١٥٨ - انظر البكري : المغرب ١٢٣ وما بعدها .

١٥٩ - ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٨٨ ، ٨٩ .

١٦٠ - بروفنتسال (نشر) : نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ص ٣ .

١٦١ - المعبر ج ٤ ص ١٦ .

١٦٢ - Vonderheyden: Op. cit. p. 169

١٦٣ - المغرب ص ٣٠٧ .

١٦٤ - L' Espagne Musulmane . vol . I. p. 169

الدفين» . والحقيقة أن المشاكل الكثيرة التي تعرض لها كل من الأغالية والأمويين لم تمكن أيا منهما من الخروج بهذا العداء السلبي إلى عمل إيجابى ، فالإمارة الأموية شغلت بتحقيق وحدة الأندلس ، ووضع حد للفتن بين العرب والبربر (١٦٥) ، ومواجهة حركات آل البيت الأموى الطامعين فى الإمارة (١٦٦) ، كما وجهت اهتماما وراء البرانس لمواجهة الخطر الكازولنجى ، فضلا عن خطر المجوس «النورمانديين» على سواحل البلاد (١٦٧) . ولم تستطع إنشاء أسطول تستطيع به مناجزة الأغالية، إذ لم يتسن لها ذلك إلا فى عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر (١٦٨) . أما الأغالية فقد شغلوا بفتن الجند فى الداخل والفتوحات فى صقلية وجنوب إيطاليا ، ومناوئة جيرانهم الرستميين والأدارسة . ولذلك يمكن القول بأن «الجانب الأكبر من النشاط البحرى الإسلامى فى حوض البحر المتوسط الأوسط كان مغربيا ، أما فى الحوض الغربى فكان معظم النشاط فيه أندلسيا» (١٦٩) .

ومع ذلك فيعتقد بعض المؤرخين أن إبراهيم بن الأغلب الذى كان معاصرا للحكم بن هشام قد ناصر الثوار على الإمارة الأندلسية ، فيذكر كوندية (١٧٠) أن «جيش عبدالله البلاسى- الثائر على الحكم بن هشام- كان مدعما بجند من إفريقية» ، ويشير عنان (١٧١) إلى أن عمى الحكم وهما سليمان وعبدالله كانا يقيمان فى عدوة المغرب وخاطبه فى مشروعهما ، ويؤكد عبد العزيز سالم (١٧٢) زيارة عبدالله لإبراهيم بن الأغلب بالقيروان .

١٦٥- البيان المغرب ج ٢ ص ٩٥ وما بعدها .

١٦٦- أعمال الأعلام ص ١١ وما بعدها . . Altamira : History of Spain . p. 97 .

١٦٧- الكامل ج ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

١٦٨- أعمال الأعلام ص ٤٢ ، لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٣١ وما بعدها .

١٦٩- البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ ، حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط . المجلة

التاريخية المصرية : مجلد ٤ عدد ١ ص ١٠٠ .

١٧٠- Condé : History of the dominion of the Arabs in Spain p. 247 .

١٧١- دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٢٢٦ .

١٧٢- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٠ .

والحقيقة أنه لا يمكن الجزم بما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، فلم تشر أى من المصادر إلى ما يوحى بمثل هذا الاتصال ، ولعل كونديه يقصد بجند إفريقية الذين استعان بهم البلاطى ، الجند المغاربة (١٧٣) ، إذ الثابت أنه كان مقيما بدولة الأدارسة فى «عدوة المغرب» (١٧٤) ، وليس من المعقول أن يتصل عبدالله وهو مقيم عند الأدارسة بأعدائهم الأغالبة يطلب منهم العون ، وإذا ما علمنا أن عبدالله البلاطى غادر المغرب على وجه السرعة عقب علمه بموت أخيه هشام عام ١٨٠ هـ (١٧٥) ، ونزوله بسرقسطة قبل أن يصل أخوه سليمان إلى الأندلس عام ١٨٢ هـ (١٧٦) ، وإذا ما أدركنا أن ابراهيم بن الأغلب تولى الإمارة عام ١٨٤ هـ (١٧٧) ، ففى ذلك ما يؤكد عدم صحة تلك الرواية.

وإذا كنا نستبعد مؤازرة ابراهيم بن الأغلب للبلاطى ، فإننا لاتصدق أيضا ما يروى عن تعاون الأغالبة والأندلسيين فى الفتوحات البحرية فى جزر البحر المتوسط ، يذكر بكثر (١٧٨) أن «قراصنة من شمال إفريقية ساعدوا بلاط قرطبة فى القيام بسلسلة من الغارات على كورسيكة وسردينية وإيطاليا عام ١٩٠ هـ (٨٥٠ م) . ويذكر العدوى (١٧٩) بأنه «فى عام ١٩٣ هـ (٨٠٨ م) جاءت قوة بحرية من عرب المغرب ساعدت الأندلسيين فى غزو كورسيكة ، كدليل على التعاون البحرى بين المغرب والأندلس» ، لكن الثابت أن أسطول الأغالبة فى عام ١٩٣ هـ كان يعمل فى مساعدة الصقالبة فى حصار مدينة باتراس . ولو صح القولان السابقان ، فإن هذه القوى البحرية المغربية كانت تنتمى إلى الرستميين الذين كانوا على صلة وطيدة بالأمويين فى الأندلس (١٨٠) ، ذلك لأن الأغالبة والأدارسة والأمويين كانوا على عدااء فيما بينهم فلم يوحدها جهودهم البحرية (١٨١).

١٧٣- البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ .

١٧٤- ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٤ .

١٧٥- الكامل ج ٥ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

١٧٦- البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ .

١٧٧- عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٠ .

١٧٨- Haroun L' Rashid and Charles the great . p. 39 .

١٧٩- الأساطيل العربية ص ٧٦ .

١٨٠- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ ، اليعقوبى كتاب البلدان ، ص ٣٥٣ .

١٨١- فازيليف : العرب والروم ص ٦٤ .

ولما شرع الأغالبة فى فتح صقلية عام ٢١٢هـ ، تكونت حملتهم من العرب والجنود والبربر والأندلسيين، وفى أثناء الفتح كانت الإمدادات تصل إلى صقلية «من إفريقية والأندلس»^(١٨٢)، ولم يكن هؤلاء الأندلسيون ينضون تحت لواء الإمارة رسمياً، وإنما كانوا من المغامرين والشاربين على الحكم الأموى بالأندلس^(١٨٣)، فقد ساهم الكثيرون منهم فى فتح صقلية .

وفى عام ٢١٤هـ تعرض الأغالبة المحاربون فى صقلية لمأزق حرج بعد موت قائدهم محمد بن أبى الجوارى، حيث حوصروا فى «مينوى» ، وشحت أقواتهم حتى أكلوا الدواب^(١٨٤)، وفى تلك الأثناء وصل إلى مياه الجزيرة أسطول أندلسى بقيادة إصبع بن وكيل الهوارى وسليمان بن عافية الطرطوشى للغزو والسلب^(١٨٥)، وطلب المحاصرون إلى القائد الأندلسى نصرتهم، فاستجاب لهم على شريطة توليه القيادة ، وإمداده بالخيول^(١٨٦)، ونجح الأندلسيون بالفعل فى ترجيح كفة النضال ، فرفع الحصار عن الجيش الأغلبى فى جمادى الآخرة سنة ٢١٥هـ^(١٨٧)، ولا يؤكد هذا ما يذكره الدكتور مؤنس^(١٨٨) «من أن المغاربة والأندلسيين اشتركوا فى الفتوح فى البحر المتوسط بدرجة لا يمكن معها الفصل بين جهودهما» ، أو ما أشار إليه العدوى^(١٨٩) من أن «نشاط الأغالبة اتسم بالتعاون البحرى مع القوى الأندلسية على الرغم من تبعية الأغالبة أنفسهم للخلافة العباسية» .

فالثابت أن إصبع بن وكيل لم يشترك فى معارك صقلية رغبة فى الجهاد ، بقدر طمعه فى الرياسة والمغانم ، كذلك اتسمت العمليات الحربية الأندلسية بالطابع الفردى، فقد توجه أصبع

١٨٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٢ ، المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٢٩ ، العرنى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٧ .

١٨٣- Vonderheyden : Op. cit. p. 276 .

١٨٤- الكامل ج ٥ ص ١٨٨ .

١٨٥- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ١٢٣ .

١٨٦- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٤ .

١٨٧- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٢٩ .

١٨٨- المسلمون فى حوض البحر المتوسط ، المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ ص ١٠٠ .

١٨٩- المسلمون والجرمان ص ٢٧٣ .

ورجاله إلى مينوى مستقلين عن الجيوش الأغلبية التى اتجهت إلى بلرم (١٩٠)، ولما انتشر الطاعون الذى مات بسببه أصيغ ، عاد معظم رجاله من حيث أتوا ، بينما انضمت أقلية منهم لتساعد الأغلبية فى فتح بلرم عام ٢١٦هـ. لكن الخلاف سرعان ما نشب بين الطرفين (١٩١)، وليس من المستبعد أن يكون سببه ما جرى من نسبة الأندلسيين هذا النصر إلى الأمويين على نحو ما يذكر سكوت (١٩٢). قصارى القول أن ما حدث من اشتراك إصبيغ فى عمليات صقلية بعد الشروط التى أملاها ، وعدم تبعيته لأسطول الإمارة الأندلسية ، وقيامه بالعمل فى صقلية مستقلا ، وانسحاب معظم رجاله بعد موته ، واختلاف الباقيين منهم مع الأغلبية ، ما ينهض دليلا على أن هدف الحملة لم يكن الجهاد أو التعاون بين بحرية الأندلس وبحرية الأغلبية ، بل أغلب الظن أن نجاح الأغلبية فى فتوحاتهم بصقلية كان يقابله أمراء قرطبة بشيء من الحقد والغيرة (١٩٣).

ولو تعاونت الإمارة الأندلسية والأغلبية ، لما وقف الأندلسيون موقفا عدائيا كالذى اتخذوه من الأغلبية إبان فتوحاتهم فى جنوب إيطاليا (١٩٤)، فحين تدخل الأغلبية فى النزاع بين أمراء بنفنت مؤازرين للأمير رادخيس ، هب الأندلسيون لتعضيد خصمه سيكتولف عام ٢٢٥هـ (٨٤١م) (١٩٥)، ويؤكد هذا العداء أن الإمبراطور البيزنطى تيوفيل ، مدفوعا بخطر الأغلبية فى جنوب إيطاليا أوفد سفارة إلى الأمير الأموى عبد الرحمن الثانى لعقد محالفة للتعاون فى طرد الأغلبية من صقلية وجنوب إيطاليا (١٩٦). حقيقة أن الأمير الأموى لم يستجب لطلب تيوفيل ، غير أنه رحب برسله وأرسل إليه الهدايا ، «وبعث إليه بيحى الغزال من كبار أهل الدولة، فأحكم بينهما الوصلة» (١٩٧).

١٩٠- الكامل ج ٥ ص ١٨٧ . p. 304 . Bury : A history of the eastern Roman empire .

١٩١- ابن الأثير : ج ٥ ص ١٨٨ .

١٩٢- History of the Moorish empire in Europe. vol. 2 . p. 24 .

١٩٣- Provençal : Op. cit. vol I. 170 .

١٩٤- Bury : Op. cit. p. 313 .

١٩٥- فازيليف : العرب والروم ص ١٨٤ ، العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٥٢ .

١٩٦- Brunschvig : la Tunisie dans le haut moyen âge . p. 16 .

١٩٧- المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ٣٢٤ ، Hole: L'Andalousie . p. 84 . ويعزو فازيليف عدم استجابة

كما ظهر العداء واضحاً بين الأمويين والأغالبية في التجاء الشائرين على الإمارة بالقيروان إلى الأندلس كسالم بن غلبون الذي مرق على الأمير محمد بن الأغلب عام ٢٣٣هـ (١٩٨)، وفي مساندة أمراء قرطبة للرستميين - جيران الأغالبية وأعدائهم - فليس من شك أن دولة الرستميين كانت على صلة ودية بالأندلس .

وقد حرص أمراء قرطبة على تشجيع الرستميين في إقامة العراقيين في وجه أمراء القيروان، ففي عام ٢٣٩هـ أسس الأغالبية مدينة العباسية التي أحرقها الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي، فابتهج الأمير محمد الأموي لذلك، وكافأه بمبلغ ألف درهم (١٩٩)، ولم يكن في مقدور الإمام الرستمي الإقدام على هذا العمل دون اعتماد على أصدقائه الأمويين (٢٠٠). لكن إذا كان الأمويون في الأندلس قد ساندوا بني رستم ضد الأغالبية، فلم يكن من المعقول أن يفكروا في التحالف مع الأدارسة لنفس الغرض، ذلك أن عداوتهم لبني ادريس لم تكن بأقل من حنقهم على بني الأغلب.

وإذا كان الأمويون قد كادوا للأغالبية عن طريق الرستميين فلم يتوان الأغالبية بدورهم عن تشجيع الخارجين على أمراء قرطبة، وإذا كانت الأدلة على مساعدة إبراهيم الأغلب عبدالله البلاطسي في الثورة على الحكم بن هشام تعوزنا، إلا أننا نستطيع أن نؤكد اتصال الشائرين عن

= الأمير الأموي لرغبات الإمبراطور البيزنطي إلى انشغاله بمشاكل الإمارة الداخلية التي كان أهمها ظهور خطر النورمانديين (أنظر : العرب والروم ص ١٦٥) وهذا التفسير في الواقع أكثر قبولاً مما يذكره يوفونسال من أن الأمير الأندلسي أحجم عن مظاهرة مشرك على توسيع رقعة في دار الإسلام (أنظر : الإسلام في المغرب والأندلس ص ١٠٤) .

١٩٨- الكامل ج ٥ ص ٢٨١ .

١٩٩- العبر ج ٤ ص ٤٢٩ .

٢٠٠- Fournel : Op. cit . vol. I. p. 514 .

٢٠١- يعزو يوفونسال هذا العداء إلى ما كان في صدر الإسلام من خصومة بين علي ومعاوية . أنظر : (L'Espagne Musulmane . p. 173) ومن ثم فقد حرص الأمويون بالأندلس على محاربة أية دعوة شيعية في شمال أفريقيا (أنظر : السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٦٩) ومن مظاهر هذا العداء ترحيب الأدارسة بالمناوئين لأمراء قرطبة، ومحاولات الأمويين استخلاص سبتة من أيدي الأدارسة . (أنظر نبد تاريخية من أخبار البربر في القرون الوسطى نشر : يوفونسال ص ٤٢٣) .

بن حفصون^(٢٠٢) ببلاط القبروان وتبادلته الهدايا مع الأمير الأغلبى الذى وعده بمناصرة الخلافة^(٢٠٣). وقد قصد ابن حفصون من اتصاله بالأغالبية أن يتوسطوا له لدى بغداد لتعترف به حاكما شرعيا على الأندلس^(٢٠٤)، أما لماذا اتصل ابن حفصون بإفريقية بالذات فلأنه خبر

٢٠٢- يتنمى عمر بن حفصون إلى أصل قوطى، وقد اعتنق والده الإسلام ، واتسمت حياة عمر بالشذوذ والميل إلى سفك الدماء، فارتكب عدة فظائع ، وفر من وجه القصاص إلى دولة بنى رستم، ثم ما لبث أن عاد إلى الأندلس خشية أن يتكشف أمره فيسلمه الرستميون إلى قرطبة .

وترأس ابن حفصون عصاية من المجرمين ، واتخذ من قلعة ببشتر الحصينة مقرا ثم اندرج فى سلك الجنديّة، وخدم مدة فى جيش قرطبة، لكنه ضاق ذرعا بحياة الجنديّة فلفظها عام ٢٦٨ هـ ليعود إلى قلعته، ومن ببشتر مارس ابن حفصون حياة جديدة أشبه ما تكون بحياة الصعلكة عند العرب بما فيها من فروسية وشجاعة، وإنصاف للمظلومين، ثم ناصب الإمارة العداء علنا، وانضوى تحت لوائه الكثيرون من مناوئى الأمير، ولم يمض عام ٢٧٠ هـ حتى كان ابن حفصون مسيطرا على جنوبى الأندلس فأطاعته «أكثر بلاد المنطقة بين ربة الخضراء» والبيرة ، وأحواز قرطبة» وضاعت سدى جهود الأمير المنذر فى استرداد ما استولى عليه ابن حفصون .

ولما تولى عبدالله الإمارة، عول على استمالة ابن حفصون ، فاستجاب له ، لكنه غدر به واستولى على حصن بلاى، وجيش ثلاثين ألفا من أهل الكور، غير أن الأمير عبدالله سرعان ما استرد بنفسه هذا الحصن وخرج ابن حفصون عن مدينة إستجة ، ثم عاد إلى قرطبة .

واشتد ساعد بن حفصون حينما تحالف مع بنى حجاج بإشبيلية ، أعداء قرطبة فامتدت إغاراته إلى مورور وشذونة وقرمونة وغيرها . وفى ٢٨٥ هـ ارتد عمر إلى النصرانية، ثم تمكن الأمير عبدالله من هزيمته فقر معتصما بقلعته ببشتر، واسترد عددا من القلاع والحصون فضلا عن مدينتى البيرة وجيان. وما لبث ابن حفصون أن عاود نشاطه بعد عودة الأمير إلى قرطبة ، وتمكن من الاستيلاء مرة أخرى على كل ما فقدّه باستثناء مدينة البيرة .

ولما آلت الإمارة إلى عبد الرحمن الناصر ، وضع نهاية لتمرد ابن حفصون ، وتمكن من كسبه إلى جانبته ، وتوفى عمر بن حفصون فى عام ٣٠٦ هـ بعد أن شغلت ثورته عهود الأمراء محمد والمنذر وعبدالله . أنظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص ١٥٧ وما بعدها ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣١ وما بعدها ، Dozy : Spanish Islam . p. p. 316 ff ., Conde : Op. cit. p. 302 . f . f.

٢٠٣- ابن حبان : المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس ص ٩٣- عن كتاب عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وأثارهم فى الأندلس ص ٢٦١ .

٢٠٤- Mercier : Op. cit. p. 299 .

أحوال المغرب وظروفه، فقد قدر له أن يقضى فى برقة زمنا، ثم استقر به المقام عند بنى رستم حتى لجوئه إلى قبيلة مكناسة (٢٠٥)، ويبدو أنه اتصل بالأدارسة - قبل لجوئه إلى القيروان «فخاطب ملوك الشيعة بإفريقية، أضداد الدولة الأموية»، والراجح أنه ما انصرف عنهم إلا لاشتراطهم «أن يلتزم طاعتهم، وإقامة دعوتهم» الأمر الذى يتعارض مع طموحه الشخصى، ولذلك صرف رسل الأدارسة، ورد إليهم خلعهم (٢٠٦).

ويذهب بعض المؤرخين (٢٠٧) إلى أن لجوءه إلى بنى الأغلب طمعا فى الظفر بتأييد الخلافة كان كفيلا بأن يتيح له استرضاء الكثيرين من العرب والبربر الحانقين على بنى أمية، لكن الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى لم يحفل كثيراً بتحقيق مطالبه، واكتفى بحضه على المضى فى إثارة العراقيل فى وجه أمراء قرطبة (٢٠٨) ولاطفه، ورد على هديته بهدية (٢٠٩)، ويبدو أن الأمير الأغلبى وقف على أهداف ابن حفصون الحقيقية، فلم يقم من جانبه بالوساطة المطلوبة (٢١٠)، وقد يكون تنصره سببا لذلك (٢١١)، أو حسبا يذكر ابن حيان (٢١٢) ودوزى (٢١٣) أن ابن الأغلب لم يتحمس لمطالب ابن حفصون لهزيمة الأخير عام ٢٧٧هـ (٨٩١م)، وتفرق شمل أنصاره.

ومهما يكن من أمر فقد اعتذر إبراهيم بن أحمد عن تلبية مطالبه لانشغاله بأمور الدولة، وفى ذلك ما يدل على أن الأغلبية كانوا يرحبون بمؤازرة أية حركة من شأنها إضعاف الإمارة الأموية كلما سمحت لهم ظروفهم بذلك، ولاشك فى أنهم رحبوا بابن حفصون حين ازداد خطره،

٢٠٥- البيان المغرب ج ٢ ص ٧٢ . . Dozy : Op. cit. p. 166 , 67 .

٢٠٦- أعمال الأعلام ص ٣٢ .

٢٠٧- Dozy : Op. cit. pp. 556 , 57 , Cam . med. hist. vol. 3 p. 419 .

٢٠٨- Provencal : Op. cit . pp. 362 , 367 . ff .

٢٠٩- ابن حيان : المرجع السابق ص ٩٣ .

٢١٠- Scott : Op. cit. vol . I. p. 558 .

٢١١- ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ . . Hitti : History of the Arabs p. 519 .

٢١٢- ابن حيان : المرجع السابق ص ١٠٦ .

٢١٣- Spanish Islam . pp. 362 - 367 . ff .

وهدد حكم الأمويين في قرطبة، فلما ظهرت حقيقة حركته، أو عدم جدواها وفشلها ، تخلوا عن مؤازرته .

ونحن بصدد دراسة العلاقات الأغلبية الأندلسية ، لا يمكننا إغفال التعرض لعلاقات الأغلبية بالأندلسيين الذين استوطنوا كريت (٢١٤).

حقيقة أن مسلمي كريت انقطع صلتهم بالوطن الأم وأصبحوا يعترفون بالتبعية للخلافة العباسية ، وغدت جزيرتهم تتبع مصر إداريا (٢١٥) لكنهم أسسوا قوة بحرية لها وزنها في البحر المتوسط، ظلت تهدد باستمرار الشواطئ والجزر البيزنطية (٢١٦)، «ونال الروم منهم مكروه عظيم» (٢١٧). ولكونهم معاصرين للأغلبية فذلك يدفعنا إلى محاولة تحديد العلاقة بين هاتين البحريتين الإسلاميتين .

يختلف المؤرخون حول تحديد هذه العلاقة فبعضهم يؤكد تعاون مسلمي كريت ومسلمي إفريقية في مجال الفتوح البحرية ، كما يؤكد آخرون أن العداء ساد بينهما .

٢١٤- ثار سكان ريف قرطبة- بتحريض فقهاء المالكية- على الحكم بن هشام عام ١٩٩هـ وقد تمكن الحكم بدهائه من قمع الثورة وإخمادها بقسوة ، وأمر من بقى على قيد الحياة من الثوار بمغادرة البلاد، فقصده بعضهم المغرب الأقصى، بينما اتجه زهاء عشرة آلاف منهم إلى مصر ونزلوا الإسكندرية عام ١٩٩هـ وأنتهز زعيمهم أبو حفص عمر البلوطي اضطراب أحوال مصر من جراء فتنة الجروى وابن السرى ، وانشغال المأمون بمشاكل العراق وفارس ، فتغلب على البلاد وأعلن استقلاله بها.

فلما بعث الخليفة قائده عبدالله بن طاهر واليا على مصر في عام ٢٠٩هـ، نجح في إرغام الأندلسيين على مغادرة البلاد، فخرجوا إلى جزيرة كريت التي كانت أحوالها مضطربة آنذاك ، واستقروا بها وأسسوا عاصمة لهم سموها الحندق Candia ومن كريت أطلقوا غزواتهم المستمرة على السواحل والجزر البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وقد استرد البيزنطيون الجزيرة بعد ما ينيف على قرن ونصف من الزمان. أنظر : الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ١٨٣ ، ابن عذارى : ج ٢ ص ١٠٦ وما بعدها ، الكندى : الولاة والقضاة ص ١٨٤ ، المراكشى : المعجب ص ١١ ، ابن القوطية : أخبار مجموعة ص ١٣٠ . Bury : Op. cit. p.p. 287 ff.

٢١٥- العدوى : الأساطيل العربية ص ٢٩٢ ، Bury : Op. cit. p. 292 .

٢١٦- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٩ .

٢١٧- ابن الناية : المكافاة ص ١١٢ .

والرأى الأول يقول به بيورى^(٢١٨) حيث يؤكد مساعدة الكريتيين للأغالبة فى فتح صقلية ، وكذلك لويس^(٢١٩) الذى يذكر أن مسلمى كريت عاونوا الأغالبة فى الاستيلاء على برنديزى عام ٢٢٧هـ (٨٤١م) ، فى حين يذكر فازيليف^(٢٢٠) ، أن الأندلسيين الذين أعانوا سيكنولف اللومباردى على رادخيس والأغالبة كانوا من مسلمى كريت .

ونحن نميل إلى تأييد وجهة النظر الأخيرة على الرغم من اشتراك الأغالبة والكريتيين فى عدااء البيزنطيين، ومن كونهما اكتسبا مجدا بحريا على حساب القسطنطينية ، يؤكد هذا الطابع العدائى ما ذكره النوبرى^(٢٢١) من أنه « فى سنة ٢٤٤ هـ خرج العباس بن الفضل فوصل إلى قصر يانة وسرقوسة ، وأخرج أخاه فى المراكب الحربية فى البحر، فلقبه الإقريطشى فى أربعين شلنديا، فقاتلهم أشد قتال ، فهزمهم وأخذ منهم عشر شلنديات برجالها ورجع» .

ويخيل إلينا أن هذه الهزيمة وضعت حداً للتنافس البحرى بين الطرفين، إذ اتجه الكريتيون إلى ممارسة نشاطهم فى مناطق أخرى تاركين منطقته وسط البحر الأبيض للنشاط الأغلبي، فلما امتد نفوذ الأغالبة إلى صقلية وجنوب إيطاليا والبحرين والثيرانى والأدرياتي، اتجه الكريتيون إلى منطقة بحر إيجه والجزر المجاورة^(٢٢٢). وفى الوقت الذى عكف فيه الأغالبة على الفتح المنظم، اتجه الكريتيون للأخذ بسياسة الإغارات الخاطفة، فكانوا ينزلون الخراب والدمار باليليونيز ، وارخيبيلاجو وتساليا^(٢٢٣) دون أن يفتحوا أيا من هذه الجهات .

٢١٨- Bury : Op. cit. p. 300 .

٢١٩- القوى البحرية والتجارية ص ٢١٤ .

٢٢٠- العرب والروم ص ١٨٤ .

ورد هذا رأى الأخير فى موسوعة كمبريدج لتاريخ العصور الوسطى أنظر : Vol. 2 . 384 ويقطع الدكتور العربى بأن العلاقات بين الطرفين اتسمت بروح العداء وخاصة فى الفترة ما بين عامى ٢٢٨-٢٤٤هـ (٨٥٨-٨٤٢م) لدرجة جعلت الأغالبة ينسحبون من البحر التيرانى والأدرياتي . أنظر : الدولة البيزنطية ص ١٢٩ .

٢٢١- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ١٢٣ ، ١٢٤ .

٢٢٢- Bury : Op. cit. p. 290 .

٢٢٣- Ostrogorosky : History of the Byzantine state p. 228 .

ب- العلاقات التجارية

لم ترد بالمراجع أدنى إشارة صريحة تثبت وجود صلات تجارية بين الأغالبة ودول المغرب والأندلس ، ومع ذلك نعتقد أن العداء السياسى بين الأغالبة وبين هذه الدول كما لم يحل دون الاتصال الثقافى فإنه لم يؤد إلى اختفاء العلاقات التجارية تماما ، ذلك أن الأغالبة بعد سيطرتهم على التجارة العالمية فى نطاق البحر المتوسط شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، كان من الضرورى أن يدخلوا فى معاملات تجارية مع دول المغرب والأندلس .

لكن الواقع أن هذه المعاملات كانت فى أضيق الحدود ، إذ انصرف اهتمام الأغالبة إلى المتاجرة مع الشرق الإسلامى والمدن الإيطالية ، كما أن دول المغرب والأندلس كانت فيما يبدو تعيش فى اكتفاء ذاتى فى ذلك الحين. ولايعنى هذا أنها كانت متخلفة اقتصاديا ، إذ الثابت أنها كانت تعيش فى رخاء ، فدولة المراريين فى سجلماسة بالرغم من قيامها على أكتاف البدو من البربر (٢٢٤) إلا أنها عرفت الزراعة واكثر من العناية بغرس أشجار النخيل (٢٢٥) . وازدهرت بها صناعة غزل الصوف ، واختطت بها المصانع والقصور (٢٢٦) ، وراجت تجارة المراريين مع غرب إفريقيا ، فكانوا يصدرون الملح والنحاس والأصواف ويعودون محملين بالذهب (٢٢٧) ، وغدت سجلماسة مركزا تجاريا مرموقا (٢٢٨) ، وتمتع أهلها بالثراء العريض (٢٢٩) .

= اكتشفت ثلاثة نقوش تدل على إغارات الكريتين على مدينة أثينا باللبيونيز فى القرن التاسع الميلادى أنظر : Hitti : Op. cit. p. 451 وتوجد إحدى هذه النقوش فى المكتبة الملكية العامة بسان بطرسبرج .

ويحكى النقش قصة غزو أتیکا ، وانسياب الغزاة فى مدينة أثينا وقتلهم رجال الدين والعلماء ووجوه المدينة ، وتدميرهم المنازل والكنائس ، وعيشتهم بالأيقونات المقدسة ، واستباحتهم النساء .

والملاحظ أن هذا النقش مكتوب بالخط الكوفى ، وقد نسب بعض المؤرخين هذا الحادث إلى سقوط أثينا على يد الترك عام ١٤٥٦ ، لكن الأستاذ Kampouroglous يؤكد أن المقصود بالغزاة عرب كريت الذين أغاروا على المدينة عام ٢٨٣هـ (٨٩٦م) ، وطردهم منها نقفور فوقاس . أنظر : Setton : On the Raids of the Moslems in the Aegean .. Amercian Journal of Archeology . vol , 58 , p. p. 315-319 .

٢٢٤- صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٧ ، Fournel : Op. cit . vol . I . 352 .

٢٢٥- المغرب ص ١٤٨ .

٢٢٦- صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٥ .

٢٢٧- نفس المصدر والصفحة .

٢٢٨- Fournel : Op. cit. vol . I . p. 362 .

٢٢٩- المغرب ص ١٤٨ .

كذلك نعمت دولة الرستميين برخاء مماثل بعد أن أصلحوا الأراضى ، وعبدوا السبل، وفتحوا أبواب التجارة^(٢٣٠) التى حفلت كتبهم فى الفقه بذكر أساليب تنظيمها^(٢٣١). وكانت المنطقة التى تقع فيها تاهرت غنية بالعيون والآبار فضلا عن نهر «مينة»^(٢٣٢)، حتى أطلق بعض الجغرافيين^(٢٣٣) على هذه الدولة «عراق المغرب»، فازدهرت الزراعة ، وأنتجت البلاد «ضروب الغلات»^(٢٣٤). وكذلك نعمت دولة الأدارسة بالاستقرار السياسى والاقتصادى ، وكانت الزراعة مصدراً للشراء فيها^(٢٣٥). وعلى الرغم من كساد الأحوال الاقتصادية فى الأندلس حتى منتصف القرن الثانى الهجرى (التاسع الميلادى) نتيجة لتوالى الثورات على أمراء قرطبة^(٢٣٦) وما اقترنت به من تخريب المزارع والمدن، فلم تليث هذه الأحوال أن تبدلت بفضل نهضة البلاد الصناعية والزراعية^(٢٣٧)، وعلى ذلك فقد نعمت هذه الدول بالاكتماء الذاتى، ويبدو أنها حرصت على تحقيقه نتيجة ظروفها السياسية الصعبة، ولم نسمع عن وجود علاقات تجارية اللهم إلا بين الرستميين والأمويين فى الأندلس .

من ذلك يتضح أنه إذا كان للأغالبة ثمة صلات تجارية مع هذه الدول فلاشك أنها كانت محدودة . يذكر لويس^(٢٣٨) أن «من صقلية قام تجار شمال أفريقيا بتوزيع بضائع القسطنطينية على سكان المغرب الأقصى»، ويقول أيضا : «ويبدو أن مسلمى شمال أفريقيا نقلوا بضائع الشرق إلى بلاد المغرب وربما إلى بلاد الأندلس»^(٢٣٩) «فربطوا توابع الشرق وحريره

٢٣٠- طبقات الإباضية ج ١ ورقة ٢٦ .

٢٣١- أبو غانم الصفرى : المدونة ورقة ٤ مخطوط .

٢٣٢- مجهول : كتاب الاستبصار ص ١٧٨ .

٢٣٣- البكرى : ص ٦٦ .

٢٣٤- الأزهار الرياضية ج ٢ ص ٨٦ .

٢٣٥- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٩٣ .

٢٣٦- ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١١ وما بعدها .

٢٣٧- القوى البحرية والتجارية ص ٢٧٥ .

٢٣٨- نفسه ص ١٨٥ .

٢٣٩- نفسه ص ١٨٩ .

ومصنوعاته برقيق الغرب وحديده وخشبه وزيت زيتونه»^(٢٤٠). وما يحملنا على تصديق لويس ما عرف عن ائجار الأغالية فى الرقيق الأبيض والأسود حتى أصبح من أهم موارد التجارة العالمية ، فكانوا يجلبون من الأندلس «الختم الصقالبة والجوارى الأندلسيات»^(٢٤١). وفضلا عن ذلك فقد جلبوا جلود الخنز والوبر والمصطكى والمرجان من بلاد الأندلس للائجار بها^(٢٤٢).

أما الرقيق الأسود الذى شاع فى المجتمع الأغلبى ولعب فى بعض الأحيان دوراً هاماً فى النواحي السياسية فكان يجلب من بلاد السودان التى «كانت وما يحاذيها من نواحي البحر خاضعة للأدارة»^(٢٤٣)، ويذكر الإصطخرى^(٢٤٤) أن هؤلاء السودان «ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا من البجة إلا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع وأصفى».

وإذا كان الاتصال التجارى بين الأغالية والأمويين فى الأندلس قاصراً فى المحل الأول على استيراد الرقيق الأبيض . وبينهم وبين الأدارة مقصوراً على جلب الرقيق الأسود ، فلاشك فى أن اتصالهم بالمدرايين والرستميين كان للحصول على الذهب والفضة . فالمعروف أن سجلماصة كانت غنية بالفضة، ومعدن الذهب الذى يوجد بديار المثلثين بين سجلماصة والسودان^(٢٤٥)، ولم يكن من الممكن الوصول إليه إلا عن طريق المدرايين لصعوبة الطرق إلى تلك الجهات ووعورتها^(٢٤٦)، لذلك حرص الأغالية على تمهيد طرق القوافل^(٢٤٧) لتسهيل التجارة مع هذه البلاد.

٢٤٠- نفسه ص ٢٥٢ .

٢٤١- الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ .

٢٤٢- نفس المصدر والصفحة .

٢٤٣- ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٨٩ .

٢٤٤- المسالك والممالك ص ٣٤ .

٢٤٥- المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٣٠ .

٢٤٦- نفس المصدر والصفحة.

٢٤٧- الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ .

٢٤٨- الإدريسى : صفة المغرب ص ١٢١ ، . ٢ . Op. cit. cit. Vonderheyden :

ج- العلاقات الثقافية

إذا كان الطابع العدائي في الناحية السياسية قد انعكس على العلاقات الاقتصادية بين الأغالية ودول المغرب والأندلس ، فكانت الصلات التجارية بينهما في أضيق الحدود ، فإن ذلك لم يحل دون ازدهار الحركة الثقافية بين القيروان وقرطبة وفاس .

وجدير بالذكر أن المصادر التاريخية لا تمدنا بأدنى إشارة عن وجود علاقات ثقافية بين الأغالية ودولتي الخوارج الصفرية والإباضية في سجلماصة وتاهرت. ويبدو أن الحياة الثقافية لم تزدهر في سجلماصة التي ظلت فترة طويلة بمثابة مجمع للخوارج الصفرية يضربون فيه خيامهم، ثم تحولت إلى ما يمكن أن نسميه بقرية صحراوية، وحين اتخذت شكل المدينة في عهد اليسع بن أبي القاسم انصرف اهتمام حكامها إلى إلى الشؤون التجارية ونشر المذهب الصفرى (٢٤٩).

أما تاهرت فلا شك في مكانتها العلمية والثقافية في عهد الرستميين على الرغم من الاضطرابات والقلقل الكثيرة التي سادتها ، ففي اعتقادنا أن ما حدث من انقسامات وخلافات في دولة الرستميين كانت ترجع أحيانا إلى أسباب فكرية ومذهبية (٢٥٠)، فهي لذلك مظهر من مظاهر الازدهار الثقافي ، يشهد على ذلك ما أثير من خلافات بسبب مسألة الإمامة وشرعيتها ، وما جرى من حروب مع الواصلية «المعتزلة». وحسبنا أن البيت الرستمى «كان بيت العلوم، جامعا بفنونها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرائض» (٢٥١)، فالإمام عبد الوهاب نسخ له أصحابه بالمشرق من الكتب والمخطوطات ما قيمته ألف دينار (٢٥٢)، وكان الناس ينشدون العلم من ابنه الإمام أفلح قبل بلوغه مبلغ الرشيد (٢٥٣)، أما الإمام محمد بن أفلح فقد كانت له تواليف متعددة بلغت أربعين كتابا (٢٥٤) كما شغف الإمام أبي حاتم يوسف محمد بالعلوم والفنون وهام بها حبا (٢٥٥) .

٢٤٩- سعد زغلول عبد الحميد : المغرب العربى ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

٢٥٠- الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ورقة ٢٧ .

٢٥١- نفسه ورقة ٢٥ .

٢٥٢- نفسه ورقة ٢٦ .

٢٥٣- الشماخى : سير علماء ومشايخ جبل نفوسة ص ٢٣١ .

٢٥٤- نفسه ص ٢٢٢ .

٢٥٥- نفسه ص ٢٨٢ .

وكان من الطبيعي أن تنعدم الروابط والصلات الثقافية بين تاهرت والقيروان، ويعزرو جوتيه^(٢٥٦) ذلك إلى جهل يبنى رستم بالثقافة العربية، فلم يتسن لهم الاتصال بمدرسة القيروان المزدهرة . وفى اعتقادنا أن الاختلافات المذهبية كانت السبب الأساسى فى ندرة الاتصال الفكرى بين الدولتين، فمدرسة القيروان نهلت من أصول سنية مالكية ، والمالكية أشد المذاهب بغضا للنحل المتطرفة^(٢٥٧)، بينما انتمى الرستميون إلى مذهب الخوارج الإباضية الذى يقول بتكفير مخالفيه^(٢٥٨).

ومن ثم فلا غرابة فيما قام به سحنون - شيخ المالكية بالقيروان- من طرد طائفة الخوارج الإباضية من جامع القيروان بعد أن كانوا « يجتمعون فيه، ويتظاهرون بمذهبهم »^(٢٥٩).

ويذكر الدباغ^(٢٦٠) أن أحد سكان تاهرت ويدعى بكر بن حماد- وكان شاعرا- سمع من سحنون فى القيروان، وكذلك من عون بن يوسف، ثم رحل إلى البصرة عام ٢١٧هـ وعاد إلى القيروان، ويخيل إلينا أنه كان متخفيا مستترا ، فلما كشف أمره، وسعى به عند الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد فر هاربا إلى تاهرت .

نما سبق يتضح وهن العلاقات الثقافية بين الطرفين بعكس ما كانت عليه علاقات الأغلبية مع البلدان الإسلامية الأخرى كمصر والأندلس والمغرب الأقصى ، حيث طغت وحدة الثقافة العربية الإسلامية على الخلافات السياسية والمذهبية.

فلم يحل العداء السياسى دون الاتصال الحضارى بين فاس والقيروان^(٢٦١)، كذلك لم تؤد الخلافات المذهبية إلى نفس النتيجة، فبالرغم من أن إدريس بن عبد الله كان علويا، وأن الدولة

٢٥٦- Les Siecles obscurs, p. 304 .

٢٥٧- رياض النفوس ج ١ المقدمة ص ١٣ .

٢٥٨- عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٠٣ .

٢٥٩- أبو العرب قسيم : طبقات علماء إفريقية ص ١٠٢ ، الدباغ : ج ٢ ص ٥٥ ، ابن أبى دینار : ص ٤٨ .

٢٦٠- معالم الإيمان ج ٢ ص ١٩٢ .

٢٦١- Vonderheyden : Op. cit. p. 265 .

الإدريسية كانت أشبه بملكية وراثية ، إلا أن مذهبها تمثل فى مزيج من التشيع الزيد والاعتزال . لذلك عرقوا بالتسامح والاعتدال ، ولم يكونوا قط شيعة إثنا عشرية كما ذهب بعض الدارسين المحدثين (٢٦٢) .

وعلى ذلك أسهمت فاس بنصيب كبير فى حضارة المغرب الإسلامى وعملت على نشر الإسلام والعروبة ومحاربة العقائد الشاذة فى المغرب الأقصى ، يؤكد ذلك ما قام به الأدارسة من فتوح بلغت ساحل المحيط انتهت بانقراض الإسلام المغربى ، وفى إحاطة إدريس الثانى نفسه بحرس من العرب ، واعتماده عليهم فى الإدارة والقضاء ما ينم عن عزمه على نشر العروبة فى الدولة الناشئة إلى جانب الإسلام (٢٦٣) ، وأصبحت مدينة فاس فى عهده ليست مجرد حاضرة للمغرب الأقصى ، بل صارت « دار علم وفقه وصلاح » (٢٦٤) .

وجدير بالذكر أن موقع دولة الأدارسة الجغرافى أثر إلى حد كبير فى اتجاهاتها الثقافية ، فوقعها بين إفريقية والأندلس ، وانقسام عاصمتها إلى شقين قروى وأندلسى ، طبع حضارتها بخصائص حضارة القيروان وقرطبة (٢٦٥) ، وإن كان من الثابت أن أثر القيروان كان أقوى من أثر الأندلس (٢٦٦) . والحق أن فاس كانت تأخذ أكثر ما تعطى فى مضمار الثقافة والفكر ، ولم تترك أثراً يذكر فى مدرسة القيروان ، فالمعروف أن الطرز العباسية فى الفن وجدت طريقها إلى بلاد الأدارسة عبر القيروان (٢٦٧) ، وقامت القيروان بدور الوسيط بين الشرق والمغرب الأقصى (٢٦٨) ، وظهر أثر ذلك واضحاً فيما شيده الأدارسة من منشآت ؛ فقد استخدموا الطوب الأحمر فى إقامة الحصون كما كان يفعل الأغالبة ، وليس من شك فى أن القبة نصف الدائرية

٢٦٢ - أنظر : سعد زغلول عبد الحميد . المغرب العربى ص ٤٠٨ .

٢٦٣ - القرطاس ص ١٣ ، ١٤ .

٢٦٤ - مجهول : تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والأندلسيين ورقة ٥٣ .

٢٦٥ - Marçais : Op. cit. p. 147 .

٢٦٦ - حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤٨ .

٢٦٧ - Brunscvig : Op. cit. p. 24 .

٢٦٨ - السلاوى : الاستقصاء ج ١ ص ١٤٨ ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧٠ .

لمدينة مسجد فاس تنتمى إلى طراز مدرسة القيروان فى الفن (٢٦٩)، كما يلاحظ أن جدران مدينة البصرة (٢٧٠) بالمغرب الأقصى بنيت على النسق العباسى (٢٧١) الذى وصل إلى المغرب الأقصى عن طريق القيروان، ولا غرابة فى ذلك إذا علمنا أن حوالى ثلاثمائة أسرة هاجرت من إفريقية ، وأقام لهم إدرىس الثانى رضى القرويين بمدينة فاس، ونقلوا معهم أساليب حياتهم التى ألفوها فى إفريقية ، وظلوا يحتفظون بها فى رضىهم المستقل (٢٧٢)، وبما ساعد على انتشار هذه الأساليب فى مجتمع الأدارسة ما تمتع به العرب من مكانة مرموقة فى دولة إدرىس الثانى وهيمتهم على مصائرها (٢٧٣).

ومن المؤكد أن إفريقية لم تتأثر فى قليل أو كثير بالمظاهر الحضارية الإدرىسية ، ويعزى ذلك إلى البون الشاسع بين الدولتين فى هذا المضمار وإلى عدم وفود رعايا الأدارسة إلى القيروان للدراسة على علمائها وفقهائها ، كما كان الحال بالنسبة للأندلسيين . وعلى ذلك فلم يقدر للمؤثرات الإدرىسية التسرب خارج الحدود اللهم إلا إلى ديار الملثمين ، ولم تنافس الأندلس وإفريقية فى المجال الحضارى، بل وقفت حيرى بين تلك المدرستين الراقيتين (٢٧٤) تتلقى عنهما المؤثرات .

ومن المعروف أن بلاد الأندلس فى ذلك الحين شهدت تقدما حضاريا ملموسا ، وأخذت قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الأموى تزدهر من الناحية العمرانية (٢٧٥) والفكرية، وأخذت المؤثرات الشرقية تتسرب إلى بلاد الأندلس بكافة جوانبها فى الفن والشعر والأدب والموسيقى وأنماط السلوك، ولا يخفى الدور الذى لعبه الحسن بن نافع الشهير بزياب فى هذا الصدد (٢٧٦).

٢٦٩- Brunschvig . Op. cit . p. 24 .

٢٧٠- هى مدينة واسعة تقع بحذاء جزيرة جبل طارق ، وتبعد عنها بمقدار اثنى عشر فرسحا . أنظر : الإصطخرى : المسالك ص٣٤ .

٢٧١- Terrasse : Op. cit. p. 214 .

٢٧٢- البكرى : المغرب ص١٢٤ .

٢٧٣- ابن أبى زرع : القرطاس ص١٣ ، العبرج ص٤ .

٢٧٤- حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٧١ .

٢٧٥- المقرئ : نفع الطيب ج٢ ص٨٤ .

ولم يمنع العداء السياسى بين إفريقية والأندلس من التقاء مدرستى القيروان وقرطبة وحدث التأثير المتبادل فى المجتمعين التونسي والأندلسى ، فقد لعبت القيروان وقرطبة- على تباعهما- دورا طليعياً فى مضمار الحضارة العربية، فغدتا بمثابة مشعلين لهذه الحضارة فى غرب الدولة الإسلامية (٢٧٧).

ولم يكن هناك مناص للالتقاء الفكرى والثقافى بين البلدين نتيجة مرور الحجاج الأندلسيين بإفريقية فى طريقهم إلى مكة (٧٨٢)، ولاشك أن ازدهار القيروان شجع هؤلاء الحجاج على التزود من مناهلها العلمية، وكثيرا ما استقروا بها طلباً للعلم على أيدي أئمتها وفقهائها (٢٧٩) فى طريق عودتهم إلى الأندلس ، وساعد على ذلك التجانس الفكرى بين الثقافتين ، فقد نهلا من معين واحد هو فقه مالك (٨٠٢) الذى الذى كان دعامة الحياة العقلية فى إفريقية والأندلس ، ومصر حتى قدوم الشافعى (٢٨١).

فكما ذاعت مدونة سحنون فى إفريقية ، تعلق الأندلسيون بالواضحة لابن حبيب ، والعتبية

٢٧٧- . Gautier : les Siecles obscurs . p. 259

٢٧٨- ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج ٢ ص ١٨ .

Idris : Op. cit. p. 125 .

٢٧٩- ابن الفرضى : نفس المصدر والصفحة .

٢٨٠- يرجع ذبوع مذهب مالك فى الأندلس إلى اتصال الأندلسيين المباشر بأهل الحجاز وتلمذ بعض فقهاءهم على مالك نفسه مثل يحيى الليثى الذى سماه مالك «عاقلاً الأندلس» (أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٧) . وقد أقبل أهل الأندلس على فقه مالك لوضوحه ورسوخه وتحديد استعمالات الرأى والقياس، الأمر الذى يتلأم مع عقليتهم.

(أنظر : ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠) ويضيف الدكتور مؤنس إلى ذلك عاملاً سياسياً يكمن فى ميل مالك للأمويين وسخطه على بنى العباس ، الأمر الذى جعل الأندلسيين يعتبرون المالكية «مذهباً قومياً» ورأياً سياسياً ارتبط مصيره بمصير البيت الأموى الأندلسى الحاكم» (أنظر ، صورة الأندلس ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) .

٢٨١- مما يؤكد ذلك تنقل الفقهاء المالكية بين الفسطاط والقيروان وقرطبة يدرسون ويدرسون أصول الفقه المالكية، فيحى بن يحيى الليثى الذى يرجع إليه الفضل فى نقل المذهب إلى الأندلس أقام بمصر مدة سمع فيها من الليث بن سعد وفقه بفقه . أنظر : نفح الطيب ص ٢١٧ .

للعتيبي^(٢٨٢)، بل إن المدونة حظيت بتقدير الأندلسيين فعكفوا على روايتها ودراساتها^(٢٨٣) كما كانت العتبية معروفة عند أهل القيروان^(٢٨٤). واحتل فقهاء المالكية بالأندلس مكانة مرموقة لدى الناس، واحتكروا لفترة طويلة مراكز القضاء والفتيا، واشتهروا بزعامتهم الشعبية^(٢٨٥) كما كان الحال بإفريقية.

ومن المؤكد أن ازدهار مدرسة المالكية بالقيروان أغرى طلاب الأندلس بالنزوح إليها للدراسة على فقهاءها ومحدثيها^(٢٨٦)، فأحمد بن سعيد بن حزم الذي اشتهر بالآثار والسنن وجمع الحديث تتلمذ في القيروان على أحمد بن نصر ومحمد بن محمد اللبان وإسحاق بن إبراهيم وغيرهم من أساتذة تونس^(٢٨٧)، وأحمد بن فتح بن عبدالله لم يحدث بالأندلس إلا بعد سماعه من عبدالله بن أبي زيد بالقيروان^(٢٨٨).

وقد حضر حلقات سحنون في الفقه المالكي الكثيرون من طلاب العلم الأندلسيين، فعبد الله بن الفرج الذي تولى صلاة قرطبة سمع منه^(٢٨٩)، وكذلك بقى بن مخلد القرطبي^(٢٩٠)، ومحمد بن يوسف بن مطروح^(٢٩١)، وعبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى - الذي برع في النحو إلى جانب الفقه^(٢٩٢) - وعبدالله بن محمد بن أبي الوليد^(٢٩٣) وغيرهم.

٢٨٢- ابن خلدون : المقدمة ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

٢٨٣- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج ٢ ص ١٧٢ .

٢٨٤- نفسه ص ١٨٢ .

٢٨٥- نفع الطيب ج ٢ ص ٢١٧ .

٢٨٦- الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٤١ . . Vonderheyden : Op. cit. p. 126 .

٢٨٧- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج ١ ص ٥٥ .

٢٨٨- الحميدى : المرجع السابق ص ١٤١ .

٢٨٩- القاضى عياض : ترتيب المدارك القسم الأول من ج ٢ ورقة ١٣٢ .

٢٩٠- ابن الفرضى : ج ١ ص ١٠٧ .

٢٩١- نفسه : ج ٢ ص ١١ .

٢٩٢- السيوطى : بغية الوعاة ج ٢ ص ٧١ .

٢٩٣- جذوة المقتبس ص ٢٤٩ .

واجتذبت مكانة سحنون وغيره من أعلام المالكية بعض الاتنلسيين لدرجة أثروا معها الاستيطان بإفريقية وهجروا بلادهم، كمحمد بن عامر القيسي^(٢٩٤) ، ويحيى بن عمر^(٢٩٥). وتبع من طلاب الأندلس فى إفريقية الكثيرون ممن ساهموا بجهودهم فى تقدم الدراسات الفقهية، ويشير أبو العرب^(٢٩٦) تميم إلى أن منهم من ناقش سحنون وعاب عليه وأبه فى بعض المسائل، وجادلته، وقارعه الحجة بالحجة ، ومع ذلك حظى سحنون بمكانة مرموقة لدى الاتنلسيين^(٢٩٧)، فلما مات «كانوا يبكونه ، ويضربون صدورهم كالنساء»^(٢٩٨). وخلف سحنون ابنه محمد بن سحنون وابن غافق وأحمد بن علول ومحمد بن عبدوس ، وقد نالوا جميعا إقبال الاتنلسيين على مجالسهم^(٢٩٩).

والحق أن الاتنلسيين بإفريقية لم يكونوا طلبة فقط يتلقون الدروس على فقهاءها ، بل منهم تولى مهام التدريس وحظى بحب طلبته ومريديه، ومن هؤلاء أبو عبدالله محمد بن عبد الملك بن فرج القرطبي ، الذى حدث بالمغرب وصنف السنن^(٣٠٠) ، وإبراهيم بن زرعة الذى روى عنه سحنون، وظل يدرس بإفريقية حتى وفاته عام ٢١٢هـ^(٣٠١) ، ومحمد بن محمد بن خيرون الذى قدم بقراءة نافع على أهل إفريقية ، واجتمع إليه الناس، ورحل إليه أهل القيروان من كل صوب^(٣٠٢)، ويحيى بن عمر الذى استوطن سوسة، ودرس بجامعة القيروان حتى أن العامة والخاصة لم يروا الموطأ والمدونة إلا عنه^(٣٠٣).

٢٩٤- ابن الفرضى : ج ٢ ص ٩ .

٢٩٥- الحشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٣٤ .

٢٩٦- طبقات علماء إفريقية ص ١٠٤ .

٢٩٧- البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٥ .

٢٩٨- معالم الإيمان ج ٢ ص ٦٧ .

٢٩٩- نفسه ص ٨٧ ، ٩٠ .

٣٠٠- نفع الطيب ج ٢ ص ٦ .

٣٠١- تاريخ العلماء والرواة للعالم بالأندلس ج ١ ص ١٦ .

٣٠٢- نفسه ج ٢ ص ١١٣ .

٣٠٣- معالم الإيمان ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

ومن ناحية أخرى فإن الكثيرين من فقهاء القيروان وعلمائها انتقلوا إلى الأندلس ، وقاموا بالتدريس فى مساجدها ، ومن هؤلاء أحمد بن سليمان الذى أقام بيجاية يدرس الفقه حتى توفى عام ٢٩٦هـ (٣٠٤) ، وكذلك عبدالله بن محمد القيروانى الذى طاف كثيراً من كور الأندلس حتى استقر بإشبيلية (٣٠٥).

ولم يكن الاتصال الثقافى بين الأغلبية والأندلسيين قاصراً على الجانب الفكرى فحسب (٣٠٦) ، بل ظهرت ثماره واضحة فى مجال العمارة والفنون ، فقد أسهم الأندلسيون فى تشييد الكثير من المنشآت الحربية والدينية فى إفريقية ، فحين شرع الأمير ابراهيم بن أحمد الأغلبى فى إنشاء قلعة مدينة تونس عام ٢٦٢هـ استعان فى بنائها برجال من الأندلس (٣٠٧) ، بل إن أحد أثرياء الأندلس ويدعى محمد بن خيرى المعافى أقام بالقيروان مسجداً عام ٢٥٢هـ عرف «بالمسجد ذى الأبواب الثلاثة» على نفقته الخاصة (٣٠٨) . ولا يخفى أن الطرز الأغلبية فى العمارة والفنون قد أثرت فى نظيرتها بالأندلس إلى أبعد الحدود ، فما حدث من استخدام الأندلسيين الطوب الأحمر فى إقامة مبانيهم إنما هو من أثر التقاليد الأغلبية فى العمارة ، ويشير برونشويج (٣٠٩) إلى أن مسجد قرطبة بعد توسيعه قد تأثر بالأنماط الفنية بالقيروان ، كذلك تأثر عبد الرحمن الناصر فى تشييده قصر الزهراء بما اتبعه أمراء الأغلبية فى إقامة قصورهم ، وقد درج الأمراء الأغلبية على الإقامة فى معسكرات خارج القيروان (٣١٠) عبارة عن قصور محاطة بالأسوار (٣١١) طلباً للأمن والراحة ، واحتذى الناصر حذوهم ليسلم من الأخطار الداخلية فى قرطبة فأسس قصر الزهراء على غرار القصور الأغلبية (٣١٢).

٣٠٤- ابن الفرضى : المرجع السابق ج ١ ص ٧٤ .

٣٠٥- جلوة المقتبس ص ٢٥١ .

٣٠٦- Vonderheyden : Op. cit. p. 267 .

٣٠٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

٣٠٨- نفسه ص ١٥٠ ، . Vonderheyden : Op. cit. p. 267 .

٣٠٩- La Tunisie danse l'haut moyen age p. 24 .

٣١٠- الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٣٤ .

٣١١- اليعقوبى : البلدان ص ٣٤٨ .

٣١٢- Terrasse : L'Art Hispano - Mauresque p. 83 .

١٤١

وتأثرت العمارة الأندلسية بنظام العقود الذي يعد من سمات التقاليد الأغلبية (٣١٣)، هذا فضلا عن تأثير الخزف الأندلسي بنظيره الأغلبى بدرجة واضحة (٣١٤).

* * *

Ibid . p. 401 . -٣١٣

وقد ذكر الدكتور أحمد فكرى أن زيادة الله هو أول من أنشأ تلك الحلية على باب مقصورة مسجد القيروان، ثم شاع استخدامها فى المغرب والأندلس وظهرت على أبواب المساجد ومداخل القصور ، وقد حفل مسجد قرطبة بإطارات مستطيلة منها لا تزال زاهية المنظر، وامتألت الفراغات فيها بزخارف لاتستقر عليها العين من كثرة تعددها . أنظر : جامع القيروان ص ٢٤ .

Terrasse : Op. cit. p. 177 . -٣١٤

الباب الرابع الأغالبة والعالم المسيحي

١ - العلاقات السياسية

أولا : الأغالبة والبيزنطيون :

طرد البيزنطيون من المغرب نهائياً فى عام ٨٩ هـ على يد موسى بن نصير^(١) واستقرت الأمور للعرب، ودخلت البلاد مرحلة جديدة فى ظل الإسلام والحضارة العربية. ولم يكن طرد البيزنطيين من المغرب خاتمة للعداوة التقليدية بينهم وبين العرب ، بل دخلت هذه العلاقات فى طور جديد يتمثل فى الإغارات المتبادلة التى شنها البيزنطيون على الشواطىء المغربية، وكان عرب إفريقيا بدورهم يقومون بإغارات مماثلة على الجزر الخاضعة للنفوذ البيزنطى فى البحر المتوسط، ولا يخفى أن البحر المتوسط كان فى ذلك الحين بحيرة بيزنطية^(٢).

ويبدو أن ما درج عليه الأمويون بالمغرب من الاهتمام بالنشاط البحرى جاء نتيجة للتهديد البيزنطى، ففى عهد عبد الملك بن مروان أقام عامله حسان بن النعمان دار صناعة بتونس^(٣) ، ولم يدخر ولاية إفريقية الأمويين وسعا فى الإغارة على الجزر البيزنطية، فتعرضت جزيرة صقلية للإغارات فى السنوات ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٣٠ هـ^(٤)، كما أغاروا على سردينية عام ١١٥ هـ .

غير أن هذا النشاط البحرى انحسر بعد سقوط الخلافة الأموية، فلم يحفل ولاية إفريقية من قبل العباسيين بشؤون البحر المتوسط لما شغلت به الخلافة من مشاكل فى الشرق، على حين زاد

١- فتوح البلدان ص ٢٧٢ ، نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ١٠ .

٢- حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٤ عدد ١ ص ٤٥ .

٣- ابن خلدون : المقدمة ص ٢٣ .

٤- المكتبة الصقلية : ج ٢ ص ٤٢٦ .

نشاطها فى الخليج العربى وبحار الهند ، هذا فضلا عن انشغال الولاة بشورات البربر^(٥). وليس من شك فى أن البيزنطيين إذ ذاك وجدوا الفرصة ملائمة ليتحولوا من الدفاع إلى الهجوم على الشواطىء المغربية^(٦)، ويبدو أن إغاراتهم كانت من الكثرة والخطورة بحيث جعلت التجارة بين مصر وإفريقية تتحول عن الطريق الساحلى إلى المسالك الداخلية^(٧)، بل اضطر بعض الولاة العرب إلى مهادنة البيزنطيين بتقديم الهدايا والألطفاء لقاء لشركهم. ولما لم تفلح جهود الولاة فى ردع المغيرين ، عمد المجاهدون من النساك والصالحين إلى إقامة الرباطات والمحارس على طول ساحل البلاد، وشكلوا خط دفاع قوى حال دون توغل الأعداء فى الداخل طلبا للغنيمة والسبى^(٨).

وكان قيام دولة بنى الأغلب فى إفريقية عام ١٨٤هـ (٨٠٠م) بداية تحول فى تاريخ العلاقات المغربية البيزنطية، فتسنى للبلاد التمتع بالاستقرار السياسى الذى حرمت منه طويلا، وأصبح الولاة قادرين ليس فقط على صد غارات البيزنطيين ، بل والقيام بحملات مضادة على مراكزهم البحرية والاستيلاء عليها. فبعد أن حصن إبراهيم بن الأغلب سواحل الإمارة بإقامة سلسلة من الرباطات فيما بين طبرقة وطرابلس، شرع فى اتخاذ سياسة الهجوم^(٩) فأغار فى عام ١٨٩هـ (٨٠٥م) على البلونيز ، وساعد الصقالبة فى حصار مدينة باتراس تنفيذا لمخطط وضعه العباسيون للتضييق على القسطنطينية برأ وبحراً^(١٠). وفى نفس العام عقدت معاهدة بين إبراهيم بن الأغلب وقسطنطين حاكم صقلية مدتها عشر سنوات وهى دليل على تراجع فى خطط البيزنطيين نحو إفريقية ، وتوقف سياستهم الهجومية ، إحساسا منهم بقوة الحكم الجديد فى البلاد. ونفذ إبراهيم بن الأغلب شروط المعاهدة ، وكف من جانبيه

٥- المكتبة الصقلية : ج ٢ ص ٤٧٦ ، فازيليف : العرب والروم ص ٦٤ .

٦- رياض النفوس ص ٣٤٨ .

٧- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٦٥ .

٨- المالكي : المرجع السابق ص ٣٤٨ ، ٣٩٤ ، Idris : Op. cit. p. 293 .

٩- Vonderheyden : Op. cit. p. 275 .

١٠- Setton : On the raids of the Moslms in the Aegan . P. 311 .

العربى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٥ .

عن الإغارة على الجزر والسواحل البيزنطية ، بسبب وطأة المشاكل الداخلية التي صحبت قيام دولته ، كما احترم البيزنطيون الاتفاق ، وتوقفت إغاراتهم على السواحل المغربية، فتمتعت البلاد بالأمن والهدوء، وشهدت صقلية فترة سلام لم تعرفها من قبل (١١).

واستؤنفت سياسة المسالمة في عهد أبي العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب الذي جدد المعاهدة التي عقدها والده من قبل مع حاكم صقلية البيزنطي في عام ١٩٨هـ (١٢).

وظلت هذه السياسة سائدة حتى أوائل سنى حكم زيادة الله الأول، فيقول ابن الأبار (١٣) أن «صاحب القسطنطينية فاض الأمير الأغلبى لشراء عمودي محراب جامع القيروان». ولكن لم يطل أمد السلام بين الأغلبية والبيزنطيين، إذ يبدو أن تفاقم الثورات في إفريقية شجع البيزنطيين على معاودة العدوان، الأمر الذي دفع زيادة الله إلى إعداد الأساطيل للإغارة على السواحل والجزر التابعة لهم. ففي عام ٤٠٤هـ بعث بقائده محمد بن الأغلب على رأس أسطول، الحق الضرر بالسواحل الصقلية ، وعاد محملاً بالغنائم والأسلاب (١٤)، كما أنفذ أسطولا آخر لغزو جزيرة سردينية لكنه عاد مهزوماً (١٥). وبالرغم من تحصين زيادة الله للشواطئ الإفريقية، عن طريق إقامة القلاع والمحارس «كقصر زياد» (١٦) و«القصر الكبير» (١٧)، فإن ذلك لم يحل دون استمرار تهديدات البيزنطيين . ففي سنة ٢١٢هـ شن «فيحي» قائد أسطول صقلية- بتحريض من الإمبراطور - غارة على شواطئ إفريقية ، وتمكن من اختطاف عدد من التجار المغاربة (١٨).

١١- Bury : Op. cit . p. 295 .

١٢- Loc. Cit .

١٣- الحلة السيرة ص ٢٥٢ .

١٤- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٣١ .

١٥- الكامل ج ٥ ص ١٨٥ .

١٦- رياض النفوس ص ٣٤٧ .

١٧- نفسه ص ٢٢٦ .

١٨- الكامل ج ٥ ص ١٨١ ، Bury : Op. cit. p. 296 .

هذه الإغارات المتبادلة تشير إلى تقيض ما يذهب إليه أمارى من مراعاة الطرفين الأغلبى والبيزنطى اتفاقيات السلام المعقودة بينهما ، فقد كانت الإغارات مستمرة بينهم وبين زيادة الله الأول ، وكانت السفن البيزنطية من ناحيتها تخرج من مراسى صقلية متوجهة إلى سواحل إفريقية ، فلا تنصرف إلا بفضل حماة السواحل الزاهدين والنساک القابعين فى الرباطات . ونادرا ما سنحت الفرصة لزيادة الله كيما يقوم بهجمات مضادة على القواعد البيزنطية فى البحر المتوسط ، وكان عليه كى يقطع دابر هذه الإغارات أن يقوم بغزو شامل لصقلية ؛ وتسنى له تحقيق ذلك بعد تخلصه من متاعبه الداخلية .

ولاجدال فى أن مشاكل الدولة البيزنطية ، وسياستها الفاشلة فى صقلية شجعت الأمير على الاضطلاع بمهمته بنجاح ، إذ أن الحروب الكثيرة التى خاضتها بيزنطة فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، والثورات المتعددة ضد الأباطرة ، وفساد النظام الإدارى ، واندلاع القلاقل الدينية ، والصراع مع البابوية حول السيادة (٢٠) ، كل ذلك أضعف من الدولة ، فلم تتمكن من متابعة مسؤولياتها بصقلية ، وأضعف مركزها فى الغرب . فشارلمان عول على غزو جزيرة صقلية مستعينا بنفر من الأحزاب المعارضة للإمبراطور البيزنطى (٢١) ، بينما سقطت كريت فى حوزة العرب فى عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) (٢٢) ، وبسقوطها فقدت بيزنطة قاعدة من أهم قواعدها فى شرق البحر المتوسط (٢٣) ، وغدت الجزيرة منطلقا للإغارات الإسلامية على سواحل البحر الإيجى (٢٤) . ولم تستطع البحرية البيزنطية المنهارة أن تحافظ على كيان الإمبراطورية فى البحار الغربية ، ويعزو بيتز (٢٥) هذا الانهيار إلى تراخى الاهتمام بالأسطول نتيجة إغارات

١٩ - Storia dei Musulmani di Sicili, vol . I. p. 352 .

٢٠ - Mercier : Op. cit. vol. I. p. 277 .

٢١ - Bury : op. cit. p. 318 .

٢٢ - Runciman . Byzantine Civilisation . p. 120 .

٢٣ - Ostrogorsky : History of the Byzantine State. p. 188 .

٢٤ - Runciman : Op. cit. p. 121 .

٢٥ - الإمبراطورية البيزنطية ص ١٨٥ .

العباسيين على ثغور الشام. واستفحل الأمر بسبب ثورة توماس الصقلي (٢٦) فى وجه الإمبراطور ميخائيل الثانى الذى بلغت الإمبراطورية فى عهده ذروة الضعف ، ومزقتها الحروب الأهلية (٢٧).

وقد تحين الأغلبية كل هذه الفرص وشرعوا فى فتح الجزيرة عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) (٢٨). وساعدهم على فتحها ما وصلت إليه أحوالها من فساد واضطراب ، ذلك أن العمال البيزنطيين بالجزيرة أسرفوا فى استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان، فأجذبت الأرض الزراعية، وهجرها الفلاحون واشتغلوا بالرعى، كما كسدت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة (٢٩). وانهارت الأحوال الاجتماعية لما جرت عليه الدولة البيزنطية من نفى المجرمين والمتمردين والمنبوذين إلى الجزيرة، وامتلات صقلية بجموع من العبيد الذين كثرت أعدادهم بشكل ملحوظ ، كما تداعت مكانة الكنيسة لتخليها عن مهامها الدينية ، وانصرفا إلى المباحج الدنيوية (٣٠). كل هذه الأحوال سهلت من مهمة الفاتحين ، إذ وجد السكان فى الأغلبية مخلصين لهم ومنقذين . فلا جدال فى أن اضطراب الأحوال السياسية فى صقلية أدى إلى استعانة أحد الثائرين على الإمبراطورية بالأغلبية لفتح الجزيرة.

٢٦- هو أحد رجال الحرس الإمبراطورى ، فر من الخدمة العسكرية بعد ارتكابه جريمة خلقية، واتصل بالخلافة العباسية فأزنته فى الإغارة على حدود الدولة البيزنطية الشرقية بقواته التى كونها من العرب والفرس والتوقازيين ، وانتهاز توماس فرصة مصرع الإمبراطور ليو الخامس عام ٨٢٠م ليتجه بأنظاره إلى القسطنطينية وازداد خطره بعد أن نصب نفسه مدافعا عن الأيقونية ، كما أعلن أنه مصلح اجتماعى لإنصاف الفقراء والمظلومين ، فجذب إلى جانبه غالبية سكان آسيا الصغرى، فضلا عن الصقالبة . وحظى توماس بمعطف المأمون العباسى ، فأمدته بجيش قوى ، وأمر بتروسيمة إمبراطورا على يد بطريرك أنطاكية، وفى عام ٨٢١م عول على حصار القسطنطينية بعد أن هزم جيوش ميخائيل الثانى، غير أن حركته لم تنجح لتخلى أنصاره عنه، واستعانة الإمبراطور بأمر تاج خان البلغار ، فلم يجد توماس مناصا من الهرب إلى أركاديا سنة ٨٢٣م، وهناك ضيقت عليه الجيوش الإمبراطورية الختاق ، فقبض عليه وقتل .

أنظر : Ostrogorsky : Op. cit. p. 181 ff.

٢٧- Ibid . p. 183 .

٢٨- فازيليف : العرب والروم ص ٥١ . Bury : Op. cit. p. 296 .

٢٩- Scott : Op. cit . vol . I. pp. 3,4 .

٣٠- Amari : Op. cit . vol . I. pp. 362 . ff .

ويجدر بنا أن نعرض للدوافع التي حفزت الأغلبية للقيام بحملتهم المشهورة . يحاول بعض المؤرخين^(٣١) الغربيين الخط من شأن الفتح والقول بأنه نوع من القرصنة المنظمة، بل اعتبره بعضهم مجرد حرب توسعية ذات أهداف اقتصادية ، وأنه «لم يكن فتحاً منظماً بقدر ما كان عملية سلب ونهب»^(٣٢) ، ومضى فنديرهيدن^(٣٣) فى نفس الاتجاه، فينفى عن الفتح صفته الدينية ويبرز العامل الاقتصادي والاستراتيجى - كغزوات صقلية، ووفرة خيراتها ، وكثرة سكانها ، وأهمية موقعها - كمغريات أسالت لعاب الفاتحين .

على أن التفسير الموضوعى لهذا الفتح لا يمكن أن يتجاهل أمرين على جانب كبير من الأهمية ؛ أولهما أن صقلية كانت قاعدة عدوانية للبيزنطيين يطلقون منها الإغارات على شواطئ إفريقيا فتمعن فيها سلباً ونهباً وتخريباً ، وتهدد طرق التجارة مع المشرق ، ومن ثم كان على الأمير الأغلبى أن يعد حملة قوية للاستيلاء على الجزيرة والقضاء على هذا التهديد^(٣٤) . كما أن الرغبة فى الجهاد - التى فترت حماسها حتى السنوات الأولى من حكم زيادة الله الأول- ما لبثت أن اشتدت بعد استقرار أحوال الدولة الأغلبية، وأصبح الأمير قادراً على تحقيقها ، ولعل ما نسج حول الحملة إلى صقلية من مناقشات دينية وفقهية ، وما جرى من اختيار قاضى وفقه^(٣٥) قائداً لها ، ما ينهض دليلاً على طابعها الجهادى . ولا ننسى أن الاضطرابات السياسية فى صقلية كانت الدافع المباشر للحملة الأغلبية ، وتتمثل فى حركة «إيوفييموس» - قائد الأسطول البيزنطى بصقلية - ومحاولته الاتسلاخ بالجزيرة عن كيان الإمبراطورية. وقد اختلفت المصادر الأوربية فى تفسير هذه الحركة، فاعتبر بعض المؤرخين زعيمها بطلاً قومياً أخذ على كاهله مهمة إحياء الإمبراطورية الرومانية^(٣٦)، بينما نظر إليها آخرون على أنها تعبير عن آمال الصقليين فى الخلاص من الحكم البيزنطى وتكوين دولة

٣١- ديمومين : دائرة المعارف الإسلامية- مادة بنى الأغلب مجلد ١ ص ٣٢٨ .

٣٢- Marcais : Op. cit. p. 152 .

٣٣- La Berberie Orientale . p. 247 .

٣٤- القوى البحرية والتجارية ص ٢٤٩ .

٣٥- ترتيب المدايك ج ١ ورقة ٩٥ ، رياض النفوس ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

٣٦- العرب والروم ص ٨٢ .

مستقلة بالجزيرة . ومهما كان الأمر فالذى لاشك فيه أن حركة إيوفيميوس كانت نتيجة طبيعية لمفاسد الإدارة البيزنطية فى الولايات، أو على الأقل الاستقلال بالولايات الثانية والانسلاخ بها عن كيان الإمبراطورية.

والمصادر الأوربية تضطرب حين تسرد وقائع هذه الحركة ، بينما تمدنا الرواية العربية بتفاصيل مقبولة، فيذكر ابن الأثير^(٣٧) أن الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثانى عين شخصا يدعى قسطنطين بطريقا للجزيرة سنة ٢١١هـ (٨٢٦م) ، واتخذ قسطنطين هذا من إيوفيميوس « فيمى » - حسبما يقول ابن الأثير - قائدا للأسطول ، لما عرف عنه من شجاعة وجرة، ثم حدث ما أثار غضب الإمبراطور على قائد الأسطول^(٢٨) فأعلن تمرده ، واتخذ من مدينة سرقوسة معقلا له ولأتباعه ، وحين خف البطريق لقتاله تمكن إيوفيميوس من هزيمته وقتله. غير أن أحد هؤلاء الولاة- ويدعى بلاطه - خرج عليه تأييدا للإمبراطور البيزنطى ، وتمكن من هزيمته ، واقصاه عن سرقوسة ، فغادر إيوفيميوس الجزيرة إلى إفريقية مستنجداً بأمير القيروان ضد خصومه . وعرض إيوفيميوس على زيادة الله فكرة غزو الجزيرة، على أن يكون عامله عليها ، يدفع الجزيرة ويدين له بالطاعة^(٣٩). لكن سفارة من قبل بطريق صقلية وفدت إلى البلاط الأغلبى تدعو الأمير لاتخاذ موقف الحياد من النزاع القائم فى الجزيرة^(٤٠)، فلم يسرع زيادة الله إلى تلبية عروض إيوفيميوس بل عقد مجلسه وطرح القضية على الفقهاء للبت فيها. وتجمع المصادر على وجود اتجاهين متنافرين داخل مجلسه ذاك، أحدهما مثله القاضى أبو محرز ، وقال بالتريث ، والآخر نادى بالتعجيل بإعداد حملة لفتح الجزيرة ، وتزعمه القاضى أسد بن الفرات^(٤١) . ويخرج بيورى^(٤٢) من موقف أبى محرز باستنتاج ليس ثمة ما ينهض

٣٧- الكامل ج ٥ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، العربى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٦ .

٣٨- يشير فازيليف إلى أن إيوفيميوس اغتصب إحدى الراهبات وتزوجها على كره منها ، فاشتكى أهلها للإمبراطور فى القسطنطينية ، فبعث إلى البطريق للتحقيق فى الحادث وأخذ القصاص من قائد الأسطول إذا ما ثبت إدانته. أنظر : العرب والروم ص ٦٧ ، ٦٨ .

٣٩- الكامل ج ٥ ص ١٨٦ .

٤٠- Sott : Op. cit. vol . 2 . p. 11 .

٤١- رياض النفوس ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

٤٢- Ahistory of the eastern Roman empire. pp. 297 , 98 .

على صحته ، وهو أن أبا محرز لم يتخذ هذا الموقف إلا حفاظاً على حرمة الاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، تلك الاتفاقية التي لم ينقضها الجانب البيزنطى ، ويعنى المعاهدة التى كان أبر العباس عبدالله قد عقدها فى عام ١٩٨هـ (٨١٣م) ، وجدها زيادة الله فى عام ٢٠٨هـ (٨٢٣م) . والواقع أن المراجع لم تشر إلى تجديد اتفاقية عام ١٩٨هـ ، بل كثيراً ما أثار البيزنطيون على الشواطىء الإفريقية فى الفترة ما بين عامى ١٩٨ ، ٢٠٨هـ ، كتلك الإغارة التى قام بها ايوفيمىوس قبل خروجه على الإمبراطور وأسر فيها نفراً غير قليل من رعايا الأغالبية^(٤٣) . لذلك كان من الطبيعى أن يأخذ زيادة الله برأى أسد بن القرات ، ويعمل على التعجيل بفتح الجزيرة لوضع حد لهذا التهديد . ودب النشاط داخل الرباطات والموانىء الأغلبية استعداداً للقيام بالحملة^(٤٤) التى كرس لها زيادة الله كل موارد البلاد^(٤٥) ، حتى أنه لجأ إلى هدم القبور للاستفادة بأخشابها فى صناعة السفن^(٤٦) ، وتمكن من حشد سبعين سفينة^(٤٧) مينا سوسة^(٤٨) ، شحنها بعشرة آلاف راجل وسبعمئة فارس^(٤٩) ، وأسندت قيادة الحملة إلى القاضى أسد بن القرات ، فاجتمعت له الإدارة والقضاء فى آن واحد^(٥٠) .

وفى ربيع الأول من عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) ، أقبلت الحملة من مينا سوسة متجهة إلى صقلية ، وألقت مراسيها بمدينة مازر ، حيث التقت بالجيش البيزنطى^(٥١) بقيادة «بلاطة»

٤٣- المالكى ص ١٨٦ ، ترتيب المذكرات ج ١ ورقة ٩٧ .

٤٤- Brunschvig : Op. cit. p. 14 .

٤٥- Vonderheyden . Op. cit. p. 267 .

٤٦- ترتيب المذكرات ج ٢ ورقة ٤٥ .

٤٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٢ . وقد بالغ سكوت فى تقديره لعدد السفن فقال بأنها بلغت مائتى سفينة.

أنظر : The Moorish empire . vol . 2 . p. 12 .

٤٨- مينا ساحلى بجنوب شرقى تونس ، يقع فى طرف داخل البحر ، ويحوطه سور من اللبن .

أنظر : البكرى : المغرب ص ٢٥ .

٤٩- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٢ . ويذكر المالكى أن عدد الفرسان بلغ عشرة آلاف

أنظر : رياض النفوس ص ١٨٨ .

٥٠- نفسه ص ١٨٧ .

٥١- يبلغ المالكى فى تقدير جيش بلاطة فيقول بأنه بلغ مائة وخمسين ألف مقاتل .

أنظر : رياض النفوس ص ١٨٨ .

وانتهى اللقاء بهزيمة البيزنطيين وهرب قائدهم^(٥٢)، وغنم الأغالبة «السبي والسائمة والكراع»^(٥٣)، ومن الجدير بالذكر أن أسدًا منع إيوفيمبوس وأتباعه من الاشتراك في المعركة^(٥٤)، لهذا لا يمكن الأخذ بما ذهب إليه سكوت^(٥٥) من أن المدينة استسلمت للمسلمين بفضل أتباع إيوفيمبوس . على كل حال ، فبعد هزيمة بلاطة خضع الكثير من الحصون للفاتحين دون عناء^(٥٦) مما حدا بزيادة الله أن يبعث للخليفة المأمون يعلمه بفتح الجزيرة^(٥٧) قبل أن ترسخ فيها أقدامه .

وبعد سقوط مازر، شرع أسد في حصار سرقوسة براً وبحراً ، بعد أن أتاه المدد من إفريقية^(٥٨) . وقد بادر الإمبراطور ميخائيل الثاني بإرسال أسطول ضخم لفك الحصار عن المدينة، كما أرسل إلى البندقية مناشداً دوقها تقديم المساعدة^(٥٩)، وفي ذلك ما يدل على أن الإمبراطور البيزنطي - رغم مشاغله - لم يفتّر اهتمامه بالجزيرة . ويبدو أن ما أصاب الجيش الأغلبى بعد ذلك من هزيمة إنما يعزى إلى هذه النجدة من ناحية ، ثم إلى انتشار الطاعون وموت أسد بن القرات^(٦٠) قائد الحملة في عام ٢١٤ هـ من ناحية أخرى. بل إن محمد بن أبي الجوارى - القائد الذى خلف أسد - قرر الانسحاب والعودة إلى إفريقية، فلم تمكنه السفن البيزنطية من تنفيذ خطته^(٦١).

٥٢ - الكامل ج ٥ ص ١٨٦ .

٥٣ - البيان المغرب ج ١ ص ١٣٢ .

٥٤ - رياض النفوس ص ١٨٨، المكتبة الصقلية ج ١ ص ١١٧ .

٥٥ - History of the Moorish empire in Europe. vol . 2 . p. 11 .

٥٦ - الكامل ج ٥ ص ١٨٦ .

٥٧ - رياض النفوس ص ١٨٨ .

٥٨ - الكامل ج ٥ ص ١٨٦ .

٥٩ - فازيليف : العرب والروم ص ٧٨ .

٦٠ - أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ص ٨٢ .

٦١ - الكامل ج ٥ ص ١٨٦ .

لكن المجاهدين المسلمين واصلوا الفتح، فاستولوا على مدينة، «مينوى» دون مقاومة تذكر، كذلك أسقطوا حصن «جرجنت»، وشجعهم ذلك على الزحف إلى مدينة قصربانة، وضربوا عليها الحصار، وتمكن أهلها من مخادعة إيوفيمبوس وأردوه قتيلا . وسارع ميخا ذيل الثانى بإرسال الإمدادات لتحول دون سقوط المدينة (٦٢)، غير أن وصول نجدة أندلسية قوامها ثلاثمائة مركب بقيادة إصبغ بن وكيل - المعروف بفرغلوش - وصلت إلى الجزيرة لتمديد العون للجيش الأغلبى فى الوقت الذى وصلت فيه إمدادات جديدة من إفريقية ، فرجحت كفة الفاتحين، وتمكنوا من استرداد كل ما فقدوه من قلاع وحصون (٦٣).

واصل الجيش الأغلبى انتصاراته فحاصر «بلرم» التى استسلمت فى عام ٢١٦هـ (٨٣١م)، بعد أن طلب حاكمها أن يؤمن على نفسه وماله (٦٤). ويسقط بلرم أصبح الاتصال بين المحاربين فى صقلية وإفريقية أمراً ميسوراً ، وبات فى الإمكان نقل المؤن والإمدادات إلى أية بقعة فى الجزيرة، فى مأمن من الأسطول البيزنطى (٦٥).

لم يحاول الإمبراطور تيوفيل (٦٦) أن يعمل على استرداد بلرم (٦٧)، إذ يبدو أنه كان مشغولاً بمواجهة حملات الخليفة المأمون على أرمينية سنة ٢١٥هـ (٨٣٠م) (٦٨) فتمكن الأغالبية من مواصلة نشاطهم، وخرجت السرايا من بلرم إلى سائر أنحاء الجزيرة (٦٩)، فى السنوات ٢١٩،

٦٢- نفسه ص ١٨٧ .

٦٣- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ . . Bury : Op. cit. p. 304 .

٦٤- ابن الأثير : المرجع السابق ص ١٨٧ ، فازيليف : العرب والروم ص ١١٧ .

٦٥- Scott : Op. cit. . vol . 2 pp. 22 , 23 .

٦٦- خلف تيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) ميخائيل الثانى فى حكم الإمبراطورية، واشتهر باهتمامه بالثقافة والآداب وخاصة الأدب العربى، ولم يحظ بحب البيزنطيين لإتباعه سياسة اللا أيقونية على الرغم مما عرف عنه من عدل وإنصاف للطبقات الفقيرة. انظر : . Ostrogorsky : Op. cit. pp. 183 - 84 .

٦٧- حاول تيوفيل أن يفرغ من مشاكله فى الشرق ليواجه الموقف فى صقلية، فبعد انتصاره فى طرسوس والمصيصة سنة ٨٣١م، عرض على الخليفة المأمون مصالحته نظير رده خمسمائة أسير بيزنطى، كما أرسل وفادة ثانية فى نفس العام مقدماً شروطاً فى صالح العرب كرده كل ما فتحه من حصون .

انظر : العرب والروم ص ١١٨ . . Bury : Op. cit. p. 259 .

٦٨- Ostrogorsky : Op. cit. p. 185 .

٦٩- Scott : Op. cit. vol . 2 . p. 24 .

٢٢٠ ، ٢٢٢ هـ تعرضت قرصيانة لإغارات الأغالبة، كما هاجمت سراياهم طبرمين وسرقوسة وإتتا «جبل النار» ، وقسطيلياسة، فى الوقت الذى تمكن فيه أسطولهم من الاستيلاء على جزيرة قوصرة سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥م) (٧٠)، حقيقة أن الأغالبة لم يحروزا خلال العامين التاليين لسقوط بلرم انتصارات حاسمة (٧١)، إلا أنهم فى الواقع غنموا الكثير من السلاح والمتاع والدواب (٧٢) ولم تعمل الدولة البيزنطية على مواجهة الأحوال المتدهورة فى صقلية إلا عام ٢٢٢ هـ (٨٣٧م) (٧٣). فأعد الإمبراطور تيوفيل جيشا بقيادة ألكسيس موسيلى ؛ لكن لم يكن له أثر يذكر واستدعاه الإمبراطور إلى القسطنطينية (٧٤).

وكان لوفاة الأمير زيادة الله وقع سىء فى نفوس المسلمين، فخبث روحهم ، ووهنت عزيمتهم (٧٥)، لكنهم ما لبثوا أن استردوا رباطة جأشهم بعد تولية الأمير أبى عقال الأغلب الملقب بخزر (٧٦).

وكان من الممكن أن ينتهز تيوفيل فرصة اضطراب أحوال المسلمين فى صقلية ، ويجند حملة لاسترداد الجزيرة ، لولا ما حدث من استيلاء الخليفة المعتصم على عمورية، كما أن أبا عقال سارع بإرسال الإمدادات إلى صقلية ، فتمكن الأغالبة من الاستيلاء على حصن البلوط وأبلاطنون، وقرلون ومرو ، وأغار أسطولهم على أرض قلورية (٧٧). بينما اشتدت إغارات مسلمى كريت على السواحل البيزنطية، فلم يجد الإمبراطور البيزنطى مخرجاً سوى الاتصال بدوق البندقية ولويس التقى الكارولنجى والخليفة الأموى عبد الرحمن الثانى، طالبا العون ضد

٧٠- الكامل ج ٥ ص ٨٨ .

٧١- العرب والروم ص ١١٨ .

٧٢- ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٨ .

٧٣- نفسه ص ١٨٩ .

٧٤- العرب والروم ص ١٢٣ .

٧٥- ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٩ .

٧٦- تولى أبو عقال (٢٢٣-٢٢٦ هـ) الإمارة عقب وفاة زيادة الله ، واتسم عهده بالهدوء فى الداخل، والانتصارات فى الخارج . انظر : البيان المغرب ج ١ ص ٣٩ ، العبر ج ٤ ص ٤٢٨ .

٧٧- أنظر : الأغالبة والفرنجية .

الأغالبة (٧٨)، والعباسيين (٧٩)، وعرب كريت (٨٠). ولم تتمخض هذه المساعي عن جهد مشترك ضد الأغالبة حتى صقلية وجنوب إيطاليا (٨١)، فعند وفاة تيوفيل (٢٠ يناير سنة ٨٤٢م) كان الأغالبة قد استولوا على القسم الغربى من صقلية. وما اتخذه ميخائيل الثالث (٨٢) - ابن تيوفيل - من إجراءات دفاعية فى صقلية، لم يحل دون تقدم الفاتحين، فقد سقطت مواقع البيزنطيين بالجزيرة الواحد تلو الآخر، حتى أنه فى نهاية حكم ميخائيل لم يبق للبيزنطيين بصقلية سوى سرقوسة وطبرمين (٨٣). وبعد وفاة أبى عقال عام ٢٢٦هـ، خلفه ابنه أبو العباس محمد (٢٢٦-٢٤٢هـ)، وتمكنت الجيوش الأغلبية فى عهده من فتح مدينة مسكان الحصينة سنة ٢٢٨هـ (٨٤٢م)، وواصلت تقدمها فى جنوب شرقى الجزيرة، كما فتحت مسينا بفضل مساعدة أسطول من نابلى، وتمت سيطرة الأغالبة على المضيق بين قلورية وصقلية (٨٤).

ولما عجت إفريقية بالثورات فى أواخر عهد أبى العباس محمد (٨٥)، امتد أثرها إلى صقلية، فاقترنت أعمال الفاتحين حتى سنة ٢٤٣هـ على شن إغارات متفرقة ليست بذات

Brunschvig : Op. cit. p. 16. - ٧٨

Vasiliev : Op. cit. p. 336. - ٧٩

Bury : Op. cit. p. 273 , Hole : Andalus. p. 83. - ٨٠

٨١- يرى بروفنسال أن فتح عمورية على يد المعتصم لم يكن الدافع إلى سفارات تيوفيل، ذلك لأنه كان نصرا قصير العمر، فما لبث الموقف العسكرى أن أصبح فى صالح بيزنطة فى آسيا الصغرى، ويستنتج من إرسال السفارتين الأخيرتين إلى البندقية وأخن فى نفس العام، الذى أرسل فيه سفارة إلى قرطبة، ما يؤكد أن الهدف كان يكمن فى القيام بعمل مشترك ضد الأغالبة.

أنظر : بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٩٨ ، ٩٩ .

٨٢- ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٦٧ .

Ostrogorsky : op. cit. p. 201. - ٨٣

٨٤- ابن الأثير : ج ٥ ص ٢٦٨ .

٨٥- من أهم هذه الثورات : ثورة أبى جعفر أحمد بن الأغلب سنة ٢٣١هـ، وثورة عامل الزاب محمد بن الأغلب وسالم بن غلبون سنة ٢٣٣هـ، وثورة عمرو بن سليم المعروف بالقوبع سنة ٢٣٤هـ.

أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٤٠-١٤٤ .

قيمة^(٨٦)، ففي سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠م) أغارت سراياهم على قصريانة ، وفي سنة ٢٣٨هـ (٨٥٢م) تكررت الإغارات على قصريانة فضلا عن قطانية وسرقوسة ونوطس ، وفي سنة ٢٤٣هـ (٨٥٧م) أغاروا على قصريانة وسرقوسة وطبرمين^(٨٧).

ولما تحقق الاستقرار للدولة الأغلبية في إفريقية على يد أبي إبراهيم أحمد بن محمد^(٨٨) (٢٤٢-٢٤٩هـ) أحرزت جيوش الفتح نصراً عظيماً في عام ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، فقد سقطت قصريانة قاعدة البيزنطيين^(٨٩) ، وكان لسقوطها وقع شديد في القسطنطينية ، فأرسل الإمبراطور ميخائيل الثالث أسطولاً كبيراً لحقت به هزيمة كبرى فلاذ بالفرار^(٩٠). وسقوط قصريانة تقلص النفوذ البيزنطي بصقلية ، إذ لم يعد المنطقة الواقعة حول سرقوسة على الساحل الشرقي، وبعض الجهات الداخلية، بينما استولى الأغلبية على ثلثي الجزيرة تقريباً^(٩١). لكن مناطق النفوذ الأغلب لم تكن خاضعة لسلطانهم تماما ، فقد انتقض سكان كثير من القلاع والحصون خاصة عندما وصلتهم الإمدادات البيزنطية^(٩٢).

وتجدد أمل البيزنطيين في استرداد صقلية عندما تولى باسل الأول^(٩٣) العرش سنة ٨٦٧م، فقد كانت الظروف مهيأة تماما ليتفرغ الإمبراطور لمشاكله مع الأغلبية بعد تخلصه من مشاكل الإمبراطورية في أرمينية، وقهره الروس والبلغار، وتحسن العلاقات مع البندقية وإمبراطور

٨٦- نفسه ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

٨٧- الكامل ج ٥ ص ٢٩٠ .

٨٨- خلف أباه أبي العباس محمد بعد موته، وقد تمتعت البلاد في عهده بالسلام والرخاء، وإليه ينسب توسيع جامع القيروان وإصلاح قنطرة باب أبي الربيع وبناء سورسوسة وإصلاح المسجد الجامع بتونس .

أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

٨٩- البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٧٨ .

٩٠- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٩ ، ٣١ . Scott: Op. cit. vol. 2. p. 31 .

٩١- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢١٧ .

٩٢- ابن الأثير : المرجع السابق ص ٢٩٠ .

٩٣- ينتمي باسل الأول إلى أسرة مقدونية ، وقد نجح في اعتلاء الحكم بعد موت براداس عم الإمبراطور واغتيال ميخائيل الثالث.

أنظر : Ostrogorsky : Op. cit. p. 200 .

الفرنجية^(٩٤). وكان باسل قائداً قديراً ، نجح فى إقرار الأمن فى البلاد ، وراجت تجارة الإمبراطورية فى عهده رواجاً كبيراً ، واسترد سلطة البيزنطيين فى جنوب إيطاليا^(٩٥)، وألحق الهزائم بجيوش الأغالية هناك، بل هددت أساطيله شواطئ إفريقيا ذاتها، الأمر الذى دفع الأمير الأغلبى أبو الغرانيق محمد بن أحمد إلى إنشاء الحصون والمحارس على ساحل إفريقيا^(٩٦). ورغم هذا لم يستطع باسل أن يسترد صقلية، وتركت الجزيرة لتلقى مصيرها^(٩٧)، وخصوصاً بعد استيلاء الأسطول الأغلبى على مالطة سنة ٢٥٥هـ (٨٧٠م)^(٩٨)، إذ كسب الأغالية نفوذاً جديداً فى البحر المتوسط^(٩٩)، وتأكدت سيطرتهم الكاملة على المضائق الواقعة بين صقلية وإفريقية^(١٠٠).

وسقوط سرقوسة سنة ٢٦٤هـ (٨٧٨م) دليل على خذلان الإمبراطور فى نضاله مع الأغالية، ذلك أن الفاتحين بعد الاستيلاء على قسريانة جعلوا من سرقوسة هدفاً لهم، فشرعوا يرسلون الصوائف إليها فى السنوات ٢٤٧، ٢٤٨ و ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٩هـ (١٠١)، بقصد الاستطلاع^(١٠٢). وفى سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧م) - فى عهد الأمير إبراهيم بن أحمد (٢٦١-٢٨٩هـ) تمكن الفاتحون من حصار المدينة براً وبحراً، وهزموا أسطولاً بيزنطياً أرسل لفك الحصار الذى استمر ستة أشهر، ثم سقطت فى النهاية بعد معركة رهيبة قتل فيها عدة آلاف من سكانها، «وأصاب المسلمون فيها من الغنائم ما لم يصب بمدينة من مدائن

٩٤- Vasiliev : Op. cit. vol . I. p. 370 .

٩٥- Runciman : Op. cit. p. 39 .

٩٦- ابن خلدون : المعبرج ٤٣١ .

٩٧- Runciman : Op. cit. p. 39 .

٩٨- الأتصارى : المنهل العلب فى تاريخ طرابلس الغرب ص ٨١ .

٩٩- Ostrogorsky : Op . cit . p. 210 .

١٠٠- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢١٧ .

١٠١- الكامل ج ٦ ص ٢٠ وما بعدها .

١٠٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٥١ ، ١٥٢ . Scott : Op. cit. vol . 2 . p.38 .

الشرك» (١٠٣)، ويؤيد المؤرخ البيزنطي تيودوسيوس هذا القول (١٠٤). وقد أقام المسلمون في سرقوسة شهرين بعد الفتح هدموها، وجعلوها طعمة للنيران (١٠٥)، وسقوط سرقوسة، تم للأغالبة فتح الجزيرة تقريبا (١٠٦)، وأرسل الإمبراطور البيزنطي أسطولا ضخما لقتال الأغالبة، لكنه عاد أدراجه بعد أن منى بالهزيمة (١٠٧).

وظلت بعض المدن الهامة مثل طبرمين على ولايتها للبيزنطيين بعيدة عن متناول الأغالبة، ويرجع ذلك ليس إلى مناعتها أو قوتها إنما إلى الخلافات داخل المعسكر الأغلبى، ففي الفترة ما بين سقوط سرقوسة وتولية العباس بن إبراهيم بن أحمد الأغلبى على صقلية، حدث الكثير من المؤامرات والاعتقالات، ومحاولات الاستقلال بالجزيرة عن الأغالبة، فضلا عما نشب من صراع العصبيات والقبائل المختلفة، وما جرى من فتن أذكاهما الثوار الذين أبعدها إلى صقلية (١٠٨). وكان ثمة ارتباط بين هذه الأحوال السيئة في صقلية وبين ما ساد إفريقية من فتن واضطرابات بسبب سياسة إبراهيم بن أحمد المتطرفة (١٠٩)، فلم يحرز الأغالبة بصقلية في هذه الفترة تقدما يذكر في ميدان الجهاد، واقتصرت أعمالهم على بث السرايا، طلبا للغنيمة والسبي.

كما انتعش النفوذ البيزنطي مستغلا تلك الحال السيئة فأحرزوا عدة انتصارات بحرية وبرية، ففي سنة ٢٦٦هـ (٨٧٩م) هزم الأسطول الأغلبى، ووقع معظمه غنيمة للبيزنطيين (١١٠)، وأرغم الأغالبة على طلب مهادنة البيزنطيين سنة ٢٧١هـ (٨٨٤م) كما أحرز البيزنطيون عدة انتصارات في صقلية وجنوب إيطاليا. ففي سنة ٢٧٢هـ (٨٨٥م) استولى

١٠٣- ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٥٥ .

١٠٤- أنظر : . 38 . 2 . Op. cit. Scott

١٠٥- الكامل ج ٦ ص ١٩ .

١٠٦- . 45 . 2 . Op. cit. Scott

١٠٧- ابن الأثير : المرجع السابق ص ١٩ .

١٠٨- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٥ وما بعدها .

١٠٩- نفسه ص ١٧٨ . العبر ج ٤ ص ٤٢٦ .

١١٠- ابن عذارى : نفس المصدر ص ١٥٦ .

القائد البيزنطى نقفور فوقاس على مدينة «سبرية» بعد أن أخلاها المسلمون (١١١)، وفى نفس العام لقيت «منتية» نفس المصير (١١٢)، وتم لنقفور استعادة سيادة البيزنطيين البحرية فى خليج نابلى (١١٣).

لكن هذا النشاط البيزنطى لم يدم طويلا، فقد شفى ابراهيم بن أحمد من مرضه واتخذ من الاجراءات ما كفل لدولته الاستقرار (١١٤)، وأرسل ابنه أبا العباس واليا على الجزيرة ومعه «مائة وعشرون مركبا، وأربعين حربى»، وتمكن الوالى الجديد من إقرار النظام، ووضع حد للشغب والفوضى (١١٥)، ثم استأنف الفتوح، فاقترح مدينة «زلة» عنوة، وغنمها، واستسلمت له الحصون وارتضت دفع الجزية (١١٦).

بل إن إبراهيم بن أحمد استدعى ابنه للاضطلاع بأعباء الحكم بافريقية، وقرر أن يواصل بنفسه الحرب ضد البيزنطيين. وفى أواخر ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م) أبحر بأسطوله إلى صقلية، ونزل بمدينة بلرم، وضرب الحصار حول ميقش، ثم فتح مسينا ودمر أسوارها (١١٧) واتجه إبراهيم بن أحمد إلى طبرمين الحصينة، التى استعصت على جيوش الفاتحين فى السنوات ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٦هـ - فسقطت فى آخر شعبان سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م) ودخلها الفاتحون عنوة، وهرب بعض سكانها عن طريق البحر (١١٨). وبسقوط طبرمين دانت الجزيرة نهائيا للأغالبة (١١٩). وأحدث سقوط المدينة وقعا سيئا عند البيزنطيين، ولم يستطع الامبراطور ليو السادس بن باسل أن يبذل محاولة أخيرة لاسترداد الجزيرة، فقد شغل بحرب سيمون البلغارى، واضطر إلى استدعاء قائده نقفور فوقاس من الميدان الغربى (١٢٠).

١١١- نفسه ص ١٥٩.

١١٢- الكامل ج ٦ ص ٦.

١١٣- Scott : Op. cit. vol. 2. p. 49.

١١٤- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧.

١١٥- الكامل ج ٦ ص ٩٧.

١١٦- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٧.

١٧- الكامل ج ٦ ص ٦.

١١٨- نفسه ص ٥، ٦ لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢١.

١١٩- Vasiliev : Op. cit. vol. 1. p. 372.

١٢٠- Ostrogorsky : Op. cit. p. 226, 27.

بهذا تمكن إبراهيم بن أحمد من وضع نهاية للصراع البيزنطى الأغلبى على أرض صقلية، وانصرف إلى التمكين لنفوذه فى الجزيرة، ففى أواخر عام ٢٨٩هـ (٩٠١م) بعث حفيده زيادة الله إلى قلعة «ميش» فافتتحها ، كما دفع أهل «رمطة» الجزيرة صاغرین لإبنه أبى محرز^(١٢١)، ودانت حصون «دمتش» و «الباج» لطاعة الأغالبة^(١٢٢). وعبر إبراهيم إلى إيطاليا واستطاع أن يقود هناك عدة معارك ناجحة لقي حتفه فى إحداها فى ١٨ ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ (١٢٣). وهكذا أنهى إبراهيم بن أحمد فتح الجزيرة قبل وفاته، وتم له طرد البيزنطيين منها نهائيا .

ثم دب الضعف فى دولة الأغالبة بعد ابراهيم بن أحمد ، وثارت الفتن بين أفراد الأسرة الحاكمة طمعا فى الإمارة ، فضلا عن تفاقم الخطر الشيعى واستفحاله وانشغال الأمراء بمقاومته ؛ حتى أن مدنا بأكملها دخلت فى الدعوة الجديدة. ومن المحتمل أن يكون الأغالبة قد اتصلوا بالبيزنطيين للاستعانة بهم لمداغة الخطر الشيعى، بدليل قدوم سفراء من بيزنطة إلى رقادة بصحبة ابن حبشى وابن حجر رسولى زيادة الله إلى القسطنطينية بعد عودتهما . وما حدث من ترحيب زيادة الله بمقدمهم «وجمعهم الناس للمباهاة بهم»^(١٢٤) يرجح هذا الاحتمال.

ويحق لنا أن نسأل لماذا طال أمد الحرب فى صقلية حتى استغرقت ما يتيف على سبعين عامًا ؟ من الواضح أن فتح صقلية ارتبط أشد الارتباط بتطور الأحوال فى كل من إفريقية والدولة البيزنطية، وكانت الفتوح تتأثر بما يدور فى القيروان والقسطنطينية ، فالإمدادات التى كان يبعثها حكام القيروان أو الأباطرة البيزنطيون إلى صقلية تركت أثرا فعالا فى سير عمليات الفتح ، وكانت هذه الإمدادات تتوقف كثرة أو ندرة ، قوة أو ضعفا ، على استقرار الأحوال العامة أو اضطرابها فى إفريقية وبيزنطة على حد سواء. لهذا كان تقدم العرب فى الجزيرة واستيلاؤهم على المدن والمعاقل الهامة يتم دائما فى عهود الأمراء الأقوياء كزيادة الله الأول، وأبى الغرانيق وإبراهيم بن أحمد ، بينما تدهور موقفهم فى الجزيرة حين عمت

١٢١- المبرج ٤ ص ٤٣٦ .

١٢٢- الكامل ج ٦ ص ٦ .

١٢٣- نفس المصدر والصفحة.

١٢٤- ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١١٥ . . Vonderheyden : Op. cit. p. 280 .

الاضطرابات إقليمية نتيجة الثورات والنزاع على الإمارة وضعف شخصية الأمراء أو فساد سياستهم . ومن ناحية أخرى فإن انتعاش النفوذ البيزنطي في صقلية ارتهن أيضا بشخصيات الأباطرة ومشاكل الدولة العامة كالحروب مع العرب والروس والبلغار . ولا جدال في أن إغارات المعتصم - مثلا - قد فتت في عضد الإمبراطور البيزنطي تيوفيل وحالت دون تفرغه لمشاكل الإمبراطورية في الغرب ، كذلك انعكس ضعف ميخائيل الثالث على أحداث صقلية ، وأدى إلى توطيد أقدام الأغلبة بالجزيرة ، على حين اشتد ساعد البيزنطيين فيها حين تولى الحكم في القسطنطينية إمبراطور قوى كباسل الأول.

ومن ثم فقد كان النضال بين الطرفين شاقا ومتكافئا ، وإن رجحت كفة الأغلبة في أغلب الأحيان . فلم يسلم البيزنطيون الجزيرة لقمة سائغة للفاتحين ، بل استبسلوا في الدفاع عنها بالقدر الذي سمحت به ظروفهم الداخلية والخارجية^(١٢٥) . ومن مظاهر عنف هذا النضال ما اتسمت به أعمال الفاتحين من تنكيل وقسوة وإرهاب ، على خلاف ما عرفت به الفتوح الإسلامية عادة . فعرف عن الجند الأعلى الإسراف في سفك الدماء ، والإقدام على هدم المدن وإحراقها بعد فتحها^(١٢٦) ، دون نظر إلى طلبها الأمان^(١٢٧) . ويبدو أنهم اضطروا إلى ذلك لخوفهم من انتفاضها عليهم عندما تتلقى الإمدادات من القسطنطينية ، والمعروف أن هذه الإمدادات كانت تتدفق خاصة بعد سقوط المدن والمعازل الهامة بالجزيرة . وتبالغ المصادر العربية في وصف هذه الإمدادات فتقدها في المرة الواحدة بما يزيد على المائة ألف من المقاتلة ، في حين أنها لم تتعد العشرة آلاف في أغلب الأحيان^(١٢٨) ، كما يبالغ المؤرخون العرب في تقدير ضحايا هذه المدن ، فيذكرون أن القتلى في المعركة الواحدة فاقوا العشرة آلاف ، في حين لم يخسر المسلمون سوى بعض الأفراد^(١٢٩) ، ولو كانت اللقاءات بين الطرفين تنتهي على هذه الوتيرة ، لما استغرق الفتح طيلة هذه المدة ، ولو وقعت الجزيرة لقمة سائفة لبني الأغلب.

١٢٥- لويس : القوي البحرية والتجارية ص ٢١١ .

١٢٦- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٥ .

١٢٧- موطأ مالك ورقة ٢٢٨ .

١٢٨- . p. 43 . Byzantium ; greatness and decline . Deihl

١٢٩- الكامل ج ٥ ص ٢٦٨ وما بعدها .

وقد قمخض هذا النضال الطويل عن نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية .

فقد أصبحت صقلية بلداً إسلامياً تابعا للأغالبة ، وغدا حاكم الجزيرة فى بلرم بعين من قبل أمير القيروان . ولما كانت مهمة والى صقلية عسكرية فى المحل الأول ، فكان يختاره كبار رجال الجيش ثم يقلده أمير القيروان ويبعث إليه بعهد الولاية. ففى عام ٢٣٦هـ توفى محمد بن عبدالله أمير صقلية «فاجتمع المسلمون بها على ولاية العباس بن الفضل فولوه أمرهم، وكتبوا بذلك إلى محمد بن الأغلب فأرسل عهداً بولايته» (١٣٠)، وكذلك كان الحال بالنسبة لعبد الله بن العباس (١٣١)، ومحمد بن خفاجة (١٣٢) وغيرهما من ولاية بلرم .

وكان الوالى يسكن القصر فى بلرم ويودع فيه المال والسلاح والكساء، ويعين من قبله عمالا على المدن يخضعون له مباشرة (١٣٣)، كما كان للقضاء دار خاصة فى بلرم تجرى أحكامها وفق نظام القضاء فى القيروان (١٣٤).

وخضع سكان صقلية للأنظمة المالية الإسلامية المتعارف عليها فى إفريقية (١٣٥)، وازدهرت أحوالهم الاقتصادية بالرغم من كثرة الحروب (١٣٦) وما نجم عنها من أضرار . ويصف الاصطخرى (١٣٧) الجزيرة بأن «فيها من الخصب والزرع والمواشى والرقيق ما يفضل سائر مدن الإسلام المتاخمة للبحر» . ولاشك فى أن الأغلبية أدخلوا أنواع جديدة من الزراعات إلى الجزيرة كالليمون والبرتقال والقصب والأرز والقطن (١٣٨)، كما ازدهرت الصناعة فى الجزيرة فى عهد

١٣٠- الكامل ج ٥ ص ٨٩ .

١٣١- نفسه ص ٣٠٦ .

١٣٢- نفس المصدر والصفحة.

١٣٣- إحسان عباس : العرب فى صقلية ص ٥٠١ .

١٣٤- رياض النفوس ص ٥٠١ .

١٣٥- ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٤ .

١٣٦- ابن عذارى : ج ١ ص ١٣٥ وما بعدها .

١٣٧- المسالك والممالك ص ٥١ .

١٣٨- Heyd : Op. cit. vol. I. p. 50 .

الأغالبة فاشتهرت صقلية بملابسها الكتانية ، وصناعة السفن والجلود والحبال والسكر والورق^(١٣٩) ، ومن الطبيعي أن تروج تجارتها بعد أن أصبحت مركزا هاما للتجارة الدولية، كما غصت بالفنادق والأسواق التي كانت كنظيرتها في إفريقية من حيث تنسيقها وتخصصها^(١٤٠).

وشهدت الأحوال الاجتماعية في صقلية تطورا ملحوظا ، فقد اختفى العنصر البيزنطى من الجزيرة ، وتحورت طبقة العبيد^(١٤١) بدخولها الإسلام، وظهرت عناصر جديدة من العرب والبربر والفرس والحراسانيين لتتولى الصدارة^(١٤٢).

كما انعكست الأحوال الثقافية في إفريقية على نظيرتها في صقلية، وأصبحت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه المالكي وفقا لموطأ مالك ومدونة سحنون . وبين فقهاء بلرم اشتهر أبو عبدالله حمدون بن عبد الله^(١٤٣) ومحمد بن ميمون بن عمرو ومحمد بن نصر بن حضم الذين بفضلهم تم انتشار المذهب المالكي في صقلية ، وألف سالم بن سليمان الكندى قاضى صقلية كتابه في الفقه المعروف «بالسليمانية»^(١٤٤).

ولا جدال في أن ازدهار علم القراءات في صقلية كان نتيجة طبيعية لسيادة طريقة نافع وورش بإفريقية التي دخلتها عن طريق مصر. وكذلك انتشر التصوف بصقلية وعمت الروابط سواحلها ، ومن أعلامه الحسن الصقلى الحريرى الذى قضى عمره فى الزهد والعبادة والتسك^(١٤٥). ويعجب المؤرخ سكوت لهذا الازدهار الثقافى الذى عم الجزيرة على الرغم من كثرة الحروب والصراع بين الأغالبة والبيزنطيين .

١٣٩- إحصان عباس : العرب فى صقلية ص ٧٣ .

١٤٠- ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٣ .

١٤١- إحصان عباس : المرجع السابق ص ٦٣ .

١٤٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٣٢ .

١٤٣- رياض النفوس ص ٣١٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ .

١٤٤- أبو العرب قيم : طبقات علماء إفريقية ص ١٤٨ .

١٤٥- العرب فى صقلية ، ص ٨٦ .

١٤٦- أنظر : . p. 61 . vol . 2 . History of the Moorish empire

ومن أهم النتائج التى قمخضت عن فتح صقلية إسهام حركة الجهاد فى الجزيرة فى حل مشاكل دولة الأغالبة الداخلية، فليس يخفى أن فتن الجند المتوالية التى شغلت الأغالبة لأوائل، وهددت بالقضاء على دولتهم استطاع الأمراء التخلص من مثيريها بإرسالهم إلى ميدان الجهاد بصقلية. وتحولت احقادهم ضد دولة الأغالبة إلى نوع من الحماس الدينى كان له بعد الأثر فى إذكاء حركة الجهاد .

ومن ناحية أخرى لم تخل حركة الجهاد فى صقلية من فوائد مادية عادت على الأغالبة ، نقد آلت إليهم غنائم كثيرة ^(١٤٧)، إذ استولوا على كنوز الكنائس وأموال الأثرياء التى صارت لهم حقا مشروعاً ، لهذا خففوا من الأعباء المالية على الرعية فى إفريقية ، ولم تعد الأزمات لاقتصادية تدفعهم إلى الثورة . كما شهدت إفريقية حركة عمرانية لم تعرفها من قبل، إذ بات فى مقدور الأمراء إقامة المساجد وبناء الرباطات والحصون والأسوار، وإنشاء المدن والمواجل والخزانات والقناطر .

وكان من الطبيعى أن تتأثر أحوال بيزنطة باستيلاء الأغالبة على صقلية وإحرازهم السيادة فى حوض البحر المتوسط ، ففضلاً عن خسارتهم المادية فقد فقدوا سيادتهم البحرية بعد أن « صار البحر المتوسط خالياً من أى نفوذ للأمم النصرانية بشئ من جوانبه » ^(١٤٨).

وكانت هنالك نتائج حضارية بسبب اللقاء بين الأغالبة والبيزنطيين، منها تأثر الفن الأغلبى - فى بعض جوانبه - بالتقاليد البيزنطية ، ويتجلى ذلك بصورة واضحة فى القلاع والحصون والعمائر التى شيدت فى إفريقية فى عصر الأغالبة ^(١٤٩).

ثانياً : الأغالبة والفرنجية :

كانت علاقات الأغالبة بالفرنجية تتأثر بشكل واضح بعلاقات المودة بين شارلمان وهارون الرشيد، لذلك لا يمكن فهم هذه العلاقات إلا إذا فهمنا طبيعة العلاقات العباسية الكارولنجية ، ومن ثم تعتبر دراسة علاقة شارلمان بهارون الرشيد أمراً ضروريا لفهم طبيعة العلاقات الأغلبية الكارولنجية .

١٤٧- ديموين : دائرة المعارف الإسلامية- مادة بنى الأغلب ص ٣٢٨ .

١٤٨- ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٤ .

١٤٩- Terrasse : Op. cit. p. 400 , 401 .

تتفرد مصادر تاريخ الفرنجة المعاصرة بالتعرض لهذا الموضوع ، بينما المصادر العربية تلوذ بالصمت تماما . وليس هذا الصمت - فيما نعتقد - إنكارا لوجود هذه العلاقة، بل يفسر بأن المعاصرين اعتبروا مسلك الخليفة في مهادنة «عاهل الفرنجة» وملاطفته بالهدايا ، وحماية الحجاج المسيحيين ، منافاة لروح العصر. في حين تبالغ المصادر الفرنجية في هذا الموضوع تفخيما لشارلمان، وإظهارا لعظمته واتساع امبراطوريته، حتى أن اجنيهارد^(١٥٠) في كتابه «سيرة شارلمان» يذكر أن الرشيد «قبل أن يجعل تحت سلطان شارل بيت المقدس والقبر المقدس» . وفي نفس المعنى يخبرنا راهب دير القديس جال «أن هارون الرشيد خاطب سفراء الفرنجة بأنه سيجعل الأرض المقدسة لشارل، وسوف يكون نائبه عليها»^(١٥١). وليس من المعقول أن يقبل الخليفة العباسي أن يكون تابعا لشارلمان أو نائباً له في حكم بلد من بلاد^(١٥٢) وكل ما حدث أن الخليفة سمح لشارلمان بممارسة نوع من الحماية للمسيحيين في الدولة الإسلامية، وإغداق الهبات على الكنائس في إفريقية وبيت المقدس^(١٥٣).

وثمة أمر آخر يردده كل من أرخوا لشارلمان ، وهو أن تحالفا عقد بين هارون الرشيد وشارلمان لمواجهة أخطار الأمويين بالأندلس والبيزنطيين، ويستمدون القول مما حدث من عداوة بين العباسيين والأمويين بالأندلس، في الوقت الذي وقع فيه الاختلاف بين الدولة البيزنطية وإمبراطورية الفرنجة، فالتقت بغداد وأخن في عداوة قرطبة والقسطنطينية^(١٥٤)، وأن ملك الفرنجة كان مدفوعا إلى ذلك برغبته في إحياء الإمبراطورية الرومانية^(١٥٥)، الأمر الذي جره إلى معاداة البيزنطيين الذين اعتبروا أنفسهم ورثة هذه الإمبراطورية، أما الرشيد، فكان يطمع في استرداد الأندلس وبسط سيادته على الإمبراطورية البيزنطية^(١٥٦).

١٥٠ - Eginhard : Vie de Charlemagne , trad . par Halphen . p. 47 , 48 .

١٥١ - ديفز : شارلمان ص ٢٠ .

١٥٢ - Buckler : Op. cit. p. 32 .

١٥٣ - ديفز : شارلمان ص ٢٠٣ .

١٥٤ - نفسه ص ٣٩٣ ، p. 281 Winston : Charlemagne from the hammer to the cross .

Brunschvig : Op. cit. p. 32 .

١٥٥ - De Mas Latrie : Traites de paix et de commerce p. 5 .

١٥٦ - Buckler : Op. cit. p. 4 .

لاتنكر أن تلك الظروف الدولية خلقت نوعا من التقارب بين البيزنطيين ومسلمى الأندلس ، وبين الفرنجة والخلافة العباسية، لكن الذى لاشك فيه أن هذه العلاقات لم تصل إلى درجة التحالف الفعلى . فالتقارب بين بيزنطة والأندلس لم يترك أثرا على دولة الفرنجة، ولذا لم يكن شارلمان بحاجة ليعيد التوازن المفقود عن طريق تحالفه مع العباسيين كما يذهب برنشويج^(١٥٧). ولم يكن فى نزاعه مع الأباطرة البيزنطيين يطمع فى أن يكون هو الإمبراطور الوحيد فى العالم المسيحى، بل كان يرغب فى أن يعترف به البيزنطيون إمبراطورا فى الغرب ، حتى أنه فى عام ١٩٥هـ (٨١٠م) قدم للإمبراطور البيزنطى نقفور عروضاً مغرية فى مقابل اعترافه بالإمبراطورية الغربية على قدم المساواة مع الإمبراطورية الشرقية^(١٥٨).

ولم تكن الخلافة العباسية فى عهد الرشيد تطمع فى استرداد الأندلس^(١٥٩)، فمشاكلها فى المشرق كانت كبيرة الأمر الذى دفعها إلى أن تتراخى عن دعم سلطانها فى المغرب. ونعتقد أن الرشيد لم يدر بخلده أن يعقد تحالفا مع شارلمان للقيام بحرب البيزنطيين ، فقد كان منتصرا، وأرغم أباطرتهم على دفع الجزية^(١٦٠)، وليس أدل على رهبة البيزنطيين منه من جعل يوم وفاته عيداً لهم^(١٦١).

أما الأمويون بالأندلس فلم يهتموا بأمر المشرق بقدر انشغالهم بمشاكلهم فى الغرب^(١٦٢). لذلك ترجح أنه لم يحدث تحالف بين بغداد وآخن نتيجة الظروف السالفة الذكر. وفى نفس الوقت لم تكن علاقة شارلمان بهارون الرشيد «مجرد وهم تاريخى» كما يذهب الدكتور مؤنس^(١٦٣)، بل إن كل ما حدث لم يتعد تبادل السفارات والهدايا^(١٦٤). وكانت هذه العلاقات

١٥٧- La Tunisie le haut moyen age . p. 16 .

١٥٨- ديفز : شارلمان ص ١٨٧ . . Eginhard : Op. cit. pp. 50 , 51 .

١٥٩- طرخان : المسلمون فى فرنسا وإيطاليا- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٣ ج ٢ ص ٥١ .

١٦٠- التاريخ المجموع على التحقيق ص ٥١ .

١٦١- ابن الناية : المكافأة ص ٨١ .

١٦٢- البيان المغرب ج ٢ ص ٩٥ وما بعدها .

١٦٣- المسلمون فى حوض البحر المتوسط إلى الحروب الصليبية- المجلة التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد

١ ص ١٥٧ .

١٦٤- Eginhard : Op. cit. p. 49 ، لعرنى : بعض معالم عهد شارلمان- المجلة التاريخية المصرية

مجلد ٨ ص ١٥٠ .

الودية بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة الكارولنجية استمرارا لما كان من تقارب بين المنصور وبيبين القصير (١٦٥).

كانت السفارات المتبادلة بين الطرفين تمر بإفريقية سالكة الطرق البرية، (١٦٦)، خشية عدوان البيزنطيين الذين كانت لهم السيادة في البحر المتوسط، وكان مندوبون ومرشدون من إفريقية يرافقون هذه السفارات جيئة وذهابا بين بغداد وآخن (١٦٧).

أما الأغلبية فقد اقتصرنا على القيام بهذا الدور فقط، دور الوساطة، ولم يرسلوا سفارات مباشرة من القيروان إلى بلاط الفرنجة. وقد ذكر أن مندوبا أغليبا كان في بلاط شارل في عام ١٨٥هـ (٨٠١م)، لعل مهمته كانت إبلاغ الإمبراطور بنجاح سفارته التي كان قد أرسلها إلى الرشيد في عام ١٨١هـ (٧٩٧م). يؤكد ذلك أن المندوب الأغليبي كان يرفقته مبعوثا آخر من قبل الرشيد (١٦٨). وجدير بالذكر أن شارلمان كان قد أوفد سفارة سنة ١٨١هـ بقصد الحصول على فيل من أفيال الرشيد (١٦٩)، وقد استجاب الرشيد إلى طلبه، ووصل الفيل فعلا إلى بلاط آخن سنة ١٨٧هـ (٨٠٢م) يصحبه يهودي اسمه اسحاق (١٧٠). ومن المعروف أن هذا الفيل مر بإفريقية، ومن أحد ثغورها شحن في سفينة أبحرت به إلى ميناء «لونا» بإيطاليا ومنها إلى آخن (١٧١).

١٦٥- القوى البحرية والتجارية ص ١٧٨.

١٦٦- نفسه ص ١٠٣.

١٦٧- Latrie : Op. cit. p. 11.

١٦٨- Buckler : Op. cit. p. 11، بعض معالم عهد شارلمان ص ١٤٨.

١٦٩- Eginhard : Op. cit. p. 49.

١٧٠- يرى بارتولد أن إسحاق هذا كان من عمال الرشيد في الهند، وأن الرشيد كلفه باحضار الفيل «أبي

العباس» واصطحابه إلى بلاط شارلمان. أنظر : Buckler : Op. cit. p. 46 بينما الثابت أنه كان من رجال شارلمان الذين أوفدهم في سفارته إلى الرشيد في عام ٧٩٨م حسبما يورد إجنهارد.

أنظر : Vie de charlemagne . pp. 49 , 50.

١٧١- Op. cit. pp. 11 , 185. لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٨٨.

وفى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) استقبل ابراهيم بن الأغلب سفارة من قبل شارلمان فى مدينة القصر القديم، وسط مظاهر الحفاوة والترحاب (١٧٢). وسواء أكانت هذه السفارة قادمة من بغداد (١٧٣) أو ذاهبة إليها (١٧٤)، فقد توقفت بإفريقية، ولم تكن موجهة بصفة مباشرة إلى البلاط الأغلبى بقصد توطيد العلاقات والاتفاق للقيام بعمل مشترك ضد الأمويين بالأندلس كما يذهب كارل بروكلمان (١٧٥). وأغلب الظن أنها كانت عائدة من بغداد بتوصية من الرشيد على أن يسمح ابراهيم بن الأغلب للفرنجية بحمل رفات القديس سيبرين والشهداء الآخرين المدفونين بمدينة قرطاجنة القديمة (١٧٦). وقد استجاب ابراهيم بن الأغلب لهذا المطلب وأرسل رسولا من قبله برفقة السفارة ليحمل للإمبراطور تحياته الشخصية (١٧٨).

ولم يجلب بخاطر ابراهيم بن الأغلب أن يمضى قدما فى توطيد علاقاته بشارلمان لاتشغاله بالمشاكل الداخلية التى صحبت قيام الدولة، فاكتمى بمجارات الخلافة العباسية فى مجاملاتها لبلاط آخن، وقام بتخصيص الأدلاء لاصطحاب السفارات عبر بلاده إن شرقا أو غربا.

Bruschvig : Op. cit. p. 15 . - ١٧٢

Mercier : Op. cit. p. 267 . - ١٧٣

Fournel : Op. cit. vol . 2 . p. 453 . - ١٧٤

History of the Islamic People p. 453 . - ١٧٥

Mercier : Op. cit. p. 268 , Fournel , op. cit . vol . 2 . 453 , Reinaud : Invasions des - ١٧٦

Sarrazins en France . p. 116 .

١٧٧- أورد لوازيل نصا حول هذا الموضوع يقول :

Unus enim ... alter Saracenus de Africa, Legatus Amiratie Abraham, qui inconfinio Africae in Fossato preasidebat.

وقد ترجمه جيزو فى كتابه Memoire relatif d'l'histoire de france على أن ابراهيم حاكم فاس المتاخمة لحدود إفريقية أرسل مندوبا إلى شارلمان. وقد تناقل بعض المؤرخين كلمة Fossato الواردة بالنص على أنها مدينة فاس عاصمة الإدارة. لكن الصحيح أن المقصود بها «الخنق» الذى حفره ابراهيم بن الأغلب حول مدينة العباسية، ذلك أن فاس لم تكن قد أنشئت بعد :

أنظر : Fournel : Op. cit. vol 2 . p. 454 .

Reinaud : Op. cit. p. 116 . - ١٤٨

أما ما يروى عن عدم تعرض سواحل بلاد الكارولنجيين لإغارات الأغالبة^(١٧٠) طوال : شارلمان ، فلا يرجع إلى الصلة التي توطدت بين الفرنجة وبين إبراهيم بن الأغلب^(١٨٠) ، بـ ما يرجع إلى ظروف الدولة الأغلبية التي لم تكن قد تجاوزت دور التكوين ، ولم تفق بعد مشاكلها الداخلية، فضلا عن احترام إبراهيم بن الأغلب للصداقة العباسية الكارولنجية^(٨١) فلما توفي الرشيد في عام ١٩٤هـ (٨٠٩م) بعث إبراهيم بحملة بحرية احتلت كورسيـ وسردينية اللتين كان شارلمان يتعهد للبابوية بحمايتهما^(١٨٢) . ومن ذلك عن تحول واضح العلاقات الأغلبية الكارولنجية ؛ ذلك التحول الذي عمقه استقرار دولة الأغالبة في عهد زـ الله الأول، إذ تسنى للأمير أن يجعل من مراسى تونس وسوسة منطلقا لإغاراته البحرية : سواحل الفرنجة^(١٨٣) وهو في حل من ولاته للخلافة.

ففي سنة ٢٠٦هـ (٨٢١م) تمكنت سفن أغلبية من الإغارة على جزيرة سردينية وعا محملة بالغنائم إلى إفريقية^(١٨٤) ، كما أن الفرنجة لم يتوانوا عن شن الإغارات على شواط إفريقية، وباتت هذه السواحل ما بين أوتيكا وقرطاجنة معرضة لغارات قراصنتهم^(٨٥) والراجح أنهم تعاونوا مع بيزنطة في هذا السبيل^(١٨٦) ، ففي عام ٢١٣هـ (٨٢٨م) أذـ بونيفاس كونت لوكا على إفريقية ، وفر أسطول الأغالبة هاربا إلى خليج تونس^(١٨٧) ، و

١٧٩- . Halphen : Charlemagne et l'empire Carolingien . p. 11 .

١٨٠- . Latrie : Op. cit. pp. 5 , 11 . ff.

١٨١- . Reinard : Op. cit. p. 123 .

١٨٢- . Pirenne : Mohammed and charlemagne . p. 160 .

ويعتقد الدكتور العرني أن هذا الحادث ينهض دليلا على تأييد حكومة بغداد لنشاط شارلمان . أنظـ بعض معالم عهد شارلمان ص ١٤٦ . لكن يتضح نقيض ذلك إذا ما علمنا أن كورسيكة وسردينية كا تخضعان لحماية شارلمان . أنظر : . Reinnad : Op. cit. p. 121 .

١٨٣- . Ibid . p. 123 .

١٨٤- الكامل ج ٥ ص ١٨٥ .

١٨٥- . Cam . Med . hist. vol . 2 . 381 .

١٨٦- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٦٦ ، . Pirenne : p. 161 .

١٨٧- . Latrie : Op. cit. p. 6 .

الفرنجية عند مدينة «سرت» وأعملوا في سكانها السلب والنهب (١٨٨)، وامتدت إغاراتهم حتى أبواب القيروان نفسها (١٨٩)، ولم ينسحبوا إلا بعد أن تصدى لهم رجال الرباطات بقيادة محمد بن سحنون (١٩٠)، ويبدو أن هذه الإغارات أحدثت من الخسائر ما دفع الخليفة المأمون إلى التدخل طالبا من الفرنجة أن يكفوا أيديهم عن إفريقية (١٩١).

وقد بلغت العلاقات العدائية بين الأغالبة والفرنجية ذروتها بعد نزول جيوش الأغالبة في جزيرة صقلية وعبورهم مضيق مسينا إلى شبه الجزيرة الإيطالية التي كانت غالبيتها تخضع لحكم الكارولنجهين (١٩٢).

Fournel : Op. cit. vol . 2 . 495 . - ١٨٨

Scott : Op. cit. vol . 2 . 17 . - ١٨٩

١٩٠ - رياض النفوس ص ٣٤٨ .

Buckler : Op. cit. p. 46 . - ١٩١

١٩٢ - دخلت إيطاليا ضمن نطاق الإمبراطورية الكارولنجية بعد تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث في كنيسة القديس بطرس (Cam. med . hist. vol3 . p. 47) ومن مظاهر السيادة الكارولنجية استماع الإمبراطور إلى الشكاوى وتصديقه على الانتخابات التي تجري في كرسى راقنا وإرساله المبعوثين لجمع الرسوم الملكية وتعيينه للسلطات البلدية (ديفز : شارلمان ص ١٩١) وكان بين شارلمان حاكما على إيطاليا حتى عام ٨١٠م بينما فوض الإمبراطور مبعوثيه حكم إيطاليا حتى سنة ٨١٢م، إلى أن عين برنهارد بن بيبين حاكما عليها سنة ٨١٢ م (ديفز : المرجع السابق ص ٢٢٧) غير أن البيزنطيين واللومبارد شاركوا الفرنجة في بعض النواحي، فكان البيزنطيون يمارسون نفوذًا إسميا على البندقية وبعض أجزاء من إقليم كمبانيا والطرفين الجنوبيين من شبه الجزيرة (Heyd : Op. cit. p. 98) وقد جاول شارلمان إقصاء النفوذ البيزنطي تماما فأخضع أستريا ومدن دلماشيا لسلطانه سنة ٨٠٥ م ، وتكهن ابنه بيبين من ضم البندقية سنة ٨١٠م والحق بالبيزنطيين عدة هزائم بحرية (Ostrogorsky : Op. cit. p. 176) لكن الفرنجة تنازلوا عن هذه الأقاليم في سنة ٨١٢ م (ديفز : المرجع السابق ص ٢٥٠) فتحولت إلى دويلات مستقلة تخضع لحكم أسرات وطنية (Heyd : Op. cit. p. 98) مع احتفاظ بيزنطة بسيادتها الإسمية عليها ، فالبنديقية رغم احتفاظها برسم التبعية للبيزنطيين انتهجت سياسة الحياد بين الشرق والغرب (ديفز : المرجع السابق ص ٢٥٠) أما نابلى فقد حكمها الدوق ستيفن الذي أسس بها أسرة حاكمة حرصت على عدم الاحتكاك بالبيزنطيين ، ورغم ما بذله البيزنطيون من جهود لفرض سيادتهم عليها سنة ٨١٨م فانهم فشلوا امام نضال أهلها ، فظلت مدينتهم تنتهج سياسة =

والواقع أن ظهور الأغالبة في إيطاليا كان بناء على استدعاء من عناصر إيطالية ثائرة، فقد نشب نزاع بين دوقية نابلي ودوقية بنيفنت اللومباردية، وانتهى الأمر بعقد معاهدة سنة ٢٢٠هـ (٨٣٦م) أرغمت فيها نابلي على دفع الجزية للدوق سيكر اللومباردي (١٩٣). ولم يستجب لويس التقى إمبراطور الفرنجة لاستغااث نابلي المتكررة بطلب العون ضد اللومبارد، فلم يجد أندريه دوق نابلي بدا من الاستغاثة بالأمير الأغلبى فى بلرم بصقلية. واستطاع أسطول الأغالبة أن يرفع الحصار اللومباردى الذى كان مفروضا على نابلي، وأرغم سيكر على عقد صلح جديد أطلق بمقتضاه سراح أسرى نابلي سنة ٢٢١هـ (٨٣٧م) (١٩٤). ومن هنا بدأ التحالف بين نابلي والأغالبة (١٩٥)، وكان ذلك تأكيدا للصلات التجارية القديمة (١٩٦). فقد كانت إفريقية تصدر زيت الزيتون إلى نابلي مقابل ما تستورده منها من الثياب الكتانية المشهورة (١٩٧).

وكانت هناك اعتبارات عسكرية دفعت الأغالبة إلى التدخل فى جنوب إيطاليا، ذلك أن العمليات العسكرية ضد البيزنطيين فى صقلية استلزمت ضرب معاقلهم فى الطرف الآخر من مضيق مسينا، وبصفة خاصة أسطول البندقية الذى كان يهدد شمال صقلية، وحدا بهم هذا إلى

= الاستقلال (Bury: Op. cit. p. 309) وكذلك كان الحال بالنسبة لجايثا وأما لقي، فعلى الرغم من تبعيتهما الإسمية لدوق نابلي فقد تمتعتا بالاستقلال فى شكل المدينة الدولة (Ibid p. 310).

أما اللومبارد فلم يوفوا بالوعود التى قطعوها على أنفسهم بالتعبية لشارلمان فى سنة ٧٨٨م (ibid. p. 311)، وظلت بنيفنت تتمتع بالاستقلال الذاتى، وفى الفترة ما بين ٨١٠، ٨١٢ م لم تنجح جيوش الفرنجة فى تغيير وضعها، وباتت هذه الدوقية بعيدة عن متناول نفوذ الفرنجة (ديفنز: المرجع السابق ص ٢٥١، ٢٥٢).

١٩٣- Bury : Op. cit. p. 63 , Cam . med . hist. vol . 2 . p. 383 , lot: les invasions barbares. p. 101 .

١٩٤- فازيليف : العرب والروم ص ١٦٠ .

١٩٥- مما يؤكد ذلك التحالف العثور على عملة ذهبية تحمل اسم الدوق أندريه محاطة بحروف وزخارف ونقوش عربية . انظر : Bury : op. cit. p. 312 .

١٩٦- لويس : القوى البحرية ص ١٠٨ ، العربى، الدولة البيزنطية ص ٢٥٠ .

١٩٧- المكتبة الصقلية ج ١ ص ١١ .

خوض المعارك فى أرض قلورية سنة ٢٢٥هـ (٨٣٩م) (١٩٨)، وليس فى بداية القرن التاسع كما يذكر فازيليف (١٩٩). على كل حال ، كانت تلك الغزوة من قبيل الاستطلاع، إذ لم يطل مقام الأغالبة بقلورية فأحرقوا مدينة برنديزى وعادوا أدرأهم إلى صقلية (٢٠٠).

وفى نفس سنة ٢٢٥هـ مات سيكر، وانقسمت مملكة اللومبارد إلى إمارتين متصارعتين هما بنيفنت وسالرن ، وشجع ذلك الأغالبة على العبور إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ، واتجهوا إلى الفتح المنتظم ، فدانت لهم المدن والمعاقل فى أرض قلورية وانكبدة واستقروا فيها بصفة دائمة (٢٠١)، ومن أهم هذه المدن مدينة تارنت الشهيرة (٢٠٢)، كما خربوا كابوا فى غزوة خاطفة (٢٠٣).

وقد أرسل الإمبراطور البيزنطى تيوفيل رسله إلى البندقية يحض دوقها على تحرير تارنت (٢٠٤). وتقدم أسطول البندقية، لكن السفن الأغلبة أغرقته سنة ٢٢٦هـ (٨٤٠م) (٢٠٥)، وهو يحاول تنفيذ رجاء الإمبراطور .

وقام الفاتحون بعدة إغارات انتقاما لهجوم البندقية ، فاتجهوا إلى شمال الإديراتى وأغاروا على شواطئ، دماشيا ، وأحرقوا مدينة أوسيرو فى جزيرة خرسو ، ثم عبروا البحر ونهبوا أنكونة، وظلوا فى زحفهم حتى وصلوا إلى مصب نهر البو (٢٠٦)، ويبدو أنهم أغاروا على

١٩٨- نفس المصدر والصفحة .

١٩٩- العرب والروم ص ١٥٩ .

٢٠٠- طرخان : المسلمون فى فرنسا وإيطاليا ص ١١٤ ، Lot : op. cit. p. 101 .

٢٠١- ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٦٨ ، ابن خلدون : العبرج ٤ ص ٢٩ .

٢٠٢- يرى لويس أن مسلمى كريت هم الذين استولوا على تارنت (أنظر : القوى البحرية والتجارية ص ١١٠) ، لكن ذلك أمر مستبعد إذا ما علمنا أن الأغالبة احتكروا النشاط البحرى فى منطقة الجنوب الإيطالى.

٢٠٣- القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤١٠ .

٢٠٤- Bury : Op. cit. p. 313 .

٢٠٥- العرب والروم ص ١٦١ .

٢٠٦- نفس ص ١٦٢ ، Bury : Op. cit. p. 313 ، العربى : الدولة البيزنطية ص ١٢٩ .

بارى لكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها^(٢٠٧). وفي سنة ٢٢٧هـ (٨٤١م) جدد الأغالبة غزو خليج كورنيرو، وأحرزوا نصراً حاسماً على أسطول البندقية عند جزيرة سان سيجو، ثم انتهزوا فرصة وقوع الانقسام في إمارة بنيقنت اللومارديّة، وحاصروا بارى فسقطت في نفس العام على يد خلفون البريري^(٢٠٨). وكان سقوط بارى نقطة تحول كبرى في نشاط الأغالبة في جنوب إيطاليا إذ أصبحت مركزاً هاماً تخرج منه السرايا للإغارة على سائر أنحاء شبه الجزيرة، مثلها كمثّل بلرم بالنسبة لصقلية^(٢٠٩)، وما زاد في أهميتها وقوعها عند مدخل الإدرياتي وتحكمها في الملاحة فيه^(٢١٠).

وفي سنة ٢٢٨هـ (٨٤٢م) ساعد دوق نابلي حلفاء الأغالبة أثناء حصارهم مدينة مسينا في صقلية^(٢١١)، غير أن هذا التحالف ما لبث أن انقضّ سنة ٢٢١هـ (٨٤٥م). ويعزو بيوري ذلك^(٢١٢) إلى أن نابلي لم تعد في حاجة إلى حلفائها العرب بسبب انتهاء التهديد اللومباردي، ويبدو أنها عمدت إلى ذلك بعد أن استفحل نشاط الأغالبة واتخذوا من سواحلها قواعد لأساطيلهم التي أصبحت تهدد أمنها وتجارتها^(٢١٣). ومهما كان الأمر، فالثابت أن دوقها سرجيوس عقد تحالفاً مع سورنتوم وأمالفي وجايتة لمواجهة النشاط الأغلبي، وأحرز المتحالفون نصراً على قوة بحرية أغلبية قرب رأس ليكوزا، غير أن ذلك لم يضع حداً للإغارات الأغلبية، بل ازدادت عنفاً وكثرة، ففي نفس العام اجتاحت مدينة آرل ونهبوها، ثم استقروا في جزيرة إيشيا لمواجهة لرأس ميزينوم^(٢١٤)، ويذكر البلاذري^(٢١٥) أن المقرج بن سلام تمكن من فتح أربعة وعشرين حصناً واستولى عليها.

٢٠٧- فتوح البلدان ص ٢٧٧، الكامل ج ٥ ص ٢٦٢.

٢٠٨- البلاذري : نفس المصدر والصفحة، ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة.

٢٠٩- Bury : Op. cit. p. 313.

٢١٠- طرخان : المسلمون في فرنسا وإيطاليا ص ١١٥.

٢١١- الكامل ج ٥ ص ٢٦٧، العرب والروم ص ١٨٠.

٢١٢- A history of the eastern Roman empire p. 313.

٢١٣- القوى البحرية والتجارية ص ٢١٦.

٢١٤- Helphen : Op. cit. p. 331.

٢١٥- Loc. cit., Lot : Op. cit. p. 102.

٢١٦- فتوح البلدان ص ٢٧٧، الكامل ج ٥ ص ٢٦٣.

وكان ينبغي على لويس الثانى - ابن لوثر - الذى توج ملكا على إيطاليا فى ١٥ يونيو سنة ٨٤٤م أن يدفع عن بلاده الخطر الأغلبى، لكن يبدو أنه لم يبد اهتماما بما حدث فى إيطاليا كما فعل لويس التقي ولوثير الأول من قبل، والسبب افتقار الفرنجة آنذاك إلى قوة بحرية لمواجهة الأساطيل الأغلبية (٢١٧). وفى سنة ٢٣٢هـ (٨٤٦م) اضطر الإمبراطور إلى الدفاع عن ممتلكاته فى إيطاليا بعد أن شرع الأغلبة فى الاستيلاء عليها (٢١٨)، فقد أقلع أسطول أغلبى فى ثلاثة وسبعين سفينة من إفريقية قاصدا روما نفسها، بعد أن استطاع المسلمون فى صقلية الاستيلاء على مسينا (٢١٩). ويبدو أن هذه الحملة كانت تنوى تحقيق أهداف كبرى تتوجها لحركة الجهاد فى جنوب إيطاليا، ولم يكن الهدف مجرد السلب والنهب كما يعتقد بيورى (٢٢٠) وفازيليف (٢٢١). وقد باغت الأغلبة مدينة أوستى على نهر التيبر ووصلوا إلى أسوار روما فى عام ٢٣٣هـ، وقد هاجموا الجانب الغربى لأنه لم يكن محصنا، وغنموا مغانم كثيرة، واستولوا على كنوز كنيسة القديس بطرس والقديس بول (٢٢٢)، لكن الأغلبة لم يستولوا على المدينة، ولم يكن ذلك وهنا فى قوتهم (٢٢٣)، أو استبسالا لأهلها فى الدفاع (٢٢٤)، إنما لأن قيصر ابن الدوق سرجيوس حاكم نابلى قدم على رأس أسطول كبير (٢٢٥)، فآثر الأغلبة الانسحاب، وعادت الحملة إلى إفريقية (٢٢٦). وقد أحدثت تلك الغزوة أثرا كبيرا فى البلاط الكارولنجى، واعتقد الإمبراطور أن تلك نكبة «وتكفير عن الآثام التى

٢١٧- Lot : Op. cit. p. 102 .

٢١٨- Pirenne : op. cit. p. 161 .

٢١٩- الكامل ج ٥ ص ٢٦٨ .

٢٢٠- Ahistory of the eastern Rman empire . p. 314 .

٢٢١- العرب والروم ص ١٨٥ .

٢٢٢- Halphen : Op. cit. p. 332 .

٢٢٣- Bury : Op. cit. p. 314 .

٢٢٤- العرب والروم ص ١٨٥ .

٢٢٥- Bury : Op. cit. p. 314 .

٢٢٦- القوى البحرية والتجارية ص ١٨٥ .

اقتربها المسيحيون، وانتعاش وصحوة للكفرة» (٢٢٧)، لكنه لم يقدّم بعمل حاسم لوقف النشاط الأغلبى فى إيطاليا لانتشاله بخوض حروب خارج إيطاليا استغرقت كل جهوده (٢٢٨).

ثم تفاقم الخطر الأغلبى بتخريب بنيفنت، وحصار جايتة حول منتصف عام ٢٣٣هـ (٨٤٦م) (٢٢٩)، فلم يجد الإمبراطور مناصاً من التدخل. وفى العام التالى ظهر لويس الثانى فى جنوب إيطاليا، وناجز الأغالبية فى عدة معارك أحرز فيها بعض الانتصار (٢٣٠)، ثم ما لبث أن حلت به الهزيمة فى نفس العام، وكاد يقضى عليه لولا دوق نابلى (٢٣١). وضاعت عبثاً جهوده فى لم شمل الإمارات الإيطالية لإقصاء الأغالبية عن بارى وتارنت، بسبب انصراف هذه الإمارات إلى أمورها الخاصة (٢٣٢).

وانتهز الأغالبية هذه الفرصة فأغاروا على سواحل الكارولنجيين فى إيطاليا وخارجها، ففى سنة ٢٣٥هـ (٨٤٩م) سقطت مدينة آرل فى أيديهم (٢٣٣)، كما عاودوا غزو روما وحشدوا لذلك أسطولاً كبيراً فى جزيرة سردينية، وأبحروا تجاه مدينة أوستى، لكن مصب التيبر كان محصناً هذه المرة (٢٣٤)، فلم يستطع المسلمون اقتحامه. واجتمعت الأساطيل الإيطالية (٢٣٥)

٢٢٧- Halphen . Op. cit . p. 332 .

٢٢٨- Cam . med . hist. vol . 2 . p. 47 .

٢٢٩- العرب والروم ص ١٨٦ .

٢٣٠- Cam . med . hist. vol . 2 . p. 385 .

٢٣١- العرب والروم ص ١٨٦ .

٢٣٢- Cam . med . hist. vol . 2 . p. 385 .

٢٣٣- Lot : Op. cit. p. 103 .

٢٣٤- باشر الإمبراطور لوثر وابنه لويس تحصين الجهة التى يلتقى فيها نهر التيبر بالبحر عقب غزوة العرب الأولى لروما، أنظر : Lot : p. 103 .

٢٣٥- يشير فازيليف إلى أن البابا ليو الرابع لما علم بتحركات الأغالبية من سردينية، عقد حلفاً مع أمالفى وجايتة ونابلى فى قصر اللاتيران لمواجهة الغزاة. أنظر : العرب والروم ص ١٨٦، ويشاركه بيورى هذا القول . أنظر :

لمواجهة الأغالية ، فلم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم بعد أن هبت عاصفة حطمت الأسطول الأغلبى (٢٣٦).

على كل حال أظهرت تهديدات الأغالية لروما عجز البابوية وعدم قدرتها على مواجهة الغزو، لذلك لم يجد البابا مناصاً من التسليم للويس الثانى بتبنى الدفاع عن المسيحية فى الغرب (٢٣٧)، خاصة بعد أن اقتنع بأن الإمارات الإيطالية لا تقوى على هذا العبء بسبب خلافاتها واضطراباتهما (٢٣٨)، وأن الخسائر التى سببها الأغالية فادحة (٢٣٩)، وأن نشاطهم البحرى هدد جنوب إيطاليا كله (٢٤٠).

وقد قرر لويس الثانى الاستيلاء على بارى معقل الأغالية ، مدفوعاً بحماس دينى أذكاه رهبان دير كاسان (٢٤١) وباركه البابا، الذى توج لويس الثانى إمبراطوراً سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢م) (٢٤٢)، لكنه لم يقم بعمل حاسم ضد الأغالية ، فقد انصرف إلى مشاكله فى شمال إيطاليا (٢٤٣)، وصراعه مع البابا نيقولا الأول (٢٤٤)، الأمر الذى أتاح للأغالية الفرصة لتشديد قبضتهم، فتمكن العباس بن الفضل والى يلزم من الاستقرار بجنوده فى جنوب إيطاليا (٢٤٥).

= أما لوط فيذهب إلى أن أسطول نابلى وحده هو الذى انفرد بالتصدى للغزاة.

أنظر : . Les invasions barbares, p. 103

٢٣٦ - . Cam. med. hist. vol. 2. p. 285, Bury : Op. cit. p. 314

٢٣٧ - Halpen: Op. cit. p. 397

٢٣٨ - العرب والروم ص ١٨٧ .

٢٣٩ - Lot: Op. cit. p. 103

٢٤٠ - القوى البحرية والتجارية ص ٢٦٨ .

٢٤١ - Lot: Op. cit. p. 103

٢٤٢ - Bury : Op. cit. p. 315

٢٤٣ - Cam. med. hist. vol. 2. p. 285

٢٤٤ - Bury : Op. cit. p. 385

٢٤٥ - الكامل ج ٥ ص ٢٩٠ .

وفى سنة ٢٥٢هـ (٨٦٦م) حاول لويس الثانى تجنيد الإيطاليين أنفسهم للدفاع عن بلادهم، فكون منهم جيشاً عظيماً، وأعد أسطولاً كبيراً، وحاصر مونت كاسينو سنة ٢٥٣هـ (٢٤٦م) وتمكن من هزيمة الأغالبة فى عدة معارك، واضطروهم للاعتصام بمدينة باري وتارنت (٢٤٧)، لكن هذه الجموع هزمها أمير باري الأغلبى فى نفس العام (٢٤٨).

وفى سنة ٢٥٣هـ (٨٦٧م) مات البابا نيقولا الأول، وخلفه هادريان الثانى الذى ارتقى فى أحضان الإمبراطور، وقوضه أمر الدفاع عن المسيحية فى الغرب (٢٤٩). واستجاب الإمبراطور لنداءات البابا، لكنه أدرك عدم استطاعته إقصاء الأغالبة عن شبه الجزيرة بدون أسطول بحرى قوى (٢٥٠). وكما يحقق أهدافه، ناشد البيزنطيين المساعدة البحرية واستجاب له الإمبراطور باسل الأول الذى كان قد تفرغ لمناجزة العرب فى الشرق والغرب على السواء (٢٥١)، ومن ثم ساهم بأساطيله فى الحصار البحرى الذى نصب حول مدينة باري. وفى عام ٢٥٧هـ (٨٧٠م) ظهر أمام شواطئ المدينة أسطول كبير اشتمل على سفن من راجوزة ودلماشيا، فى الوقت الذى حاصرت فيه جيوش لويس الثانى المدينة من البر فسقطت آخر الأمر فى يد الإمبراطور الكارولنجى (٢٥٢).

حقيقة أن هذا النصر أقصى الأغالبة عن أهم معاقلهم فى شبه الجزيرة، لكن وقعه لم يكن طيباً فى نفوس الإيطاليين، بل إن مؤرخى شارل الاصلع ولويس الثانى - هنكمار (٢٥٣) ومجينهارد (٢٥٤) - لم يذكروا عبارة واحدة تنم عن تخليص باري من يد المسلمين (٢٥٥)، كما

٢٤٦ - العرب والروم ص ٢٣١ . Cam . med. hist, vol . 2 . p. 386 .

٢٤٧ - Lot: Op. cit. p. 104 .

٢٤٨ - فازيليف : العرب والروم ص ٢٣١ .

٢٤٩ - Halphen : Op. cit, pp. 401 , 402 .

٢٥٠ - العرنى : الدولة البيزنطية ص ٢٩١ .

٢٥١ - Vasiliev : Op. cit. p.370 .

٢٥٢ - القوى البحرية والتجارية ص ٢١٨ .

٢٥٣ - Hinkmar : Annales de Saint bertin

٢٥٤ - Meginhard : Annales de folda

٢٥٥ - Halphen : Op. cit. p. 413 .

ساعت العلاقة بين الفرنجة وبين الإمبراطور البيزنطي باسل الأول صاحب الفضل الأكبر في تحقيق الانتصار ، إذ أن حلاوة النصر جعلته يفاخر بأنه «إمبراطور الرومان» ضاربا عرض الحائط بدعاوى الإمبراطور البيزنطي في هذا الصدد ، مخاطبا إياه بأنه «ملك القسطنطينية» فقط^(٢٥٦). وقد نقم أمراء إيطاليا على الإمبراطور لويس الثاني خشية اغتنامه الفرصة لبسط سلطانه الفعلى عليهم، فأسرعوا بأسره ، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد تعهده بترك ما غنمه من أسلاب ، وبألا ينتقم منهم جزاء خيانتهم^(٢٥٧)، بل إن أمير بنفنت لم يتورع عن التماس حماية بيزنطة سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م) ، واستجاب له الإمبراطور باسل الأول الذى استولى على أوترانتو فى نفس العام^(٢٥٨)، مدفوعا بحقه على لويس الثانى، ولرغبته فى توطيد سلطانه بجنوب إيطاليا^(٢٥٩).

أما الأغالبة بعد سقوط باري، فإنهم درجوا على شن إغاراتهم على السواحل الغربية لشبه الجزيرة ، وعصفوا مراراً بسالرن ، وتقدموا حتى كابوا ، وفشلت محاولات الإمبراطور فى وقف هجومهم ، وظلوا على ذلك حتى عام ٢٦٢هـ (٨٧٥م) ، وهو العام الذى مات فيه الإمبراطور لويس الثانى^(٢٦٠). وكانت مدن الساحل الإيطالى التجارية تؤازر الأغالبة فى هذه الإغارات حتى أن لويس الثانى أعلن أن «نابلى إفريقية أخرى»^(٢٦١).

ويتولى شارل الأصلع حكم الإمبراطورية، ويتخليه عن أمور إيطاليا ، أتاح الفرصة لزيادة النفوذ الأغلبى فى شبه الجزيرة مرة أخرى ، كما ضمن للبيزنطيين استعادة سلطانهم فى جنوب إيطاليا ، فقد واصلوا منذئذ نشاط الكارولنجيين ضد الأغالبة^(٢٦٢) . ذلك أن الأغالبة - بعد

٢٥٦- يتضح ذلك من الرسالة التى بعثها إلى الإمبراطور البيزنطي غداة سقوط باري، إذ بدأها بقوله : «من لويس الذى هو بفضل الله الإمبراطور أوغسطس الرومانى إلى أخيه العزيز باسل العظيم التقى إمبراطور روما الجديدة» . أنظر ، . 10 . pp. 409 Halphen : Ibid

٢٥٧- Lot : Op. cit. p. 105 .

٢٥٨- العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٩٢ .

٢٥٩- Ostrogorsky : Op. cit. p. 210 .

٢٦٠- Cam . med . hist . vol . 2 . 386 .

٢٦١- Pirenne . Op. cit. p. 182 .

٢٦٢- Cam. med . hist . vol . 2 . p. 386 .

موت لويس الثانى- نجحوا فى مصانة بعض الأمراء اللومبارد الصغار فى الجنوب، بل ظهروا فى دوقية نابلى ، وهددوا روما نفسها ، وتواطأ معهم بعض موظفى البلاط البابوى على تسليم المدينة إليهم فى عام ٢٦٣هـ (٨٧٦م) ، هذا فى الوقت الذى انصرف فيه الكونت بسو- نائب شارل الأصلع فى إيطاليا- عن توسلات البابوية ، بل إن البابا حنا الثامن حاول - دون جدوى- الاستعانة بالإمبراطور، وفشل فى حث الإمبراطورة ريشيه على التأثير على زوجها لمواجهة الأغالبة . بل أصم الإمبراطور أذنيه عن تهديدات البابا بسحب لقبه الإمبراطورى (٢٦٣)، فلم يجد البابا بدا من شراء سلم الأغالبة بالمال ودفع إتاوة قدرها خمسة وعشرين ألف قطعة فضية (٢٦٤)، كما اضطر إلى أن يتجه ببصره إلى القسطنطينية (٢٦٥).

ومما هو جدير بالذكر أن النفوذ البيزنطى كان قد انتعش فى إيطاليا منذ أن سلم أهالى بارى مدينتهم إلى قائد الثغر البيزنطى سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م) (٢٦٦)، كما كانوا يقومون بعمليات بحرية ناجحة فى مياه صقلية، ويبدو أنهم أقاموا أسطولا دائما عند ثرمة (طبرمين)، ولكن هذا لم يمنع الأغالبة من إقامة قاعدة لهم فى مونت جاريلياتو سنة ٢٦٦هـ (٨٨٢م) (٢٦٧).

وفى عام ٢٦٩هـ (٨٨٥م) أنزلت بيزنطة جيشا بقيادة نففور فوقاس ، تمكن من تدعيم مركزها فى جنوب إيطاليا (٢٦٨) ، وأنشأ ثغرين أحدهما ثغر لونجو بارديا وعاصمته بارى، والآخر ثغر كالابريا وعاصمته ريو (٢٦٩).

وعلى الرغم من هذه الإجراءات الدفاعية ، لم تسلم شبه الجزيرة الإيطالية من الاعتداءات الأغلبية، تلك الاعتداءات التى اتخذت طابع الهجوم الخاطف والسلب ثم العودة إلى القواعد

٢٦٣- Hopkins : Op. cit. p. 329, 30 .

٢٦٤- القوى البحرية والتجارية ص ٢١٩ .

٢٦٥- Hopkins : Op. cit. p. 330 .

٢٦٦- Vasiliev : Op. cit. p. 370 .

٢٦٧- Cam . med. hist. vol . 2 . 149 .

٢٦٨- لويس : القوى البحرية والتجارية ص- ٢٢ .

٢٦٩- Cam . med. hist. vol . 2. p. 150 .

فى صقلية ، ففى سنة ٢٨٧هـ غزى الأغالبة قلوبية بقيادة أبى العباس بن ابراهيم بن أحمد ، وملكوا ربو عنوة ، وغنموا من الذهب والفضة مالا يحصى ، وشحنوا المراكب والأمتعة ورجعوا إلى مسينا ، وهدموا سورها (٢٧٠) ، وفى عام ٢٩٠هـ (٩٠٢م) أغار الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد على كالابريا ، وعصف بها ، وكفت جيوشه عن التوغل داخل شبه الجزيرة بسبب موته المفاجئ . فى كوسينزا فعادت هذه الجيوش أدراجها إلى صقلية (٢٧١) . ولو استمر ذلك الحماس الدينى والتفوق الحربى لتمكن الأغالبة من أن يفتحوا إيطاليا كلها ، بعد أن دانت لهم صقلية تماماً بسقوط طبرمين آخر معاقل البيزنطيين فيها .

لكن موت إبراهيم بن أحمد ، واضطراب دولة الأغالبة فى إفريقية فى عهد ابنه أبى العباس عبدالله ، وانشغال خليفته زيادة الله الثالث بمقاومة الخطر الشيعى أدى إلى انصراف الأغالبة عن أعمال الفتح فى إيطاليا . وكان سقوط الدولة الأغلبية على يد الفاطميين الشيعة خلاصاً لإيطاليا من الخطر الأغلبى (٢٧٢) . وبالرغم من ذلك فقد احتفظ الأغالبة حتى سقوط دولتهم بعدة قواعد حصينة فى إيطاليا مثل سابينو شمال بنيفنت وجنوب بسطوم ، وجاريليانو ، ظلت تهدد المناطق المجاورة لاسيما روما ذاتها (٢٧٣) .

على كل حال ، إذا كنت العلاقات الودية قد سادت زمناً بين الأغالبة فى إفريقية وصقلية والكارولنجيين فى إيطاليا وفرنسا ، فقد ظل الطابع العدائى غالباً عليها ، خاصة بعد موت شارلمان .

ولما اضطرت العلاقات السياسية ضعفت الروابط الدينية بين كنيسة إفريقية والبابوية ، فتناقصت الكنائس تدريجياً عن ذى قبل ، ولم تحفل البابوية بإرسال مندوبيها لبحث المسائل الدينية (٢٧٤) ، فلما فشلت الانتقاسات فى كنيسة إفريقية فى أواخر القرن التاسع ، واتصل

٢٧٠- ابن الأثير : الكامل ج٦ ص ٢٩٨ ، . Vasiliev : Op. cit. p. 371 .

٢٧١- ابن الأثير : نفس المصدر ص ٦ ، القوى البحرية والتجارية ص ٢٢١ .

٢٧٢- القوى البحرية والتجارية ص ٢٢١ .

٢٧٣- Lot : Op. cit. p. 105 .

٢٧٤- Latrè : Op. cit. p. 10 .

أساقفها بروما لإرسال مبعوثين من قبل البابا لحسم الخلافات (٢٧٥)، لم يفعل البابا أكثر من تفويض أحد الأساقفة الإفريقيين لمعالجة الأمر ، وطلب منه حضور المجمع الدينى المزمع عقده فى روما .

ومن المحقق أن أساقفة إفريقية لم يتمكنوا من حضور المجمع الدينية فى روما طيلة القرن التاسع (٢٧٦)، ولا نجد لذلك تفسيراً سوى اضطراب العلاقات السياسية آنذاك .

ب- العلاقات التجارية

لاشك أن بيزنطة كانت تسيطر على البحر المتوسط والملاحة البحرية فيه حتى ظهور قوة الأغالبة البحرية، إذ باستيلائها على جزر صقلية وقبرص ورودس فضلاً عن جزر البليار ، وتحكمها فى المضائق البحرية فى البحر المتوسط، آلت إليها السيادة البحرية، ومن ثم هيمنت على النشاط التجارى وفرضت نوعاً من الرقابة التجارية على الشواطىء الإسلامية . ومن الطبيعى أن تحول بيزنطة دون قيام مسلمى شمالى إفريقيا بنشاط تجارى من قواعدهم البحرية فى تونس ، ذلك أن وجود أساطيلهم فى صقلية وقوصرة كان يهدد دائماً المدن والموانىء الأغلبية على ساحل البحر المتوسط ، وما إنشاء الأغالبة المحارس والحصون والرباطات إلا خوفاً من التهديد البيزنطى (٢٧٧).

وعلى الرغم من العداء التقليدى بين الأغالبة والبيزنطيين ، فقد قامت بينهما علاقات تجارية محدودة خلال عهود الأمراء الأغالبة الأوائل، وكانت صقلية تمثل حلقة الاتصال فى هذا الصدد ، فتشير المصادر إلى أن المعاهدات التى عقدت بين الطرفين كانت تتضمن بنوداً تجارية، تنص على تأمين التجارة وتبادل السلع. فالمعاهدة التى عقدت بين أبى العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب وجريجورى حاكم صقلية فى سنة ١٩٢هـ أسفرت عن تحقيق مزيد من الأمن والرواج التجارى بين إفريقية وصقلية (٢٧٨). وبفضلها أصبح التجار الأفارقة قادرين على

٢٧٥ - Vonderheyden : Op. cit. p. 230 .

٢٧٦ - Latre : Op. cit. pp. 10 , 11 .

٢٧٧ - المالكى : رياض النفوس ج ١ ص ٣٨٤ ، ٣٩٤ .

٢٧٨ - نفس المصدر والصقعة .

ممارسة نشاطهم فى صقلية، كما سمح للبيزنطيين بالتجارة مع المدن والموانئ الأغلبية (٢٧٩)، فاستورد الأغلبية السكر من صقلية، وصدروا إليها الجلود والسلاح والحرير والعاج (٢٨٠)، وزيت الزيتون (٢٨١).

غير أن هذه العلاقات لم تستمر طويلا بسبب ما جرى من تبادل الإغارات بين الطرفين وما كانت تسفر عنه من سلب ونهب وخسائر اقتصادية، ويخبرنا ابن الأثير (٢٨٢) أن التجار المغاربة لم يعودوا آمنين على تجارتهم بسبب تلك الإغارات بعد أن دأب البيزنطيون على اختطافهم من سواحل إفريقية وإرسالهم إلى صقلية أو القسطنطينية.

ويشروع زيادة الله فى فتح صقلية سنة ٢١٢هـ، توقفت العلاقات التجارية تماما، فلم نسمع عن تبادل تجارى بين الأغلبية والبيزنطيين بين ما وصلنا من تفاصيل حول الصراع العسكرى البرى والبحرى بينهما.

وعلى ذلك فمن المستبعد حدوث ما ذكره بيرين (٢٨٤) من أنه فى عام ٢٦١هـ (٨٧٩م) وصل إلى صقلية أسطول تجارى برفقة الأسطول الحربى الذى أرسله الإمبراطور إلى الجزيرة فى نفس العام، وأن هذا الأسطول عاد بكمية هائلة من الزيت المستجلب من إفريقية أدى إلى خفض أسعاره فى القسطنطينية. ومن المحتمل - فى اعتقادنا - أن هذه الكمية من زيت إفريقية كانت فى طريقها إلى المدن الإيطالية التى كانت على صلة تجارية وطيدة بالأغلبية، واستولى عليها تقفور فوقاس وهو يقوم بدعم مركز بيزنطة فى المياه الإيطالية.

وبفضل الانتصارات التى أحرزها الأغلبية على الأساطيل البيزنطية، وإقصاء البيزنطيين عن معاقلم البحرية فى مالطة ورودرس وقوصرة فضلا عن صقلية، تداعت سيادة بيزنطة

٢٧٩- لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٧٦ .

٢٨٠- idris : Op. cit. p. 305 .

٢٨١- القوى البحرية والتجارية ص ١٧٦ .

٢٨٢- الكامل ج ٥ ص ١٨٦ .

٢٨٣- المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٤٢٧ ، Bury : Op. cit . p. 292 .

٢٨٤- Mohamed and charlemagne . p. 181 .

البحرية، واختفت هيمنتها على مصائر تجارة البحر المتوسط، فقد أرغم البيزنطيون على القضاء على نظام الرقابة التجارية الذي ظل مفروضا على السواحل الإسلامية حتى أوائل القرن الثانى الهجرى ، « ولم يحدث ذلك نتيجة الدبلوماسية والمفاوضات، ولكن عن طريق تحطيم قوة القسطنطينية البحرية، وبناء قوة أخرى خاصة بالأغالبة » (٢٨٥). ونجم عن ذلك قيام سكان إفريقية بدور الوساطة فى تجارة البحر المتوسط بين الشرق والغرب (٢٨٦). كما تسنى لهم أيضا احتكار دور الوساطة التجارية مع عالم البحر المتوسط والعالم الإفريقى جنوب الصحراء (٢٨٧)، فكانت سفنهم دائبة الحركة إلى موانئ سورية ومصر لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرقيين الأدنى والأقصى إلى العالم الغربى (٢٨٨)، كما جلبت قوافلهم الذهب والرقيق من الجنوب للأحجار مع بلاد البحر المتوسط (٢٨٩).

ولاجدال فى أن الأغالبة لعبوا هذا الدور بنجاح، فأمنوا الطرق التجارية برا وبحرا (٢٩٠)، وسكوا عملة طيبة أحرزت شهرة عالمية تداولها التجار فى أسواق بلدان البحر المتوسط (٢٩١).

ونمخض هذا النشاط التجارى الأغلبى عن ازدهار أحوال البلاد الاقتصادية من زراعة وصناعة وتعددين وتجارة، وتألفت المدن والموانئ الأغلبية، وغصت بالفنادق والأسواق وبيوت المال، وازدانت بالعائز والمنشآت التى لم يبخل الأمراء فى إقامتها وتزيينها .

كما تأثرت أحوال بيزنطة الاقتصادية من جراء فقدان مركزها التجارى السالف ، على الرغم مما تمتعت به من تماسك اقتصادى فى أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر (٢٩٢)، ولاغرو فقد فقدت ما كان يرد إليها من موارد صقلية وأهمها الغلال والمعادن ، هذا فضلا عن

٢٨٥- القوى البحرية والتجارية ص ١٨٤ .

٢٨٦- Heyd : Op. cit. p. 78 .

٢٨٧- Brunschvig: Op. cit. p. 24 .

٢٨٨- القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٢ .

٢٨٩- نفسه ص ٢٥٥ .

٢٩٠- الكامل ج ٦ ص ٥ .

٢٩١- De Candia : Monnaies Aghlabites . p. 271 .

٢٩٢- Diehl : Op. cit. pp. 52 , 83 . ff .

عن خسارتها الأدبية بعد فقدانها السيادة البحرية (٢٩٣)، « فقد صار البحر المتوسط خاليا من أى نفوذ للأمم النصرانية بشىء من جوانبه » (٢٩٤)، وانتقلت السيادة للدول الإسلامية فى بلاد الشام وكريت وإفريقية والأندلس (٢٩٥).

وفيما يتعلق بالصلات التجارية بين الأغلبة والفرنجية ، فالمعروف أن روح الود سادت علاقاتهما السياسية فترة من الزمن، وكان من المتوقع أن يروج النشاط التجارى بينهما فى عصر شارلمان، لكن الثابت أن تلك العلاقات السياسية الودية لم تتمخض عن صلات تجارية منتظمة بين القيروان وآخن (٢٩٦).

على كل حال لم تنعدم تلك الصلات التجارية، إنما كانت محدودة، وأغلب الظن أن السفارات المتبادلة بين الطرفين أسفرت عن شىء من التبادل التجارى، إذ أكدت إمكان الانتقال بين إمبراطورية الفرنجة وإفريقية على الرغم من السيطرة البحرية البيزنطية. ومما ساعد على ذلك ما أظهره شارلمان من الاهتمام بالشؤون البحرية فى البحر المتوسط ، فحوالى عام ٢٩١ هـ (٨٠٧م) كانت بحرية الفرنجة تجوب ساحل ليجوريا وتسانيا وتحقق لشارلمان سيطرة على المياه الإيطالية (٢٩٧). وذلك يبطل ما زعمه بيرين (٢٩٨) من من افتقار الفرنجة إلى أسطول بحرى فى البحر المتوسط، فقد بدأ شارلمان يهتم بالنواحي التجارية فى البحر المتوسط لمناقسة البيزنطيين، وكاد يحقق بغيته لولا وفاته (٢٩٩).

وإذا كانت هناك علاقات تجارية بين الفرنجة والشرق الإسلامى (٣٠٠)، فلا شك فى أن إفريقية الأغلبية قد لعبت دورا حيويا فيها، وقد راجت تجارة الرقيق بالذات بين الأغلبية

٢٩٣- Vasiliev : Op. cit. p. 333 .

٢٩٤- ابن خلدون : المقدمة ص ٥٤ .

٢٩٥- القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٠ .

٢٩٦- Heyd : Op. cit. p. 191 .

٢٩٧- لويس : المرجع السابق ص ١٦٦ .

٢٩٨- Mohammed and Charlemagne. p. 161 .

٢٩٩- لويس المرجع السابق ص ١٨٣ .

٣٠٠- Pirenne : Op. cit. p. 163 .

والفرنجية على الرغم من جهود شارلمان في محاربتها (٣٠١)، ومن المحتمل أن يكون زيت الزيتون الإقريقى قد صد إلى بلاد الفرنجة .

على أن هذه العلاقات التجارية المحدودة اختفت تماما فى عهود خلفاء شارلمان بعد أن ساد العداء العلاقات السياسية بينهم وبين الأغالبة . وعلى الرغم من سيطرة الأغالبة البحرية فى المنطقة الوسطى من البحر المتوسط، فمن المشكوك فيه أنهم تعاملوا مع الفرنجة ، يشهد على ذلك اختفاء السلع الشرقية التى كان الأغالبة يتحكمون فيها من بلاد الفرنجة ، فلم تعد أسواق آخن تغص بالتوابل والزيت والحرير المشهور وغيره من السلع التى كانت متوفرة فيها من قبل (٣٠٢) . على أننا لانسلم بما ذهب إليه بيرين من « أن السيطرة الإسلامية- التى كانت القوة الأغلبية تمثّل ركيزتها- قد قضت تماما على حركة التجارة الشرقية » (٣٠٣)، وأن « الإسلام مسؤول عن فصم وحدة البحر المتوسط » (٣٠٤)، وأن « مسلمى شمال إفريقيا لم يمكنهم القيام بدور بيزنطة السابق فى تجارة البحر المتوسط » ، وأن « التجارة الإسلامية اتسمت بالطابع المحلى بوجه عام » (٣٠٥)، وأن « العلاقات الأغلبية الكارولنجية لم تتعد الحروب وما يتصل بها من سلب ونهب » (٣٠٦) . إذ الثابت أن وحدة البحر المتوسط زمن السيادة البيزنطية كانت قائمة على أساس احتكارى استغلالي ، فالبيزنطيون فرضوا نوعاً من الرقابة التجارية على الدول الإسلامية والمسيحية على السواء (٣٠٧)، واختصوا أنفسهم - وحدهم - بالوساطة التجارية فى التجارة العالمية، ولم يسمحوا لأية قوى أخرى مشاركتهم هذا الدور .

فلما آلت تلك السيادة إلى البحرية الأغلبية تعاونوا مع غيرهم فى نقل التجارة العالمية ، وشاركهم تجار المدن الإيطالية والتجار اليهود المعروفون « بالرهمانية » - « تجار البحر » كما يسميهم ابن خرداذبة (٣٠٨) - هذه الوساطة التجارية.

٣٠١ - Heyd : Op. cit . p. 95 .

٣٠٢ - Pirenne : Op. cit. p. 172 .

٣٠٣ - Ibid . p. 173 .

٣٠٤ - Ibid . p. 164 .

٣٠٥ - Ibid . p. 174 .

٣٠٦ - Loc , cit .

٣٠٧ - لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٥٩ .

٣٠٨ - المسالك والممالك ص ١٥٤ .

ولم يكن نشاط الأغلبية فى جنوب إيطاليا مجرد سلب ونهب، بل خاضوا حروباً من أجل الجهاد ، واستقروا بشبه الجزيرة ردحاً من الزمن استقراراً تاماً، وأنشأوا المساجد لتكون مراكز للدعوة الإسلامية، فالمفرج بن سالم أقام مسجداً بمدينة بارى (٣٠٩)، والمسجد الذى بنى فى ريو لم يثر نقمة أهلها ، بل احترموا طقوس المسلمين وشعائهم الدينية (٣١٠). واتصف أغلب الولاة المسلمين فى هذه الجهات بدماثة الخلق والتسامح الدينى، فكانوا يسمحون للحجاج الفرنجة بالمرور إلى الأماكن المقدسة من الموانئ الإيطالية (٣١١)، وقدموا لهم كافة التسهيلات ، يدل على ذلك رحلة برنار الرشيد الذى أبحر من بارى فى عام ٢٥١هـ (٨٦٧م) قاصداً الأراضى المقدسة بفلسطين (٣١٢).

ونكتفى بما أورده لويس (٣١٣) عن عدم مسؤولية الأغلبية عن عرقلة التجارة العالمية، إذ يقول : «لادليل على أن المسلمين اعترضوا سبيل تجارة أوروبا اللاتينية أكثر مما فعلوا مع البيزنطة، والواجب اسقاط هذا الزعم باعتباره خرافة، وإذا كان ثمة شك حول هذا الموضوع، فمن اليسير تبديده لو أننا درسنا طريق الحج إلى الأراضى المقدسة حينذاك ، فالواقع أنه لم يحدث أى ازعاج أو اعتراض من قبل حكام المسلمين لطريق الحجاج، بدليل ازدياد أعدادهم».

وغنى عن البيان أن دولة الفرنجة التى كانت محرومة من التجارة الشرقية زمن السيادة البيزنطية أصبحت السلع الشرقية تصل إليها عن طريق البندقية (٣١٤)، فقد اشترك تجار المدن الإيطالية مع الأغلبية فى عملية الوساطة التجارية (٣١٥)، وتحولت هذه المدن من مجرد ثغور ذات امتيازات خاصة إلى وسطاء فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب (٣١٦)، وعلى الرغم

٣٠٩- البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

٣١٠- كلييا : مجاهد العامرى ص ٢٠٠ .

٣١١- Heyd : Op. cit. p. 92 .

٣١٢- Prienne : Op. cit. p. 169 .

٣١٣- القوى البحرية والتجارية ص ١٩٠ .

٣١٤- Pirenne : Op. cit. p. 180 .

٣١٥- Latrie : Op. cit. p. 11 .

٣١٦- لويس : الرجوع السابق ص ١٨٨ .

من خضوع بعض هذه المدن للسيادة الاسمية البيزنطية وبعضها الآخر لأباطرة وملوك الفرنجة، فإن حافز الربح دفعها إلى عقد صلات تجارية مع مسلمى إفريقية . ومن الطبيعي أن تزداد هذه العلاقات بعد زوال السيادة البيزنطية^(٣١٧)، فارتبطت البندقية ونابلى وسالرن وجايتا وأمالفى بعلاقات تجارية مع إفريقية الأغلبية^(٣١٨). وأكثر من ذلك أن بعض هذه المدن - مثل نابلى - ساعدت الأغالبة فى فتح صقلية كما ساعدت بعضها الآخر الأغالبة فى حروبهم بجنوب إيطاليا نفسها، نظير جزء من المغانم^(٣١٩). وقيامها فى وجه الأغالبة فى بعض الأحيان لم يكن مرده إلى تأثرها بالواجب القومى أو الدينى ، بل لخوفها من سيطرة الأغالبة على مياهاها الإقليمية مما قد يؤثر فى نشاطها التجارى .

ومن هنا وطدت تلك المدن علاقتها التجارية بالأغالبة ، فالبندقية صدرت الرقيق الأبيض والخشب لمدن أفريقية، ولم تحجم عن تجارة الرقيق إلا بعد تحريم الإمبراطور لوثر لهذه التجارة وعقده معاهدة فى هذا الصدد مع البندقية فى عام ١٢٤٠هـ (٨٤٠م)^(٣٢٠). وازدهرت أيضا حركة التبادل التجارى بين لونا وبيزا وشمالى أفريقيا^(٣٢١)، ولم تشر جهود البابا يوحنا الثامن فى منع أمالفى من المتاجرة مع الأغالبة^(٣٢٢)، وصدرت المدن الإيطالية إلى إفريقية الحديد والخشب والأسلحة^(٣٢٣). أما نابلى ومدن كميانيا فكانت علاقتها بالأغالبة أشد وثوقا فصدروا إليهم «العبيد والمنسوجات»^(٣٢٤) نظير حصولهم على زيت الزيتون ومصنوعات بلرم ومدن إفريقية . ونجم عن ذلك ازدهار أحوال هذه المدن الاقتصادية ، وشاعت العملة الاغلبية فى معاملاتها التجارية^(٣٢٥)، بل إن الفرنجة أنفسهم تأثروا بعملة الاغالبة ، فقلدوها فيما ضربوا من عملاتهم الخاصة^(٣٢٦).

٣١٧- Pirenne : Op. cit. p. 98 .

٣١٨- Heyd , op. cit. p. 98 .

٣١٩- Pirenne . Op. cit. p. 183 .

٣٢٠- القوى البحرية والتجارية ص ١٧٩ .

٣٢١- نفسه ص ١٨٠ ، ١٨١ .

٣٢٢- Pirenne : Op. cit. p. 181 .

٣٢٣- لويس : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

٣٢٤- المكتبة الصقلية ج ١ ص ١١ .

٣٢٥- لويس : المرجع السابق ص ٢٧٢ .

٣٢٦- نفسه ص ١٩٦ .

الباب الخامس

نهاية الأغلبية

ارتبط ظهور الدعوة الفاطمية في المغرب بما ساد إفريقية من اضطراب في عهد الأغلبية الأواخر، ففي الوقت الذي اختل فيه سلطان الأمراء، وانفصمت علاقتهم بالرعية، واندلعت الثورات ضدهم، وشاعت الفوضى في إفريقية، وجدت الدعوة للفاطمين حقلا خصيبا نبتت فيه وترعرعت لتتنقض على الدولة الأغلبية فتسقطها وتضع حدا نهائيا للتنفوذ السياسي السني في المغرب.

قد اضطربت أمور إفريقية في عهود الأمراء الثلاثة الأواخر إبراهيم بن أحمد وأبي العباس عبدالله وزيادة الله الثالث، وبالرغم مما اتبعه إبراهيم بن أحمد من سياسة رشيدة في السنوات الست الأولى من حكمه، فلم يلبث أن تخلى عنها بعد إصابته ببلوثة جعلته يبالغ في سفك الدماء، فقتل إخوته الثمانية وبناته الستة عشرة فضلا عن الكثير من الغلمان والجواري^(١)، وامتد شره إلى الرعية فاشتط في فرض المغارم على الناس فتألبوا عليه وأكثروا من الفتن والثورات^(٢).

ففي سنة ٢٧٥هـ حدثت «ثورة الدراهم» المشهورة احتجاجا على عسف الأمير في سياسته المالية، وتغييره في معايير النقد المتداول، فلم يجد التجار بدا من إغلاق حوانيتهم، ولما عول الأمير على حبسهم، ثار أهل القيروان احتجاجا، فطلب إلى وزيره أبي عبدالله بن أبي إسحاق أن يهدىء من ثائرتهم فلم يفلح، فاضطر إلى الخروج إليهم بنفسه، ولم تهدأ الثورة إلا بعد توسط الفقهاء^(٣).

وفي سنة ٢٧٨هـ^(٤) نكل إبراهيم بن أحمد بأهل بلزمة من العرب^(٥)، واغتال غدرا ألف

١- ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

٢- نفسه ص ١٧٨ ، . ١١ p. cit. , Bruschi : Op. cit. p. 45 , Hopkins :

٣- ابن عذارى : ج ١ ص ١٦ ، ٦١ .

٤- سنة ٢٨٠هـ حسب رواية ابن عذارى. أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٦٣ .

٥- نهاية الأرب ج ٢٢ ورقة ٣٦ ، 256 p. Vonderheyden : la Berberie Orientale .

رجل من شجعائهم ، «فكان قتلهم سبب انقطاع دولة بن الأغلب»^(٦) ، إذ كانوا يخضعون الكتاميين ويذلونهم، بل «اتخذوهم خولا وعبيدا، وفرضوا عليهم العشور والصدقات»^(٧) ، فلما نكل بهم أتيح لكتامة أن تتحرر وتناصر أبا عبد الله الشيعي على بنى الأغلب^(٨) الذين اضمحل سلطانهم^(٩).

وفى نفس العام خرج أهل تونس والجزيرة والأريس وباجه وقمودة، وسبب ثورتهم ظلم إبراهيم بن أحمد وتهبه أموالهم وعيبرهم، وبلغ من شدة الثورة أنه لم يبق للأمير من نفوذ إلا على المنطقة الساحلية وطرابلس^(١٠) ولكي يسترد نفوذه التزم القسوة فى سلسلة حروب نهب فيها جنوده الأموال، «وسبوا اللرية واستحلوا الفروج»^(١١)، وتعرض عرب تونس من بنى تميم لتنكيل القائد ميمون بن حبشى بصفة خاصة^(١٢)، ونعتقد أن ما أصاب عرب بلزمة من القيسية وعرب تونس من بنى تميم ساعد على انحلال عصبية الأغالبة، وكان نذير هلاكهم .

وثمة مظهر آخر من مظاهر هذا التدهور تمثل فى استعانة إبراهيم بن أحمد فيما خاضه من حروب بجند من السودان، حقيقة أن الجند السودان عرفوا طريقهم إلى دولة الأغالبة منذ أوائل عهدها حين استخدمهم إبراهيم بن الأغلب- مؤسس الأسرة- فى حرسه الخاص ، لكن أعدادهم زادت^(١٣)، فى عهد إبراهيم الثانى واستعاض بهم عن الجند العربى، فزاد سلطانهم حتى تدخلوا فى المنازعات بين أفراد البيت الأغلبى، ونصروا أميرا على آخر، ولم يتورعوا عن سفك دماء بعض أفراد الأسرة الاغلبية .

٦- ابن عذارى : ص١٦٣ ، ١٦٤ ، النويرى : ورقة ٣٦ ، Vonderheyden : Op. cit. p. 256 .

٧- النويرى : ورقة ٢٦ .

٨- ابن عذارى : ص١٦٤ ، النويرى : ص١٦٤ ، الباجى المسعودى: الخلاصة النقية ص ٣٢ .

٩- ابن الأثير : الكامل ج٦ ص ١٢٧ ،

O' Leary : Ashort history of the Fatimid Caliphate. p. 58 .

١٠- البيان المغرب ج١ ص ١٦٤ .

١١- ابن عذارى: ص ١٦٥ .

Vonderheyden : Op. cit. p. 256 .

١٢- ابن عذارى : ص ١٧٣ .

١٣- نفسه ص ١٦٤ ، Vonderheyden , Op. cit. p. 256 .

وتفاقم الأمر باغضاب إبراهيم الثانى طبقة الفقهاء المالكية^(١٤)، فنجم عن ذلك إجماعهم عن التعاون معه فى سياسة الرعية، ورفضوا تولى مناصب القضاء^(١٥) وجأهروه بالعداء ونددوا بجوره وعسفه^(١٦). ودافع الفقهاء عن الرعية «وارتبطوا فى أذهان الناس بالزعامة القومية»^(١٧)، فالفقيه أحمد بن معتب انتهز تعلق الأمير به وتوسط لديه ليفرج عن حبسهم من التجار أثناء الدراهم^(١٨). لهذا تحول الأمير الأغلبى عن فقهاء المالكية الكبار وشرع فى الاعتماد على أناس من طبقات أدنى، فحسن البناء الذى ولاه الأمير قضاء قسطنطينية ثار أهلها فى وجهه لبغيه وظلمه^(١٩)، وأحمد بن وهب قاضى طرابلس كان «قليل العلم»^(٢٠). وإمعانا فى اضطهاد فقهاء المالكية عمد الأمير إلى تولية الاحناف قضاء القيروان، فأمعنوا فى التنكيل بالمالكية، حتى أن القاضى أبا العباس بن عبدون «استطال على طبقة المدنيين وامتهنهم وضرب جماعة منهم كابن معتب والدمنى والطار وابن المدائنى وأبا القاسم مولى مهريّة، وطلب يحيى بن عمر حتى توارى عنه»^(٢١). ولاعجب إذا اتخذ فقهاء المالكية ومن ورائهم الرعية موقفا معاديا للإمارة الأغلبية، ونعتقد أن تلك الحالة من التدهور التى وصلت إليها الإمارة الأغلبية كانت من العوامل التى شجعت العباس بن أحمد بن طولون على محاولة غزو إفريقية، كما أعطت الفرصة لأبى عبدالله الشيعى داعى الفاطميين لممارسة دعوته.

١٤- المالكى : رياض النفوس ص ١٤ ، ١٥ من المقدمة .

١٥- لما أرغم عبد السلام بن سحنون على تولى القضاء قال لانه : «اليوم ذبح أبوك بغير سكين ..»
أنظر : الديباج المذهب ص ١٦٣ ، ترتيب المنار ك قسم ١ من ج ٢ ورقة ٧ .

١٦- بحث أبو الاحوص أحمد بن عبدالله فقيه سوسة رسالة إلى إبراهيم بن أحمد يقول فيها : «يا فاسق،
يا جائر ، يا خائن ، قد حدثت عن شرائع الإسلام ، وعن قريب تعان مقعدك من جهنم ..» أنظر : البيان المغرب
ج ١ ص ١٧٥ .

١٧- رياض النفوس ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

١٨- البيان المغرب ج ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

١٩- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٦١ .

٢٠- نفسه ص ١٩٤ .

٢١- نفسه ص ١٨٧ .

فلما ظهر نفوذ الشيعة وعلا شأنه، حاول إبراهيم بن أحمد إصلاح الأمور «فرد المظالم ، وأسقط القبالات، وأخذ العشر طعاما، وترك لأهل الضياع خراج سنة سماها سنة العدل، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القبروان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها فى الضعفاء والمساكين»^(٢٢)، لكن هذه المسألة انفضت بتنازل إبراهيم بن أحمد لابنه أبى العباس عبدالله عن الحكم ، فامتدت يده إلى تلك الأموال فأنفقها فى ملذاته بدلا من صرفها فى وجوه الإصلاح^(٢٣).

وتفاقت أحوال الإمارة فى عهده القصير، فاضطرب نظامها الإدارى نتيجة إقصائه العمال السابقين وتوليته «على الكور من أحب»^(٢٤)، كما ازداد خطر فتيان البلاط وتدخلوا فى شؤون الحكم، وساهموا فى المكائد والمؤامرات داخل البيت الأغلبى، وحسبنا - فى هذا لصدد- اغتيالهم الأمير ليتولى الحكم ابنه زيادة الله الثالث سنة ٢٩٠هـ^(٢٥).

وقد اتخذ زيادة الله بعض إجراءات دلت على تداعى دولته واضطراب شأنها ، فقد حاول استرضاء الرؤساء لمبايعته ، لكنهم لم يبايعوا إلا بعد أن أعطاهم الصلات والأموال، ووزع الأعطيات على الجند^(٢٦)، واستهل حكمه بذبح أقاربه، فأمر بقتل أعمامه فى جزيرة الكراث- على اثنى عشر ميلا من مدينة تونس^(٢٧) - كما استحل دم قتلة والده من الفتيان، واستدعى أخاه أبا عبدالله الأحول من طبنه ليلقى نفس المصير^(٢٨). ويذهب ابن الأثير^(٢٩) إلى أن موت الأحول أفضى إلى ضعف البلاد فأصبحت فريسة لأبى عبدالله الشيعة. كما امتدت يده إلى عمه أبى الأغلب الزاهد المقيم بسوسة، وكذلك إلى ابن الصياد وغيره من مشاهير الدولة^(٣٠).

٢٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٧٨ .

٢٣- نفس المصدر والصفحة.

٢٤- نفس ص ١٧٩ .

٢٥- نفس ص ١٨٠ .

٢٦- نفس ص ١٨٢ .

٢٧- نفس ص ١٨٣ .

٢٨- نفس المصدر والصفحة .

٢٩- الكامل ج ٦ ص ١٢٣ .

٣٠- ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٨٤ . . Fournel : les Berbers. vol 2 . p. 61

وانغمس زيادة الله فى حياة اللهو والترق (٣١)، فلأزم الندماء والمضحكين ، وأهمل أمور الدولة وأحوال الرعية (٣٢).

وواصل زيادة الله سياسة والده وجده فى تولية العمال من قليلى الخبرة والدراية، فلم يعمر حماس بن مروان قاضى القيروان طويلا مع ما عرف عنه من علم وعدل فى أحكامه (٣٣)، واستبدل بإبراهيم بن الخشاب الذى ظل فى القضاء حتى نهاية الدولة مع أنه «لم يكن عنده علم ولا حفظ» (٣٤)، أما ابن أبى سمحان الذى ولى قضاء بعض الكور «فكان نظير ابن الخشاب فى جميع معانيه» (٣٥).

وليس أدل على فساد جهاز الدولة الإدارى مما عرف عن تشيع وزراء زيادة الله وعماله ووجهاء دولته، فكانوا على صلة بأبى عبد الله الشيعى يتلقون منه الأوامر وينفذونها (٣٦)، وقام الوزير ابن الصائغ بدور خطير فى هذا الصدد (٣٧)، حتى لقد سمح عامل طرابلس الأغلبى بمرور المهدي إلى المغرب (٣٨)، مما يدل على أن الأمير الأغلبى أفلت منه زمام السيطرة على حدود الدولة.

فإذا أضفنا إلى كل ما سبق تخاذل الكثيرين من قواده وخروجهم عليه (٣٩)، وحنق البربر- عموما- على العرب (٤٠) وحبهم للمغامرة والحروب مع ما اشتهروا به من التعصب لآل

٣١- ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٢٩٤ .

٣٢- الكامل ج ٦ ص ١٢٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ٥٠ .

٣٣- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٣ .

٣٤- الخشنى : طبقات علماء إفريقية ص ١٧٦ .

٣٥- ذكر الخشنى أن رجلا قال لسميد بن الحداد : من أعلم ، ابن الخشاب أو ابن سمحان، فقال : إن سألتنى أيهما أغرق فى الجهل أنبأتك ، وأما أعلم ، فما علمته. أنظر : طبقات علماء إفريقية ١٧٦ .

٣٦- الكامل ج ٦ ص ١٢٨ . . Vonderheyden : Op. cit. p. 297 .

٣٧- Hopkins : Op. cit. p. 2 .

٣٨- ابن الأثير : المرجع السابق، ص ١٣٠ .

٣٩- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨ .

٤٠- Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale . p. 62 .

البيت والاعتقاد بظهور المهدي المنتظر، أدركنا النجاح الذي أحرزته الدعوة الفاطمية في إفريقيا^(٤١).

فبلاد المغرب كانت ميدانا من ميادين الدعوة للمهدي الذي «سيظهر ليملاً الأرض نورا وعدلا»، واتخذت الدعوة طابع الكتمان والسرية نتيجة الخوف من إرهاب بنى العباس، ولا يخفى ما جرى عليه العباسيون من التزام سياسة العنف في معاملة بنى عمومتهم، لذلك عاش محمد الحبيب بسلمية - من أرض حمص- متخفيا، وأخذ يرسل الدعاة إلى كل الأنحاء^(٤٢).

واختلف إلى المغرب من دعائه رجلان هما أبو سفيان والحلواني ليمهدا للدعوة الشيعية فيه، ولجحا فيما ذهبا إليه^(٤٣) - إلى حد كبير- وخاصة في كتامة. وبالرغم من افتقارنا إلى مزيد من أخبارهما فلاشك أنهما ماتا في وقت متقارب^(٤٤)، بعد أن تركا أثرا واضحا لدى الكتامين ساعد فيما بعد أبا عبدالله الشيعي على مواصلة جهودهما في الدعوة للمهدي^(٤٥).

كان أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد المعروف بالشيعي^(٤٦) قد اتصل بالإمام محمد بن جعفر، فتوسم فيه الكفاية وأرسله إلى ابن حوشب القائم على أمر الدعوة باليمن

٤١- Vonderheyden : Op. cit. p. 284, Hassan Ibrahim : Relations between the fatimids in North Africa and Egypt, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University Vol X. part. 2 . p. 50 .

٤٢- البيان المغرب ج ١ ص ١٦٦، العبر ج ٣ ص ٣٦٤ .

٤٣- ابن خلدون : المرجع السابق ص ٣٦٤ . . O'Leary : Op. cit. p. 52 .

جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ١٨ .

٤٤- الكامل ج ٦ ص ١٢٧ .

٤٥- كتاب الاستبصار ص ٢٠٢ .

٤٦- اختلف المؤرخون حول أصله وموطنه، فبعضهم يذهب إلى أنه من رام هرمز بنواحي خوزستان، ثم قدم إلى العراق للعمل بسوق الفزل في البصرة، أنظر : العبر ج ٢ ص ٣٦٢، المقرئ : اتعاظ الخنفا ص ٦٨ . لكن المقرئ في خطه يؤكد أنه من أهل صنعاء باليمن، متفقا في ذلك مع ابن الأثير. أنظر : المقرئ : الخطوط ج ٢ ص ١٥ ، الكامل ج ٦ ص ١٢٧ . بينما يرى محمد بن محمد اليماني أن الكوفة كانت مقر إقامته . أنظر : ملحق كتاب : Ivanova : Ismaili tradition concerning the rise of Fatimids. p. 121 .

للاسترشاد بأمره^(٤٧) قبل مسيره إلى المغرب، ومن صنعاء أمده ابن حوشب بالأموال قائلا :
« إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر
فإنها موطأة ممهدة لك »^(٤٨). فتوجه أبو عبدالله إلى مكة، وأثمرت اتصالاته بحجاج كتامة
بفضل « معرفته وجدله وفصاحته »^(٤٩)، فتعلقوا به لما كان عليه من العبادة والزهد^(٥٠)،
ورافقهم فى عودتهم، وأدركوا القيروان عام ٢٨٠هـ. ومن القيروان اتجه الشيعى إلى جبل
إيكجان^(٥١) فى بلاد كتامة واتخذة مقرا . والحق- لم يكن الأمر ممهدا له تماما، فلم تلبث
الخلاقات والحروب أن نشبت بين رجال كتامة، إلا أنهم سرعان ما انصاعوا له، « وأطاعوه
 واجتمعوا على دعوته »^(٥٢)، واشتد ساعده بانضمام كثير من القبائل الأخرى إليه، فعكف
على تنظيم الدعوة، ودعى الناس إلى « طاعة الإمام المعصوم من أهل البيت »^(٥٣). وأخذ
يحضهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عما انتشر بينهم من الرذائل وقبيح العادات^(٥٤)، كما
« صير لهم ديوانا، وألزمهم العسكرية »^(٥٥).

فلما انتهت مرحلة الدعوة والإعداد بدأت مرحلة الصدام المسلح بين الشيعى والأغالبة، ذلك
الصدام الذى انتهى بقيام « دولة مستجدة » على انقاض دولة الأغالبة ، تلك هى دولة الشيعة
العبيديين^(٥٦).

٤٧- إتماظ الحنفا ص ٦٩ . O' Leary : Op. Cit. p. 51 .

٤٨- الكامل ج ٦ ص ١٢٧ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٩ .

٤٩- البيان المغرب ج ١ ص ١٦٦ .

٥٠- العبر ج ٣ ص ٣٦٢ .

٥١- أقام أبو عبدالله فى مكان يسمى « فج الأخيار » ، وقال لأنصاره : « إن هذا المكان ما سعى إلا بهم،
ولقد جاء فى الآثار أن للمهدى هجرة ينبو فيها عن الأوطان ينصره فيها الأخيار من ذلك الزمان قوم اسمهم
مشتق من الكتان .. » . أنظر : خطط القرزى ج ٢ ص ١٦ .

٥٢- ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٣٦٢ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٢٠ .

٥٣- ابن عذارى : ج ١ ص ١٧٢ .

٥٤- ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٦٦ .

٥٥- ابن عذارى : المرجع السابق ص ١٧٢ .

٥٦- ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥٩ .

وجدير بالذكر أن الشيعة على الرغم من ازدياد سطوته ، واستفحال قوته، تحاشى جذب الأنظار إليه، يذكر فندرهيدين^(٥٧) أن أهل إفريقية لم يعرفوا الكثير عن أخباره لجهلهم بما كان يدور فى بلاد كتامة، وحين هم الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد باستطلاع أخباره، اكتفى بسؤال عامله على مدينة ميله، «فصغره عنده وذكر له أنه يلبس الخشن ويأمر بالخير والعبادة»^(٥٨).

والراجع أن إبراهيم بن أحمد تنبه إلى مرامى أبى عبدالله الحقيقة فبعث إليه رسولا^(٥٩) ليوقف على حقيقة أمره، ومعه رسالة^(٦٠) يئنيه فيها بالجاء والسلطان إذا أطاع ، ويهدده بسوء العقوبة إذا رام بالدولة شرا. ولم يستجب الشيعة لمغريات ابن الأغلب بل كشف عن حقيقة موقفه، وأنه صاحب دعوة لا يثنيه عنها ترغيب أو ترهيب^(٦١).

ولم ينتظر أبو عبدالله رثما تباغته جيوش إبراهيم بن أحمد ، بل شرع فى مناقشة مدينة ميله، وهى معقل حصين تحيط به سلسلة من القلاع^(٦٢). وتجلت الخيانة فى صفوف الأغالبة ، فأرشد رجل من أهل المدينة- يدعى الحسن بن أحمد^(٦٣)- الشيعة على أماكن الضعف فى حصونها^(٦٤). ضرب الشيعة الحصار حول ميله ، وفتح أرباضها بعد معارك عنيفة استبسل فيها المحاصرون^(٦٥) فطلب أهل المدينة الأمان ، وأنسابت جيوش الشيعة داخل المدينة^(٦٦). ويسقط ميله سقط حصن الدفاع الأول عن إفريقية سنة ٢٨٩هـ^(٦٧).

٥٧- . 92 . 291 . La Berberie orientale .

٥٨- الكامل ج ٦ ، المبرج ج ٣ ص ٣٦٢ .

٥٩- ذكر النويرى أن هذا الرسول يدعى ابن المعتصم المنجم. أنظر : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٦ .

٦٠- أنظر : ملحق ٥ .

٦١- انظر : ملحق ٦ .

٦٢- Vonderheyden : Op. cit. p. 292 .

٦٣- ذكر النويرى أن شخصا من وجوه ميله يدعى قيس بن جرير هو الذى ارتكب هذه الخيانة .

أنظر : نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٩ .

٦٤- الكامل ج ٦ ص ١٢٨ .

٦٥- نفس المصدر والصفحة.

٦٦- المبرج ج ٣ ص ٣٦ .

٦٧- Vonderheyden : Op. cit. p. 292 .

سارع إبراهيم بن أحمد بإرسال ابنه الأحول على رأس جيش عدته اثني عشر ألفا، أتبعه بمثله لملاقاة الشيعي، ونجح الأحول في هزيمته، وكاد يفتك برجاله لولا سوء الأحوال الجبرية، فاستطاع الشيعي الانسحاب إلى إيكجان وجعلها «دار هجرة»^(٦٨) بينما اتخذ الأحول طريقه نحو تاصروت وميلة فأضرم فيهما النيران ثم عاد إلى القيروان^(٦٩).

وفى تلك الأثناء تنازل إبراهيم بن أحمد عن الحكم لابنه أبي العباس ثم مات هذا الأخير سنة ١٩٠ هـ، وتولى زيادة الله الثالث الإمارة، واستهل زيادة الله حكمه باغتيال الأحول الذي كان قد توجه لقتال الشيعي إذ كتب إليه «يستقدمه وقتله»^(٧٠). ويعتبر فورنل وفندرهيدن^(٧١) مقتل الأحول «بداية النهاية لدولة الأغالبة».

نشط الشيعي فنظم الجيوش وأذكى الحماس بين رجاله، وأخبرهم «أن المهدي يخرج في هذه الأيام»، كما اتصل سرا برجال زيادة الله لينصروه^(٧٢). وبدأ الشيعي الهجوم فاتجه إلى شطيف^(٧٣)، وحاصرها أربعين يوما دون جدوى فانسحب إلى إيكجان، وأعاد تنظيم صفوفه ثم عاود حصار المدينة فسقطت في يده وقتل عاملها ابن عسلوجة^(٧٤).

بعد سقوط شطيف أعد زيادة الله جيشا كبيرا، إذ جند مائة ألف مقاتل^(٧٥)، وزودهم بالأموال والسلاح^(٧٦)، وانضم إلى هذا الجيش بعض الكتاميين من أعداء الشيعي، كما انضم

٦٨- إيعاظ الحنفا ص ٧٩.

٦٩- الكامل ج ٦ ص ٢١٧، العبر ص ٣٦٢.

٧٠- ابن خلدون: نفس المصدر والصفحة.

٧١- Les Berbers . vol . 2 . p. 61 , La Berberie Orientale , p. 293 .

٧٢- الكامل ج ٦ ص ١٢٨، إيعاظ الحنفا ص ٨٠، الخطط ج ٢ ص ١٧.

٧٣- ذكر فندرهيدن أن الشيعي استولى على ميلة بعد استحوازه على شطيف،

أنظر: La Berberie Orientale . p. 293 .

والصحيح استرداده ميلة قبل توجهه إلى شطيف، أنظر: نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٢٩.

٧٤- نفس المصدر والورقة ٣٠.

٧٥- ابن الأثير: المرجع السابق ص ١٣٠، المنصوري: زبدة الفكرة ج ٥ ورقة ١٥٧.

٧٦- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٠.

إليه «كل شجعان إفريقية» (٧٧)، «وأعجاذ العرب والموالي»، لكن لم يحقق النصر لجهل قائده بفنون الحرب (٧٨). فقد مكث القائد إبراهيم بن حبشى بقسنطينة ستة أشهر منتظرا قدوم الشيعى إليه (٧٩)، ولم يجازف الشيعى بملاقاة هذا الجيش الضخم إنما آثر التريث، فبعث بطلائعه للاستكشاف، فالتقت بجيش الأغالبة عند بلدة كزمة (٨٠). ثم انقض الشيعى بقواته على حين غرة فأجهز على جيش ابن حبشى الذى فر بفلوله إلى إفريقية مدحورا، «وغنم الشيعى من الأموال والامتعة والسلاح مالا يحصى كثرة» (٨١). وكان لهذا النصر أثر طيب على الشيعة والكتاميين «فشرقت أنفسهم، وتحققت آمالهم، وصح عندهم ما كان الشيعى يعدم» (٨٢) فى الوقت الذى ساد فيه إفريقية الهلع والخوف (٨٣)، وبدا الخطر الشيعى محدقا منذرا بابتلاع إفريقية كلها بعد أن دانت للشيعى جميع المناطق الواقعة غربى القيروان (٨٤).

ووضع تخاذل الأغالبة فى موقف زيادة الله الثالث من رحلة عبيدالله المهدي الذى أدرك المغرب سنة ٢٩٢هـ، فقد ظل عبيدالله مقيما بسلمية، تصل إليه الأموال من الدعاة فيغدق على العمال العباسيين «فيصير كل من يلى البلد شبيها بالعبد له لجزيل ما يوليه» (٨٥). ولكن

٧٧- ابن الأثير : المرجع السابق ص ١٣٠ .

٧٨- نفس المصدر والصفحة.

٧٩- العبرج ٣ ص ٣٦٣ .

٨٠- وردت عند ابن عذارى «كينونة». أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٦ وعند ابن خلدون «بلزمة». أنظر : العبرج ٤ ص ٣٦٣ وكذلك عند فنديرين La Berbeire Oriental p. 294 لكن الثابت أن بلزمة لم تسقط فى يد الشيعى إلا بعد استيلائه على طينة فيما بعد. أنظر : النويرى: نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٠ ، ابن خلدون : العبرج ٣ ص ٣٦٣ .

٨١- النويرى : المرجع السابق ورقة ٣٠ .

٨٢- نفس المصدر والصفحة.

٨٣- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٧ ، . p. 294 . cit. Vonderheyden

٨٤- حسن إبراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص ٥٠ .

٨٥- سيرة جعفر الحناجب ، رواية محمد اليمانى أنظر : ص ٨-١٠ من ملحق كتاب : Ivanova : Ismaili tradition ...

أحد العمال الترك أنضى إلى الخليفة المكتفى بخبره ، فأمر بالقبض عليه ، وأبلغ الدعاة ببغداد المهدي الخبر ، فغادر سلمية^(٨٦) في خاصته ومواليه^(٨٧) . وقد اتجه المهدي إلى دمشق فطبرية فالرملة حتى وصل مصر^(٨٨) ، ثم تمكن من مغادرتها إلى المغرب بعد إفلاته من عاملها عيسى النوشري^(٨٩) ، وعند طرابلس^(٩٠) تركه أخو الشيعي واتجه إلى القيروان^(٩١) ، لكنه وقع في يد زيادة الله بعد أن وشى به بعض التجار ، وأنكر أخو الشيعي علاقته بالمهدي فحبسه زيادة الله مدة ثم أطلق سراحه^(٩٢) . وأرسل زيادة الله إلى عامله على طرابلس للقبض على المهدي ، فأجاب بأن المهدي خرج إلى قسطنطينية . وغادر المهدي قسطنطينية على وجه السرعة ومر بتوزر في طريقه إلى سجلماسة^(٩٣) ، وبقي آمنا في رحاب أميرها اليسع بن مدرار بعد «أن أهدى إليه وواصله»^(٩٤) وقد بعث زيادة الله كتابا إلى اليسع بشأنه في الوقت الذي وصله كتاب الخليفة المكتفى يأمره بالقبض عليه ، «فتغير اليسع بن مدرار على المهدي وحبسه»^(٩٥) .

٨٦- العبرج ٣ ص ٣١٣ .

٨٧- إصطحاب المهدي معه داعي دعائه فيروز ، وطبيب ، ومحمد بن زكرياء ، وأبا يعقوب القهرماني ومحمد بن عزيزة وجعفر الحاجب . انظر : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ .

٨٨- نفسه ص ١١٢ .

٨٩- المقرئ : إتماظ الحنفا ص ٨٢ ، جمال سرور ، الدولة الفاطمية في مصر ص ٢٢ . ويذكر بعض المؤرخين رواية مؤداها أن النوشري لم يكن على علم بأمر المهدي ، لذلك أطلقه اعتقادا بأنه ليس إلا تاجرا . أنظر : ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبرج ٣ ص ٣٦٣ ، Fournel : Op.cit. vol. 2. p. 69 ، والراجع أنه كان يعلم حقيقة أمره وأطلقه بعد أن قدم إليه الأموال وأتحفه بالهدايا جريا على سياسته مع العمال العباسيين . أنظر : كتاب شرح الأخبار ص ٣٣ من ملحق كتاب Ivanova السابق .

٩٠- في طريق المهدي إلى طرابلس خرج عليه لصوص عند موضع يسمى الطاحونة نهبوا قافلته ومقتله وكتبه وملاحم آبائه ، فاغتم لفقدها . انظر : الكامل ج ٦ ص ١٢٩ ، العبرج ٣ ص ٣٦٣ .

٩١- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٢ .

٩٢- الكامل ج ٦ ص ١٢٣ .

٩٣- سيرة جعفر الحاجب ص ١١٩ ، جمال سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٢٣ .

٩٤- ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٣٠ ، جمال سرور : المرجع السابق ص ٢٣ .

٩٥- العبرج ٣ ص ٣٦٢ ، شرح الأخبار ص ٣١ .

وظل المهدي حبيسا في سجن سلاسة والشيعة مشغولا في حرب الأغلبية. ونجاح المهدي على ذلك النحو في عبور إفريقية واستمالته العمال الأغلبية، ينهض دليلا على براعة الدعوة في التخفي والتستر من ناحية، وعلى تداعي الدولة الأغلبية وتقلص سلطان أميرها من ناحية أخرى^(٩٦).

وكما أخفق زيادة الله في القبض على المهدي، منيت جيوشه بالهزائم المتوالية على يد الشيعة، ففي سنة ٢٩٣ هـ أسند قيادة جيشه إلى مدليج بن زكريا وأحمد بن مسرور الحال، ولكنهما انتهزا فرصة قيادة هذا الجيش الضخم واتجها إلى القيروان للإطاحة بالأمير، وكادا يحققان غرضهما لولا خروج أهل القيروان عليهما، وقتلهم مدليج بن زكريا^(٩٧). وحاول زيادة الله استمالة الجنود، فأسرف في بذل الأموال، حتى أنه كان يعطيهم «الأموال جزافا بالصحاف كيلا بلا وزن»^(٩٨)، وأخفق زيادة الله في تحصين باغاية وطبنة، وأسند القيادة لقواد جدد وأغار بنفسه على قلاع الشيعة دون جدوى، فلم يستطع استعادة طبنة وبلزمة^(٩٩)، وأصبحت حدود إفريقية الغربية مكشوفة تماما.

اتجه الشيعة في سنة ٢٩٣ هـ بقواته إلى مدينة طبنة وحاصرها «وتصب عليها الدبابات»، فسقط سورها بعد معركة حامية، واستسلمت المدينة بعد أن استأمن أهلها^(١٠٠)، ثم توجه إلى بلزمة فحاصرها ورمأها بالنار فأحرقها «وفتحها بالسيف»، وقتل الرجال، وهدم الأسوار^(١٠١). وعمل أبو عبدالله بعد فتح بلزمة على استمالة أهل إفريقية «فرقص جباية العشور عينا، ولم يقبل الخراج من المسلمين في الوقت الذي أخذ فيه الجزية والصدقة مالا عملا بتعاليم الشريعة»^(١٠٢)، وقد أثمرت تلك السياسة وحقت أغراضها فأقبل أهل إفريقية على الشيعة «وكاتبوه، ودخلوا في طاعته»^(١٠٣).

٩٦- Vonderheyden : Op. cit. p. 297 .

٩٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

٩٨- نفسه ص ١٨٩ .

٩٩- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٠ .

١٠٠- الكامل ج ٦ ص ١٣٠ .

١٠١- لاسبيل لتصديق قول ابن عثاري بأن بلزمة سقطت في يد الشيعة بالامان .

أنظر : البيان المغرب ج ١ ص ١٩١ .

١٠٢- نفسه ص ١٩٢ .

١٠٣- نفس المصدر والصفحة.

ويتحول الرعية إلى جانب أبي عبدالله ضاعت جهود زيادة الله سدى، فقد جند اثني عشر ألفا، وأسند قيادتهم إلى هرون الطنبى، وتمكن هرون من استرداد مدينة «دار ملوك»، ونكل بأتباع الشيعة فيها، لكنه ما لبث أن ارتد على عقبيه وتبعته جيوش الشيعة فأجهزت عليه (١٠٤).

ولم يجد زيادة الله بدا من الخروج لمواجهة الغزاة بنفسه، لكنه ما كاد يدرك الأرس حتى تراجع بعد أن أشار عليه أصحابه بالعدول حتى لا تسقط دولته إذا ما حاقت به الهزيمة (١٠٥)، فأنصرف عائدا إلى رقادة بعد أن عهد بالقيادة إلى إبراهيم بن الأغلب، وفي رقادة واصل حياة اللهو والمجون (١٠٦) «ومنادمة العيارين والزمامرة» (١٠٧).

ولم يجد الشيعة صعوبة تذكر في الاستيلاء على مدينة باغاية (١٠٨)، فقد كاتبه أهلها ودعوه لدخولها (١٠٩).

وفكر زيادة الله في الهرب إلى مصر، لكنه تراجع خشية الثورة عليه (١١٠)، فأثر البقاء ليشهد نهاية ملكه.

لم يدخر الشيعة وسعا في فتح ما بقى من معاقل الأغلبية وحصونهم فاستولى على مسكيانة (١١١) وتبسة ومدبرة ومرمجنة (١١٢) ومجانة والقصرين (١١٣) بعد أن أمن الناس على

١٠٤- الكامل ج ٦ ص ١٣، نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٠، العبر ج ٣ ص ٣٦٣، Vonderheyden : Op. cit. p. 301.

١٠٥- ابن الأثير : المرجع السابق ص ١٢١، O'Leary : Op. cit. p. 64.

١٠٦- إتحاف الخفا ص ٨٦.

١٠٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٩٣.

١٠٨- العبر ج ٣ ص ٣٦٣، نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٠.

١٠٩- الكامل ج ٦ ص ١٣٠.

١١٠- البيان المغرب ج ١ ص ١٩٥.

١١١- إتحاف الخفا ص ٨٦.

١١٢- الكامل ج ٦ ص ١٣١.

١١٣- العبر ج ٦ ص ١٣١.

أنفسهم وأموالهم^(١١٤). ثم سقطت قسطنطينية وغنم الشيعة ما بها من أموال وعدد^(١١٥). ودانت له قفصة فقفل عائدا إلى إيكجان^(١١٦)، وأقام بها قرابة شهرين دون قتال^(١١٧).

انتهاز إبراهيم بن الأغلب هذه الفرصة ، فحاول استرداد باغاية^(١١٨) دون جدوى، بينما شغل زيادة الله بالاختصاص من كبار رجال الدولة الذين تفشت فيهم الخيانة^(١١٩)، وساد الذعر أهل إفريقية الذين «خافوا على ذرارهم السبي والاسترقاق»^(١٢٠)، فتخلى القيروانيون عن حراسة مدينة رقادة^(١٢١)، وعادت رسل الأمير من بغداد بخفي حنين .

ويبدو أن اعتكاف الشيعة في إيكجان كان بقصد الإعداد للمعارك الفاصلة في قلب إفريقية ذاتها بعد سيطرته على ممرات جبال الأطلس الشرقية^(١٢٢)، وقد نجح الشيعة فعلا في تجنيد مائة ألف مقاتل^(١٢٣) توجه على رأسهم إلى مدينة الأريس- على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان^(١٢٤) - حيث عسكر الجيش الأغلب بقيادة إبراهيم بن الأغلب^(١٢٥). وفي أوائل جمادى الأخيرة سنة ٢٩٦هـ التقى الجيشان ، وبكر الجيش الأغلب بإحراز نصر سريع ، وحاول الشيعة القيام بحركة التفاف حول الجيش الأغلب فبعث ستمائة من فرسانه للقيام بهذه المهمة^(١٢٦)، والتقت هذه الكتيبة بكتيبة أغلبية نكلت بها . وبلغ الخبر ابن الأغلب فأسرع

١١٤- ابن الأثير : المرجع السابق ص ١٣١ .

١١٥- المعبر ج ٣ ص ٣٦٣ ، نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٦٠ .

١١٦- ابن خلدون : نفس المصدر والصفحة.

١١٧- البيان المغرب ج ١ ص ١٩٧ .

١١٨- ابن خلدون : المرجع السابق ص ٣٦٤ .

١١٩- ابن عذاري : المرجع السابق ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

١٢٠- نفسه ص ١٩٧ .

١٢١- نفسه ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

١٢٢- Vonderheyden : Op. cit. p. 303 .

١٢٣- المعبر ج ٣ ص ٣٦٣ ، يبالغ المؤرخون حين يقدرون جيش الشيعة بما يتقارب ألف جندي.

أنظر : الكامل ج ٦ ص ١٣١ ، اتعاظ المعنف ص ٤١ .

١٢٤- البكري : المغرب ص ٤٦ .

١٢٥- ابن الأثير : المرجع السابق ص ١٣١ .

١٢٦- اتعاظ المعنف ص ٨٦ .

٢٠١

بالهزب إلى القيروان (١٢٧)، لكن جيش الشيعة لاحقته وأعمل في رجاله القتل والأسر والغنيمة (١٢٨)، وانساب الشيعة داخل المدينة، وينسب إليهم ذبحهم الناس في المساجد «حتى كانت الدماء تسيل من أبواب المسجد كما يسيل الماء من إبل الغيث» (١٢٩)، واستبيحت المدينة لجند الشيعة (١٣٠)، ثم غادرها إلى قمودة (١٣١).

حاول زيادة الله أن يدعى النصر لنفسه فأمر بقطع رؤوس المسجونين وأن يطاف بها في شوارع القيروان مدعياً بأنها رؤوس الشيعة الذين حلت بهم الهزيمة (١٣٢)، لكن ذلك لم ينطل على الرعية، فقد تبقتت من الحقيقة وسادها اللعن والخوف «وجعلت الخاصة وأهل الخدمة يفرون من رقادة» (١٣٣)، ولم يستطع الأمير الأغلب أن يلم شمل الجند بالرغم من سخائه، فقد كان يبذل للفارس عشرين «ديناراً وللراجل عشرة» (١٣٤)، ولم يجد زيادة الله مناصاً من الهرب، فلم يستجب لنصيحة وزيره ابن الصايغ في البقاء لمواصلة القتال، واتهمه بالتواطؤ مع الشيعة، وجمع ما خف حمله من المال والجواهر وخرج برفقة وجوه رجاله وفتياناه وعبيده من مدينة رقادة لأربع بقين من جمادى الأخيرة سنة ٢٩٦ هـ ميماً وجهه صوب المشرق (١٣٥).

وأحدث هرب زيادة الله هرجاً كبيراً في إفريقية، فخرج أهل القيروان لنهب قصور بني الأغلب في رقادة العامرة بالأسواق والفنادق والقصور (١٣٦)، واستمرت عملية النهب هذه ستة

١٢٧- نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٣٠.

١٢٨- الكامل ج ٦ ص ١٣٢.

١٢٩- البيان المغرب ج ١ ص ١٩٩.

١٣٠- العبر ج ٣ ص ٣٦٤.

١٣١- نفس المصدر والصفحة، ويذكر ابن عذارى أنه انصرف إلى باغاية.

أنظر: البيان المغرب ج ١ ص ١٩٩.

١٣٢- Vonderheyden: Op. cit. p. 309.

١٣٣- ابن عذارى: المرجع السابق ص ٢٠٠.

١٣٤- نفس المصدر والصفحة.

١٣٥- الحلة السيرة ص ٢٩٤، العبر ج ٣ ص ٣٦٤.

١٣٦- المغرب ص ٢٧.

أيام (١٣٧) جردت فيها المدينة من أبعثها وعظمتها ، وانتزعت أبواب القصور الأغلبية وسرقت محتوياتها (١٣٨).

وفى تلك الأثناء حاول إبراهيم بن الأغلب قائد معركة الأريس القيام بجهود يائسة لإحياء الإمارة الأغلبية ، فدخل القيروان ، ونزل قصر الإمارة ، وعمل على تهدئة العامة واستنهاض همهم ، متددا بسوء سياسة زيادة الله الثالث ورجاله ، مظهرا ضعف الشيعة وإمكان التفوق عليه . ولما دعاهم لمؤازرته بالمال والرجال انفضوا من حوله ، وكادوا يفتكون به لولا إسرعه بالهرب للحاق بزيادة الله (١٣٩).

أما أبو عبدالله الشيعة ، فحين ترمى إلى سمعه هرب زيادة الله ، أرسل إلى قادة قائدين من قواده هما عروبة بن يوسف والحسن بن أبى خنيزر على رأس ألفين من الفرسان ، تمكنا من إقرار أمورها ، وتأمين سكانها (١٤٠) ، بينما خرج وجوه أهل القيروان وفقهاؤها (١٤١) للترحيب بالشيعة «مدارة له» (١٤٢) ، وهناؤه بالفتح ، فاستقبلهم استقبالا حسنا وأعطاهم الأمان (١٤٣) . وفى رجب من سنة ٢٩٦ هـ دخل الشيعة رقادة ، ونادى أهلها بالأمان ، ونكل بمن فيها من موالى الأغلبية وخاصة السودان (١٤٤) ، وقسم دورها على أتباعه الكتامين ، وجمع أموال زيادة الله وسلاحه وجواربه وأمر بحفظها (١٤٥).

١٣٧- الكامل ج ٦ ص ١٣٢ .

١٣٨- نهاية الأوب ج ٢٦ ورقة ٤٢ .

١٣٩- العبر ج ٣ ص ٣٦٤ ، اتعاظ الخنفا ص ٨٧ .

١٤٠- البيان المغرب ج ١ ص ٢٠٤ ، العبر ج ٣ ص ٣٦٤ .

١٤١- اشتهر الفقهاء بعدائهم للشيعة حتى أفتوا بأن «جهاده أفضل من جهاد الشرك» . أنظر : الدباغ : معالم الايمان ، ج ٣ ص ١٨٥ . كما لعبوا دورا قياديا فى مقاومته وحض الرعية على مناورته . أنظر : القاضى عياض . ترتيب المدارك القسم الأول من الجزء الثانى ورقة ١٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٥ . ومع ذلك عاملهم الشيعة معاملة طيبة لكسب جانبهم نظرا لما لهم من تأثير ومكانة فى نفوس الرعية . أنظر : Vonderheyden : Op. cit. p. 311 .

١٤٢- القاضى عياض : المرجع السابق ورقة ٦٣ .

١٤٣- الكامل ج ٦ ص ١٣٢ .

١٤٤- نفس المصدر والصفحة .

١٤٥- العبر ج ٣ ص ٣٦٤ .

وشرع الشيعة في تنظيم أمور إفريقية ، وأخرج العمال إلى نواحيها ^(١٤٦)، فوجه عاملاً إلى طرابلس ، كما ولى الحسن بن أحمد ابن أبي خنيزر على القيروان، وعين بن أحمد بن علي بن كليب على مدينة القصر القديم ^(١٤٧)، وعول الشيعة على تغير رسوم الحكم وتقاليده قمشياً مع الوضع الجديد، فأمر بذكر «حي على خير العمل» في الأذان، وأسقط اسم الخليفة العباسي من الخطبة، وولى على السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن القمودي ^(١٤٨)، وتقش عليها عبارتي «بلغت حجة الله» و «تفرق أعداء الله» ^(١٤٩) وعلى السلاح عبارة «عق في سبيل الله»، ووسم الخيل على أفخاذها بقول «الملك لله» ^(١٥٠)، وأمر بالصلاة على النبي وقاطمة والحسن والحسين وأظهر التشيع ، كما عين قاضياً شيعياً على القيروان ليفتي وفق المذهب الجديد ^(١٥١). وحض أبو عبدالله وجوه كتامة على الدعوة للمذهب ^(١٥٢)، غير أن جهودهم - في هذا الصدد- لم تكلل بالنجاح ، فقد تزعم الفقهاء المالكية حركة مقاومة المذهب الشيعي، ونجحوا في تحويل مشاعر الناس إلى العداء للسافر للشيعة ودعوته ^(١٥٣).

١٤٦- ابن الأثير : ج ٦ ص ١٣٢ .

١٤٧- البيان المغرب ج ١ ص ٢٠٧ .

١٤٨- نفسه ص ٢٠٦ .

١٤٩- العبر ج ٣ ص ٣٦٤، وتلك صورة للدينار الذي ضربه الشيعة:

(كتابة دائرية) بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبع وتسعين ومائتين .

(الوجه الأول) تفرق - محمد - رسول - الله - أعداء الله .

(الوجه الآخر) العز - لا إله إلا - الله وحده - حجة الله .

(كتابة دائرية) محمد - رسول - الله - أرسله - بالهدى - ودين - الحق

انظر : Lavoix : Op. cit. vol. 2 . p. 399 .

١٥٠- الكامل ج ٦ ص ١٣٢ .

١٥١- البيان المغرب ج ١ ص ٢٠٧ .

١٥٢- نفسه ص ٢٠٨ .

١٥٣- Vonderheyden : Op. cit. p. 315 .

ثم توجه الشيعة إلى سجنهم لتحرير المهدي من سجنه ، وتمكن من إطلاق سراحه بعد أن قتل اليسع بن مدرار (١٥٤).

أما زيادة الله، فقد وصل طرابلس وظل بها مدة ينتظر وصول بقية متاعه مع وزيره ابن الصايغ (١٥٥)، ثم توجه إلى مصر، ومنها إلى الشام في طريقه إلى بغداد، آملاً في مساعدة الخلافة له في استرداد إفريقية. لكن أمله لم يتحقق ، فلم تستطع الخلافة من جانبها الاضطلاع بعمل جدي في هذا الصدد ، واكتفى الخليفة المقتدر بأن أمر عيسى النوشري وإلى مصر بمساعدته في إعداد الحملة المنشودة . ولم يقدر لهذه الحملة الخروج إلى إفريقية ليندثر منها حكم بنى الأغلب نهائياً (١٥٦)، فمنذ عام ٢٩٦هـ (١٥٧) انقطعت الخطبة للعباسيين من إفريقية والمغرب عموماً بزوال دولة الأغالبة .

* * *

١٥٤- شرح الأخبار ص ٣٣ من ملحق كتاب Ivanova سالف الذكر .

١٥٥- ذكر ابن عذارى أن ابن الصايغ توجه إلى صقلية هارباً من بطش زيادة الله لمحاولته تبيد أمواله، لكن السفينة التي أقلته جنحت إلى طرابلس ، فوقع في يد زيادة الله، فضرب عنقه .

انظر : البيان المغرب ج ١ ص ٢٠٢ .

١٥٦- ابن أبي دبنار: المؤنس ص ٥١ .

١٥٧- ذكر السيوطي- خطأ- أن نهاية دولة الأغالبة حدثت سنة ٢٨٢هـ، والملاحظ أن تواريخه المتصلة بالدولة العبيدية عموماً تشوبها الأخطاء . أنظر : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ .

الملاحق

ملحق رقم (١)

الإمارة (١٥٨)

إذا قلد الخليفة أميراً على إقليم أو بلد كانت إمارته على ضربين، عامة وخاصة، فأما العامة فعلى ضربين ، إمارة استكفاء بعقد عن اختيار، وإمارة استيلاء بعقد عن اضطرار.

فإمارة الاستكفاء التى تنعقد عن اختياره فتشتمل على عمل محدود ونظر معهود، والتقليد فيها أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله ونظراً فى المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل، ومعهوداً من نظر .

ونحن نقدم القسم الأخير وهو حكم الإمارة الخاصة لاشتراكها مع إمارة الاستكفاء فى عقد الاختيار ، ثم نذكر القسم الثانى فى إمارة الاستيلاء المعقودة عن اضطرار.

فأما الإمارة الخاصة فهو أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيش ، وسياسة الرعية، وحماية البيضة، والذب عن الحرم، وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام والجباية الخراج والصدقات (نما هو مسموح به فى إمارة الاستكفاء). وشروط الإمارة الخاصة تقصر عن شروط الإمارة العامة بشرط واحد وهو العلم، لأن لمن عمت إمارته أن يحكم وليس ذلك لمن خصت إمارته، وليس على واحد من هذين الأمرين مطالعة الخليفة بما أمضاه فى عمله على مقتضى إمارته إذا كان معهوداً، إلا على وجه الاختيار تظاهراً بالطاعة ، فإن حدث غير معهود أوقفاه ، قاما بما يدفع هجومه حتى يرد عليهما إذن الخليفة فيما يعملان به لأن رأى الخليفة لإشرافه على عموم الأمور أمضى فى الحوادث النازلة.

وأما إمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطرار ، فهى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها. فيكون الأمير باستيلائه مستتبداً بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه منفذاً لاحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة ، ومن

الخطر إلى الإباحة، وهذا وإن خرج عن عرف التقليد المطلق في شروطه وأحكامه ، ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام الدينية ما لا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ، ولا قاسدا معلولا ، فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار ما امتنع في تقليد الاستكفاء والاختيار ، لوقوع الفرق بين شروط المكنته والعجز. والذي يتحفظ بتقليد المستولى من قوانين الشرع سبعة أشياء ، فيشترك في التزامها الخليفة الولي والأمير المستولى ، ووجوبها في جهة المستولى أغلظ .

أحدها حفظ منصب الإمامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الملة ، والثاني ظهور الطاعة الدينية ، والثالث اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ، ليكون للمسلمين على من سواهم ، والرابع أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة ، والأحكام والأقضية فيها نافذة ، والخامس أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها وليستبيحه آخذها ، والسادس أن تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق ، والسابع أن يكون للأمير في حفظ الدين ورجع عن محارم الله ، يأمر بحقه إن أطيع ، ويدعو إلى طاعة إن عصى .

فهذه سبع قواعد في قوانين الشرع يحفظ بها قوانين الامامة وأحكام الأمة فلاجلها وجب تقليد المستولى. فإن كملت فيه شروط الاختيار كان تقليده حتما استدعاء لطاعته ، ودفعاً لمشاqqته ومخالفته ، وصار بالأذن له نافذ التصرف في حقوق الملة وأحكام الأمة. فإن لم يكن في المستولى شروط الاختيار ، جاز للخليفة إظهار تقليده استدعاء لطاعته وحسماً لمخالفته ومعاندته ، أو كان نفوذ تصرفه في الأحكام والحقوق موقوفاً على أن يستنيب له الخليفة فيها لمن تكاملت فيه شروطها في نفسه ، فيصير التقليد للمستولى والتنفيذ في المستتاب . وجاز مثل هذا وإن شذ عن الأصول لأمرين : أحدهما أن الضرورة تسقط ما أعوز من شروط المكنته ، والثاني أن ما خيف انتشاره من المصالح العامة تخفف شروطه عن شروط المصالح الخاصة ، فإذا صحت إمارة الاستيلاء كان الفرق بينها وبين إمارة الاستكفاء من أربعة أوجه :

أحدها أن إمارة الاستيلاء متعينة في المتولى وإمارة الاستكفاء مقصورة على اختيار المستكفي ، والثاني أن إمارة الاستيلاء مشتملة على البلاد التي غلب عليها المستولى ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التي تضمنها عهد المستكفي ، والثالث أن إمارة الاستيلاء تشمل على معهود النظر ونادره ، وإمارة الاستكفاء مقصورة على معهود النظر دون نادره ، والرابع أن وزارة التفويض تصح في إمارة الاستيلاء ، ولا تصح في إمارة الاستكفاء ، لوقوع الفرق بين المستولى ووزيره في النظر ، لأن نظر الوزير مقصور على المعهود ، وللمستولى أن ينظر في النادر والمعهود . وإمارة الاستكفاء مقصورة على النظر المعهود فلم تصح معها وزارة تشتمل على مثلها من النظر المعهود لاشتباه حال الوزير بالمستور.

ملحق رقم (٢)

الخطبة على المنابر (١٥٩)

أما ما كان يخطب على المنابر للخلفاء ، فإن يقال فى الخطبة الثانية بعد الجلسة وبعد إعادة حمد الله والصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم «اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبد الله ، وذكّر الاسم واللقب، الإمام أمير المؤمنين بما أصلحت به الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين الذين يقضون بالحق ، وبه كانوا يعدلون . اللهم أعنه على ما طوقته ، وبارك له فيما أعطيته ، واحفظ له ما استرعيتَه واجعله لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين».

ملحق رقم (٣)

خلع التقليد والولاية (١٦٠)

الذى جرت به العادة فى خلع أصحاب الجيوش وولاية الحروب عمامة مصمتة سوداء، وسوار مصمت بهجريان مبطن الأسفل منه، وسوار آخر مصمت بغير جريان، وخز سوسى أحمر، ووشى مذهب وملحم أو مصمت خجى، وقباء ديبقى، وسيف احتباء أحمر حليته فضة بيضاء وقبيعته على القائم طيرزنته ، وعلى جفته فلك فضة، وعلى حائله مثلها، وحف أبو العباس وراءه ، والحملان دابة بسرج عربى، وركبه مربعة ، ومركبه على الاختيار ، وزيد أصحاب الفتوح والآثار الطوق والسوارين والسيف والمنطقة ، وصار ذلك رسماً لامراء الحضرة.

ملحق رقم (٤)

رسوم المكاتبات عن الخلفاء فى صدورهم وعنواناتها والأدعية فيها وما يعاد

منها فى أواخرها (١٦١)

من رسوم الكتب عن الخلفاء واليهيم، أن تكون بأوضح خط، وأفصح لفظ، وتكون السطور من أول القرطاس، ومن غير تفصيل فى أحد جانبي السطر، ويكون بين كل سطر وسطر سعة.

١٥٩- ابن الصائى : رسوم دار الخلافة ص ١٢٣ .

١٦٠- نفس المصدر ص ٩٣ و ٩٤ .

١٦١- نفس المصدر ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

وسبيل الكاتب أن يقل المشق والمد، ويتجنب الإرسال والإدغام، ويمتنع من النقط والشكل، فإن فيهما تقصيرا من يكاتب ، لأنه يتصور بصورة من تنقص معرفته فيحتاج إليها في مكاتبته .

فأما العنوان ، فالذي جرت العادة به فيه أن يكتب في جانبه الأيمن بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أبى جعفر الإمام القائم بأمر الله، أمير المؤمنين بغير دعاء ولاذكر اسم أب وإن كان خليفة ملقباً .. ومن الجانب الآخر من عبده، أو : عبده وصنيعته. وعلى ما يختار المكاتب فلان بن فلان، باسمه واسم أبيه . وإن كان مكنتى من حضرة الخليفة لم يذكر عليه، أو ملقباً مكنتى، اقتصر على اللقب والإسم واسم الأب. وإن كان الأب ملقباً مكنتى ذكره باللقب والإسم. وقال بعد ذلك مولى أمير المؤمنين إن كان من الأعاجم والموالى، ويكون جميع ما ذكرناه فى سطر واحد. وقد كانت العنونات العامة قديماً على مثل هذه الصفة من تقديم اسم الكاتب وتأخير اسم المكتوب إليه، إلا فيما كان إلى إمام، أو والد، على ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : إذا كتب أحدكم فليبدأ بنفسه، إلا إلى والد أو إمام. . واستعمل ادعاء على العنونات من بعد ذلك إلا ما كان وإلى الخليفة عنه، فإنه بقى على قديم رسمه . ومن الأوامر فى الكتب بالألقاب ، بكاتب أمير المؤمنين متلقياً متسماً ، ومن سواه متلقياً متكتبياً..

فأما صدر الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم ، فيكون لعبد الله أبى جعفر عبد الله الإمام القائم بأمر الله ، أمير المؤمنين ، بغير دعاء من عبده فلان، سلام على أمير المؤمنين فإنى أحمد إليه الله الذى لا إله إلا هو وأسأله ان يصل على عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد كان ما يكتب به قديماً فى الصدور لأبى فلان فلان ، سلام عليك أما بعد ، حتى كان أيام المأمون صلوات الله عليه، فانه زيد بعد سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأسأله ان يصل على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم. فيكون الصدر الذى ذكرناه فى سطرين . ويقال بعده : أما بعد ، أطال الله بقاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، وأدام عزه وتأييده وكرامته ، وسعادته ، وأتم نعمته عليه وزاد فى احسانه وفضله عنده، وجميل بلائه، وجزيل عطائه له، فالحمد لله ، ويوصف الله بصفاته إن كان الكاتب ابتدأ فى أخبار بفتح أو مطالعة بآثر ، وإن كان جواباً ، قيل : أما بعد فإن كتاب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ويستتم الدعاء . ورد على عبده كذا، ويقبض الكتاب، وفهمه وفعل وصنع ، وتشرح

٢٠٩

الصورة فيما يراه ذكره .. وإذا فرغ من الكتاب وختم بأن شاء الله، قيل أتم الله على أمير المؤمنين نعمته وهنأه وكرامته والبسه عفوه وعافيته وأمنه وسلامته، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. وكتب يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . ولا يذكر إسمه لأن ذلك يفعل فيما يكتب به عن الخلفاء لا إليهم .. وأما الكتب إلى ولاية العهد فعلى مثل هذا الترتيب . ويقال للأمير واللقب إن كان ملقباً : إلى فلان ولى عهد المسلمين وابن أمير المؤمنين إن كان ولد الخليفة.. وما كان الرسم جارياً به أن يقتصر في الكتاب إلى الخليفة، أو منه، أو من الوزير إلى عماله ، ومن عماله إليه، على معنى واحد تكون المعاني إذا كثرت في عدة كتب .

ملحق رقم (٥)

رسالة إبراهيم بن أحمد الأغلبى إلى أبى عبد الله الشيعى (١٦٢)

« .. ما حملك على التعرض لسخطى والوثوب فى ملكى وإفساد ريعتى والخروج عليها. فإن كنت تبغى غرضاً من أغراض الدنيا وجدته عندي، وإن أنت تلاقيت أمرك ورجعت عن غيك ، فصر إلى وأنت آمن. فإن أردت المقام ببلدنا أقمت ، وإن أحببت الانصراف انصرفت . وإن كان قصدك قصد من سولت له نفسه الخلاف على الائمة واستفساد جهلة الأمة، فقد عرفت عواقب من يئنه نفس أمنيته، وسولت له ما سولت لك من الهلاك العاجل قبل سوء المصير فى الآجل. ولا يغرنك ما رأيت من اقبال هؤلاء الأوياش عليك وإتباعهم إياك، فإنى لو صرفت وجهى إليك لأسلموك وبتروا منك. وأعلم أننى إنما أردت الاعذار إليك لاستظهار الحجة عليك، وهذا أول كلامك وآخره ، لا أقبل لك بعد هذا توبة ، ولا أقبلك عنده، ولا أجعل جواب ما يكون منك إلا التهوض إليك بنفسى وجميع أبطال رجالى وأنصار دولتى وجملة أهل مملكتى ، فعندئذ تندم حين لا ينفع الندم ، ولا تقبل منك التوبة وانظر فى يومك لغدك ، وقد اعذر من أنذر...» .

ملحق رقم (٦)

رد أبى عبدالله الشيعى على رسالة إبراهيم بن أحمد الأغلبى (١٦٣)

« .. ما أنا بمن يردع بالايعاد ، ولا بمن يهوله الإبراق والإرعاد . فأما تخويفك إياى برجال مملكتك وأنصار دولتك أبناء حطام الدنيا الذين ينقادون لكل سابق، ويجيبون لكل داع وناعق، فإننا من أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لاتروعههم كثرة أنصار الباطل، مع قول الله تعالى وهو أصدق القائلين: « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . فأما ما أطمع به من دنياك وغرضك من دينها وحطامها ، فلسنت من أهل الطمع فأميل إليك، ولاقيمن يرغب فيما عندك وإنما يبعث رسولا لأمر قد حم وقرب، فان سولت لك نفسك ما وعدت به وعده إلك، فسوف تعلم أن الله عز وجل من ورائه، ولن يغن عنك من الله شيئا ولو كثرت . وإن الله مع المؤمنين .. ».

* * *

المصادر

أولاً : المخطوطات العربية :

- ١- أبوحنيفة : الإمام أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور (٣٦٣هـ) : أساس التأويل الباطنى- مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٢٤٣٤٦ ح .
- ٢- أبو زكرياء : يحيى بن أبى بكر (القرن الرابع الهجرى) : - كتاب السيرة وأخبار الأئمة - مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٩٠٣٠ ح .
- ٣- الانتصارى : أحمد بن الحسين النائب الانتصارى (١١١٣هـ) : نفحات القنسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان - مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم ١٠٦٧١ ح.
- ٤- الدرجينى : أبو العباس أحمد (القرن السابع الهجرى) : طبقات الإباضية - ج ١ - مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم ١٢٥٦١ ح.
- ٥- الصفرى : أبو غانم (٢٩٦هـ) - المدونة- مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٢١٥٨٢ ح.
- ٦- عياض : القاضى عياض بن موسى اليحصبى (٥٤٤هـ) : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك- قسم ١ من ج ٢ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٦٧٣٠ ح.
- ٧- مالك : الإمام مالك (١٧٩هـ) - الموطأ- مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٤٥٤ ب.
- ٨- مجهول : تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والأندلسيين- مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٤٤١٩ ح.
- ٩- المنصورى : ركن الدين بيبيرس المنصورى الدوادار (٢٢٩هـ) - زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٤ و ٥- مخطوط بجامعة القاهرة- رقم ٢٤٠٢٧ ح .
- ١٠- النويزى : شهاب الدين أحمد (٧٣٣هـ) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٢ و ٢٦ - مخطوط بدار الكتب المصرية- رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ثانيا : المراجع العربية :

- ١١- ابن الآبار : أبو عبدالله محمد (٦٥٨هـ) : الحلة السيرة- نشر مولر- فرانز ١٨٦٦م .
- ١٢- ابن أوى زرع : محمد بن عبد الحليم (٧١٠-٧٢٠هـ) الأتيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس- فاس، طبع حجر.
- ١٤- ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (٦٣٠هـ) الكامل ج ٥ القاهرة ١٣٥٧هـ، ج ٦ القاهرة ١٣٥٣هـ .
- ١٥- ابن بطريق : البطريرك أفيتشيسوس المكنى بسعيد بن بطريق (٣٢٨هـ) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق - بيروت ١٩٠٥م .
- ١٦- ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى (٨٧٠هـ) - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ، ٣ القاهرة ١٩٣٠م .
- ١٧- ابن حوقل : أبو القاسم بن حوقل (النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك - ليدن ١٨٧٢م .
- ١٨- ابن خرداذبة : عبيدالله بن خرداذبة (القرن الثالث الهجرى) : المسالك والممالك - ليدن ١٨٧٢م .
- ١٩- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن الخطيب السليمانى (٩٤٠هـ) - أعمال الأعلام فيمن يروع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق : بروفنسال . بيروت ١٩٥٦م .
- ٢٠- ابن الخطيب : أعمال الأعلام . نشر : د. أحمد مختار العبادى وزميله تحت عنوان : المغرب العربى فى العصر الوسيط - ج ٣- الدار البيضاء ١٩٦٤م .
- ٢١- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) المقدمة - بيروت .
- ٢٢- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير ج ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ يولاق ١٢٨٤هـ .
- ٢٣- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس (٦٨١هـ) وفيات الأعيان ج ١ القاهرة ١٣١٠هـ .

- ٢٤- ابن الداية : المكافأة . القاهرة ١٩١٤م.
- ٢٥- ابن سعيد : على بن موسى بن محمد (٦٧٣هـ) سيرة أحمد بن طولون نقلا عن ابن الداية . برلين ١٨٩٤م.
- ٢٦- ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ط ٢ القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٧- ابن الصابىء : هلال بن الحسن الصابىء (٤٤٨هـ) : رسوم دار الخلافة ، بغداد ١٩٦٤م.
- ٢٨- ابن طيفور : أحمد بن طاهر الكاتب (٢٨٠هـ) ، بغداد - القاهرة ١٩٤٩م.
- ٢٩- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم بن أعين (٢٥٧هـ) ، فتوح مصر والمغرب- القاهرة ١٩٦١م ، لندن ١٩٢٠م.
- ٣٠- ابن العبرى: غريغوريوس أبو الفرج بن هارون (١٢٨٦م) ، تاريخ مختصر الدول- بيروت ١٨٩٠م.
- ٣١- ابن عذارى: أبو عبدالله محمد (نهاية القرن السابع الهجرى) ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ، ٢ بيروت ١٩٥٠م.
- ٣٢- ابن عيسى : محمد بن يوسف بن عيسى (١٣٠٤م) كتاب الامكان فيما جاز أن يكون أو كان - طبع حجر .
- ٣٣- ابن فرحون : ابراهيم بن على بن فرحون (٧٩٩م) الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب القاهرة ١٣٥١هـ ، ١٣٢٩هـ .
- ٣٤- ابن الفرضى : عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي (٤٠٣هـ) ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ج ١ ، ٢ القاهرة ١٩٥٤م.
- ٣٥- ابن القوطية : محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم (٢٦٧هـ) ، تاريخ اقتتاح الأندلس- القاهرة. ب . ت .
- ٣٦- أبو العرب : أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (٣٣٣هـ) ، طبقات علماء إفريقية - الجزائر ١٩١٤م.
- ٣٧- الإدريسى : الشريف أبو عبدالله محمد (٥٥٨هـ) ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس - لندن ١٩٦٤م.

- ٣٨- إحسان عباس (الدكتور) ، العرب فى صقلية القاهرة ١٩٥٩م.
- ٣٩- لويس : (أرشيبالد) ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط- ترجمة أحمد عيسى- القاهرة . ب.ت.
- ٤٠- الإصطخرى : إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكروخى (النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) ، المسالك والممالك- القاهرة ١٩٦١ .
- ٤١- الأتصارى : أحمد النائب الاتصارى (١١١٣هـ) ، المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ج ١ بيروت .
- ٤٢- إيشهورن : جود فريد إيشهورن (تحقيق) ذكر بلاد المغرب. ب.ت .
- ٤٣- الباجى: محمد الباجى المسعودى (١٢٥٤هـ) ، الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية - تونس ١٢٨٣هـ .
- ٤٤- البارونى : سليمان بن عبدالله البارونى النفوسى (١٣٥٩هـ) ، الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ج ٢، ب.ت.
- ٤٥- برنادلويس : أصول الاسماعيلية - ترجمة خليل أحمد حلوزميله - القاهرة ١٩٤٧م.
- ٤٦- بروفنسال : ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس - ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم وزميله، القاهرة ١٩٥٦م.
- ٤٧- بروفنسال (تحقيق ونشر) - نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى . الرباط ١٩٣٤م.
- ٤٨- بروفنسال : (تحقيق ونشر) نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى . باريس ١٩٢٩م.
- ٤٩- البكرى : عبدالله بن عبد العزيز البكرى (٤٦٠هـ) ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب- باريس ١٩١١م.
- ٥٠- البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (٢٤٨هـ) ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٦م.

- ٥١- البلوى : عبد الله بن محمد المدينى البلوى (حول منتصف القرن الرابع الهجرى) ،
سيرة أحمد بن طولون - دمشق ١٣٥٨هـ .
- ٥٢- بينز : نورمان بينز . الإمبراطورية البيزنطية- ترجمة د. حسين مؤنس وزميله .
القاهرة ١٩٥٠م .
- ٥٣- حسن إبراهيم حسن (الدكتور) ، تاريخ الإسلام السياسى ، ٣ أجزاء القاهرة ١٩٦٢م .
- ٥٤- حسن إبراهيم حسن (الدكتور) : الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٥٨م .
- ٥٥- حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس- تونس ١٣٧٣هـ .
- ٥٦- حسن الباشا : (الدكتور) : الألقاب الإسلامية . القاهرة ١٩٥٧م .
- ٥٧- حسن أحمد محمود : (الدكتور) : حضارة مصر الإسلامية - العصر الطولونى .
القاهرة ١٩٦٠م .
- ٥٨- حسن أحمد محمود (الدكتور) : قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧م .
- ٥٩- حسن أحمد محمود (الدكتور) : انتشار الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ،
القاهرة ١٩٥٧م .
- ٦٠- حسن أحمد محمود (الدكتور) : مصر فى عصر الطولونيين والاختشدين . القاهرة .
- ٦١- الحميدى: أبو عبدالله محمد بن أبى نصر الأزدى (٤٨٨هـ) ، جذوة المقتبس ، القاهرة
١٩٦٦م .
- ٦٢- الخشنى : محمد بن الحارث بن أسد الخشنى (٣٦٦هـ) ، طبقات علماء إفريقيا .
الجزائر ١٩١٤م .
- ٦٣- الدباغ : عبد الرحمن محمد بن عبدالله الانصارى (٦٩٦هـ) ، معالم الإيمان فى
معرفة أهل القيروان ج ١ ، ٢ تونس ١٣٢٠هـ .
- ٦٤- زكى محمد حسن (الدكتور) ، فنون الإسلام . القاهرة ١٩٤٨م .
- ٦٥- السيد عبد العزيز سالم : (الدكتور) ، المغرب الكبير - العصر الإسلامى ج ٢ ،
القاهرة ١٩٦٦م .
- ٦٦- السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، القاهرة
١٩٦٢م .

- ٦٧- سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) ، تاريخ المغرب العربى . القاهرة ١٩٦٥م.
- ٦٨- السلاوى : أحمد بن خالد الناصرى (١٣١٩هـ) ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ - الدار البيضاء ١٩٥٤م.
- ٦٩- سيدة الكاشف : (الدكتورة) ، مصر فى فجر الإسلام . القاهرة ١٩٤٧م.
- ٧٠- سيدة الكاشف : (الدكتورة) مصر فى عصر الولاة ، القاهرة ١٩٦٠م.
- ٧١- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٩١١هـ) بغية الوعاة ج ١ ، ٢ . القاهرة ١٩٦٥م.
- ٧٢- السيوطى : تاريخ الخلفاء . القاهرة ١٩٦٤م.
- ٧٣- السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ١ . القاهرة ١٣٢٧هـ، ج ٢ القاهرة ١٢٩٩هـ.
- ٧٤- الشهرستانى : محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ) ، الملل والنحل ج ١ - القاهرة ١٣١٧هـ.
- ٧٥- الشماخى : أحمد بن أبى عثمان سعيد عبد الواحد (٩٢٨هـ)، كتاب السير (سير علماء ومشايخ جبل نفوسة) طبع حجر القاهرة. ب.ت .
- ٧٦- الطباع : دكتور عبدالله أنيس (تحقيق) : الحلة السيرة لابن الأبار بيروت ١٩٦٢م.
- ٧٧- الطبرى : محمد بن جرير (٣١٠هـ) تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ، ٧ ، ٨ ، القاهرة ١٩٣٩م.
- ٧٨- عبد القاهر : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (٤٢٩هـ) ، الفرق بين الفرق، القاهرة ١٩٦٤م.
- ٧٩- العدوى : إبراهيم أحمد العدوى (دكتور): الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، القاهرة ١٩٥٧م.
- ٨٠- العدوى : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية . القاهرة ١٩٥١م.
- ٨١- العدوى : المسلمون والجرمان ، القاهرة ١٩٦٠م.

- ٨٢- عريب بن سعد : عريب بن سعد القرطبي (٣٦٦هـ) : صلة تاريخ الطبرى . القاهرة ١٩٣٩م.
- ٨٣- العرينى : دكتور السيد الباز : الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٠م.
- ٨٤- عنان : محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج١ القاهرة ١٩٤٣م.
- ٨٥- فازيليف : العرب والروم - ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة - القاهرة .
- ٨٦- أحمد فكرى : (الدكتور) ، مسجد القيروان - القاهرة ١٩٣٦م.
- ٨٧- قدامة بن جعفر: أبو الفرج بن جعفر البغدادى (٢٣٧هـ) الخراج وصناعة الكتابة- ليدن ١٨٨٩م.
- ٨٨- القلقشندى : أبو العباس أحمد (٨٢١هـ) ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاج ٣ ، ٥ - القاهرة ١٩٢٢م.
- ٨٩- الكتامى أبو عبدالله بن محمد بن جعفر (١٣٤٥هـ) ، الأزهار العطرة الأنفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس - فاس طبع حجر ١٣١٤هـ .
- ٩٠- الكرملى : الأب أنستاس مارى : التقود اللعربية وعلم النوميات - القاهرة ١٩٣٩م.
- ٩١- كليلى سازنيللى : مجاهد العامرى قائد الاسطول العربى فى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى - مصر ١٩٦١م.
- ٩٢- الكندى : محمد بن يوسف (٣٥٠هـ) ، الولاة والقضاة - بيروت ١٩١٨م.
- ٩٣- المالكى : عبدالله بن أبى عبدالله (نهاية القرن الرابع الهجرى) ، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ج١ - القاهرة ١٩٥١م.
- ٩٤- الماوردى : على بن محمد البصرى البغدادى (٤٥٠هـ) ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية - القاهرة ١٩٦٠م.
- ٩٥- مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار- الاسكندرية ١٩٥٨م.
- ٩٦- مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس - مدريد ١٧٦٧م .
- ٩٧- محمد جمال الدين سرور : (الدكتور) ، الدولة الفاطمية فى مصر- القاهرة ١٩٦٦م.

- ٩٨- محمد كامل حسين : (الدكتور)، أدب مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧م.
- ٩٩- المراكشى : محبى الدين أبى محمد عبد الواحد (٦٤٧هـ) ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . القاهرة ١٩١٤م.
- ١٠٠- المسعودى: على بن الحسين (٣٤٦هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجواهر ج ٢ - القاهرة ١٣٤٩هـ.
- ١٠١- المقدسى: شمس الدين محمد بن أحمد (٣٨٨هـ) : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، لندن ١٩٠٩م.
- ١٠٢- المقرئ : أحمد بن محمد المقرئ التلمسانى (١٠٤١هـ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ ، ٢ ، ٣ القاهرة ١٩٤٩م.
- ١٠٣- المقرئ : تقى الدين أحمد بن على (٨٤٥هـ) ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ٢ ، ٣ القاهرة ١٣٢٤هـ.
- ١٠٤- المقرئ : إيعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - القاهرة ١٩٤٨م.
- ١٠٥- المكتبة الصقلية - نشر أمارى- ج ١ ، ٢ ، ٣ - ليبزج ١٨٥٦م.
- ١٠٦- ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى- ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة - ج ١ ، ٢ القاهرة ١٩٤٨م.
- ١٠٧- اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (٢٨٤هـ) : البلدان - لندن ١٨٩٢م.
- ثالثا : الموسوعات والدوريات العربية :**
- ١٠٨- إبراهيم على طرخان : (الدكتور) المسلمون فى فرنسا وإيطاليا ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٣ ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٦م.
- ١٠٩- باسيه : رينيه باسيه Renea Basset ، أنظر : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ مادة ادريس الأول وإدريس الثانى.
- ١١٠- ديمومبين G. Demombuynes : أنظر : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٢ مادة بنى الأغلب .
- ١١١- الشيال : دكتور محمد جمال الدين : الصلات الثقافية بين المغرب ومدينة

الإسكندرية فى العصر الإسلامى، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية
مجلد ١٥ سنة ١٩٦١ الاسكندرية ١٩٦٢ .

١١٢- زاهر رياض : الدكتور : اتجاهات مصر الأفريقية فى العصور الوسطى. مجلة كلية
الآداب جامعة القاهرة مجلد ٢٠ ج ١ ، القاهرة سنة ١٩٦٢ م.

١١٣- العرينى ، دكتور السيد الباز : بعض معالم عهد شارلمان . المجلة التاريخية المصرية
مجلد ٨ سنة ١٩٥٣ ، القاهرة ١٩٥٩ م.

١١٤- مارسيد : G. Marcais : دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ مادة بنى رستم .

١١٥- مؤنس : دكتور حسين مؤنس . ثورات البربر فى إفريقيا والأندلس . مجلة كلية
الآداب جامعة فؤاد الأول مجلد ١٠ ج ١ القاهرة ١٩٤٨ م.

١١٦- مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية . المجلة
التاريخية المصرية مجلد ٤ عدد ١ . القاهرة ١٩٥١ م.

وابعا : المراجع الأفرنجية :

- 117- Altamira. R; Ahistory of Spain, trans. by Muna Lee, 1949 .
- 118- Amari . M., Storia dei Musulmani di Cicili vol . 1 .
- 119- Biquet . F., Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination
musulmane paris.
- 120- Brockelman . K., History of the Islamic people . London , 1949 .
- 121- Brunschvig. R., La Tunisie dans le haut moyen age. Le Caire . 1948.
- 122- Buckler . M. .A., Horun L-Rasbid and Charles the great , Mas-
sachusetts. 1931 .
- 123- Bury J.B., Ahistory of the eastern Roman empire ; From the fall of
Irene to the accession of Basil I. London 1912 .
- 124- cambridge. medieval history . vols. 2,3,4 . cambridge 1913 .
- 125- Condé . J. A. History of the dominion of the Arabs in Spain Trans.

by Mrs. Foster . vol 1 . London .

126- Diehl G, Byzantium , Greatness and decline trans . by Walford N.
New Jersey , 1957 .

127- Dozy . R.; Spanish Islam . A history of the Moslems in Spain .Trans.
by Stokes . F. G. London , 1913 .

128- Fournel . H., Les Berbers . Etude sur la conquête de l'Afrique par
les Arabes. vols. 1,2. paris, 1875 .

129- Gautier . E. F., Les Siecles obscurs du maghreb. Paris, 1927 .

130- Halphen . L., : Eginhard , Vie de Charlemagne . Paris, 1923 .

131- Halphen : Charlemagne et l'empire Carolingien, paris , 1949 .

132- Heyd . W., Histoire du commerce du levant au moyen âge . vol . 1.
leipzig , 1923 .

133- Hittie, P.K., History of the Arabs. London. 1943 .

134- Hole. E., Andalus : Spain under the Mslems. London 1958 .

135- Hopkins . J. F. P. , Medieval Muslim government in Barbary untill
the 6th century of Hira. London , 1958 .

136- Huart, G., Histoire des Arabes. vols . 1, 2 , Paris 1912 .

137- Ivanova . W., Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids.
India , 1942 .

138- Latrie . D. M., Traités de paix et de commerce , et documents divers
concernant les relation des chretiens avec les Arabes de l'Afrique sep-
tentrionale au moyen âge . Paris , 1865 .

139- Lane- Poole . S., Catalogue of the collection of Arabic coins pre-
sented in the khedivial Liberary at Cairo . London , 1897 .

- 140- Laviox . M. H., Catalogue de monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale. vol . 1 , 1889 vol. 2. 1891 , vol. 3 , 1896 .
- 141- Lot. F., Les invasions barbares et le peuplement de l'Europe . Paris, 1937 .
- 142- Marcais . G: L'Afrique du nord française dans l'histoire. Paris, 1937.
- 143- Mercier . E., Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps reculés jusqu'à la conquête Française (1830) vol.1 . Paris , 1888 .
- 144- Muir. W., The caliphate , its rise , decline, and fall . Edinburgh 1924.
- 145- O'Leary . D. L., A short history of the Fatimid khalifate London , 1923 .
- 146- Ostrogorsky . G, History of the Byzantine State. Trans . by Hussey . J. New Jersey , 1957 .
- 147- Pirenne . H. Mohammed and Charlemagne . New York .
- 148- Provencal . E. L., Histoire de l'Espagne Musulmane . vol . 1 . Alger, 1944 .
- 149- Reinaud . M., Invasions des Sarrasins en France. Paris , 1836 .
- 150- Runciman, S : Byzantine civilisation , New York , 1958 .
- 151- Sardo . E., Moorish Spain. Canada , 1963 .
- 152- Scott. S. P., History of the Moorish empire in Europe. vols. 1. 2. 3 . Philadelphia and London , 1904 .
- 153- Terrasse . H., L'Art Hispano - Maurisque . Paris . 1932 .
- 154- Vasilev. A.A History of the Byzantine empire. Trans . by Mrs. Rag-

ozin . S. vol. 1 . Madison 1928 .

155- Vonderheyden . M., La berberie Orientale sous la dynastie des Benou L-Arab . Paris, 1927 .

156- Winston . R., Charlemagne from the hammer to the cross. New York , 1954 .

157- Zaki . M. Hassan ., Les Tulunides, Etude de l'Egypte Musulmane a` la fin du 1 x e siecle. Paris, 1933 .

خامسا : الدوريات الإفرنجية :

158- De Candia . F., Monnaies Aghlabites du Mussé du Bardo Revue Tunisienne . Tunis, 1935 .

159- Hassā ibrahim : Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Umayyads in Spain during the 4 th century A. H. Bulletin of the Faculty of Arts. Cairo University . vol x. Part . 11 . Cairo 1948 .

160- Idris . H. R., Contribution a` l'histoire de l'Ifikiya . Tableau de la vie intellectuelle et administrative a` Kairouan sous les Aglabites et les Fatimites. Revue des etudes Islamiques. 1935-36 .

161- Setton . R. M., On the Raids of the Moslems in the Aegean in the ninth and tenth ceturies and the alleged occupation of Athens. Amercian Journal of Archaeology . vol . 58 . 1954 .

* * *

٢٢٣

الفهرس

صفحة

٣	تقديم
٥	مقدمة الطبعة الثانية
٧	مقدمة الطبعة الأولى

الباب الأول :

قيام دولة الأغالبة

١١	أولا - إفريقية قبيل قيام دولة الأغالبة
١٩	ثانيا - تولية إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية
٣٢	ثالثا - إستقرار الدولة

الباب الثاني :

الأغالبة والمشرق الإسلامى

٤١	أولا- علاقات الأغالبة بالخلافة العباسية
٤٢	(أ) سلطات الأمراء فى حدود التبعية للخلافة
٤٧	(ب) العلاقات السياسية
٥٨	(ج) العلاقات الاقتصادية
٦٣	(د) أثر بغداد فى الحياة الثقافية بالقيروان
٦٧	ثانيا - العلاقات بين مصر وإفريقية
٦٧	(أ) العلاقات السياسية
٦٧	(ب) العلاقات التجارية
٨٥	(ج) العلاقات الثقافية

الباب الثالث

الأغالبية ودول المغرب والأندلس

- أولا : العلاقات السياسية ٩٣
- (أ) الأغالبية وبنومدرار ٩٥
- (ب) الأغالبية والرستميون ٩٧
- (ج) الأغالبية والأدارسة ١٠٨
- (د) الأغالبية والأمويون بالأندلس ١٢٠
- ثانيا : العلاقات التجارية ١٣٠
- ثالثا : العلاقات الثقافية ١٣٣

الباب الرابع

الأغالبية والعالم المسيحي

- أولا : العلاقات السياسية : ١٤٣
- (أ) الأغالبية والبيزنطيون ١٤٣
- (ب) الأغالبية والفرنجية ١٦٣
- ثانيا : العلاقات التجارية ١٨٠

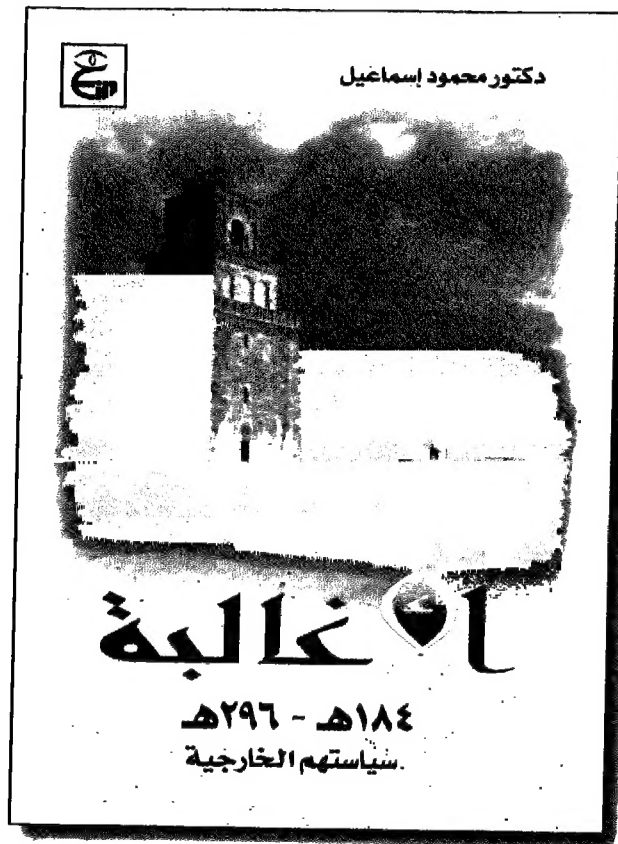
الباب الخامس

- نهاية الأغالبية ١٨٧
- الملاحق ٢٠٥
- المصادر ٢١١

رقم الإيناع ٩٩/١٥٧٨٩

الترقيم الدولي 977 - 322 - 022 - 2

دار روثاينت للطباعة ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب الشرق



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES